

# بنچامین فرانکلین

صورة عالم، كاتب، فيلسوف، إنسان

يتعلم  
عباس محمود العقاد

مترجمة إلى العربية والتشر  
كتبة المختصة المصتبة  
في مكتبة حسن يوسف بمكتبة الإبراهيمية  
مشائخ من أدب العالم

١٩٥٥

حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة  
لمؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر

Ibas Mahmoud AL AKKAD'S «Biography of Benjamin Franklin»  
All rights reserved  
Franklin Publications, Inc.

محتويات الكتاب

١٣٦

٧ «هذا الكتاب وهذا الرجل» بقلم حسن جلال العروسي  
٩ تمهيد : بقلم عباس محمود العقاد

الغزو الأول - عن فرانكفورت

١١٣	تمهيد
١١٦	تقدير ورشاد السكين
١٣٣	رسائل
١٩٩	خرافات وحكايات ذات مغزى
٢٠٩	علميات
٢١٩	اجتماعيات
٢٣٠	خاتمة



# هذا الكتاب وهذا الرجل

بقلم حسن جلال العروى

المستشار العام لمؤسسة فرانكلين

يصدر هذا الكتاب يوم ١٧ من يناير سنة ١٩٥٦ قصداً وعدها ،  
لا مصادفة ولا اعتباطاً ، ففي مثل هذا اليوم من مائتين وخمسين عاماً  
( ١٧ من يناير سنة ١٧٠٦ ) ولد بنجامين فرنكلين العبقري الأمريكي  
القديس ، العالم ، الكاتب ، السياسي ، الدبلوماسي : الفيلسوف ، الإنسان  
الذى لا يقال فيه خير مما قاله كاتبنا الكبير الاستاذ عباس محمود العقاد  
مؤلف هذه الدراسة الرائعة .

اليوم يحتفل العالم كله بحياة ذكرى فرنكلين وتكريمه بنشر تعاليمه  
وفلسفته الإنسانية في ميثاق تعاهد فيه مواطنو خمسين دولة مختلفة على  
تخليص ذكرى الرجل الكبير بالعمل على نشر المبادئ السامية التي  
استهدفتها في حياته . قدعوا إلى العمل — في نطاق دولي لا يعرف الحدود  
والنخوم — على إنشاء الثقة المتبادلة بين الأفراد ، واحترام الكرامة  
الإنسانية ، ومحو العنصرية ، وتدعم التفاهم المشترك ، وتبادل احترام  
العقائد المختلفة ، والتسلك بالحرية في مختلف صورها ، والدعوة إلى  
اتاحة الفرص المتكافئة للجميع ... الخ . ما أعلنته هذه الجماعة من مبادئ  
وقيم خلقية هي صميم المثل العليا التي تستلهم من سيرة بنجامين فرنكلين .

وهذا التكريم لذكرى فرنكلين سيقته مظاهر عديدة من مظاهر  
التمجيد والتخليص فسميت باسمه عشرات المؤسسات والهيئات العلمية  
والأدبية ، ولعل القارئ يدرك أن هذه المؤسسة بالذات إنما سميت  
باسمه ولم يكن ذلك مجرد تخليص ذكرة فحسب بل لأن القائمين بها

رأوا — وبحق — أن في نسبتها إليه أيضاً للأهداف التي تسعى إلى تحقيقها في خدمة السلام والأخوة الإنسانية عن طريق الثقافة وتقريب مستويات المعرفة الصحيحة والآدراك السليم .

ومن أحدث مظاهر التكريم لهذا الإنسان العظيم ما قررته جامعة (يل) أخيراً من نشر جميع ما كتبه فرنكلين في حياته العامة والخاصة، في مجلدات ضخمة ستنشر تباعاً . وقد حذرت جامعة (يل) في هذا الشأن حذرو جامعة برنسون في نشر «أوراق» توماس جيفرسون الرئيس الأمريكي القيسوف .

إن في قراءة سير العظام متعة وثقافة والهاما ، وأحسب أن شبابنا في مراحل تكوينه لا يستطيع أن يستغل أوقات فراغه بشكل أفضل من الأقبال على قراءة الجيد من سير العظام ، واستلهام عظات حياتهم في استكشاف طريقه في الحياة . والسيرة التي قدمها اليوم حرية بالتأمل والدراسة . وحسبك من قصة حياة أن يكون صاحبها يشجع من فرنكلين، وأن يكون كاتبها الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد ذلك المفكر العملاق الذي تجاوיבت عقريته مع عقريته من سبقوه ، فكانت هذه الدراسات الفنية العميقة — التي عرفت بالعقبارات — والتي أضافت ثروة أدبية كبيرة إلى المكتبة العربية .

# تمثيل

## بهمself عناس محمود العقاد

انسان وافر النصيب من ثناء الناس ، ومن ثناء الذين لا يشون على أحد الا بمقدار ، وقلما يشون بمقدار .

حياة فولتير فسماه « فرنكلين المجيد الحكم » <sup>(١)</sup> .

وحياته دافيد هيوم فقال : « انه الفيلسوف الأول والأديب الأول الذي جذب أنظار أوربة الى البلاد الأمريكية » <sup>(٢)</sup> .

وحياته المصلح الناقد صمويل روميلى فقال بعد زيارته : « بين المشاهير الذين اتفق لي ان رأيتهم في حياتي ، يلوح لي ان فرنكلين — بسميه وحديته — أبذرهم بالتبويه ، فطلعته الأبوية وبساطته في هيئة وكلامه ، وجده ملاحظاته ... تركت في نفسى رأيا فيه أنه من صفوته الرجال الذين وجدوا في كل زمان » <sup>(٣)</sup> .

وقال بليزاك : « انه اخترع عمود الصواعق ، واخترع القفحة ، واخترع الجمهورية » .

وخطابه رئيس قومه واشنطنون قال : « اذا كان التمجيل اكرااما للخير ، وإذا كان الاعجاب اكرااما للتبويه ، وإذا كان التقدير للوطنية والحب للإنسانية ، خليقة أن نفهم عقل الإنسان الرضا والبغضة ، فلا مشاحة يتوافر لك السلوان بالحياة التي لا تذهب سدى » <sup>(٤)</sup> .

Poor Richard (١)

(٢) بنجامين فرنكلين تأليف برنارد كوهن

(٣) مشاهير رجال العلم في أمريكا تأليف كروفورد

Famous American Men of Sciences by Cowther

Burlingame (٤) الأمريكي الاول تأليف برلنجم

وقال رئيس قومه فرنكلين روزفلت وهو يحيى ذكراه بعد مائة وخمسين سنة : « ان بنiamin فرنكلين الذى تدين له الجامعة - جامعة بيل - بالكثير ، قد أدرك أيضاً أن المبادئ الأساسية في العلم والأخلاق وأداب الاجتماع على خلودها تتجدد بالتطبيق والتنفيذ على حسب المعيشة من جيل إلى جيل ، واتنى على يقين أنه لو كان معنا اليوم لقرر أن الواجب الأكبر على الفيلسوف والمعلم أن يتحققوا مثل العليا للحق والخير والعدل بقططان العاضر لا بقططان الزمن الغابر .. » (١) .

هؤلاء يحملون نصراً التحية .

وآناس آخرون يثون عليه وهم لا يحملون غير الميزان ، وقد يحسنون حمله باليمن وباليسار .

قال ليونيل الفين Lionel Elvin في كتابه رجال أمريكا :

« كان للحياة في نفسه حب وعلاقات شتى ، وكان يحسن المتعة باللغو ، ويحبذ اليه القلوب ويملكها بذلك المودة التي تنجم من القناعة الحسية والصفاء القرير . وحق أنه كان إلى العطف أقرب منه إلى الشعور اللاعج ، وإلى الفطنة أقرب منه إلى القريرة الشعرية ، وإلى الأخلاق العملية أقرب منه إلى السروة الصوفية ، وإلى الاصلاح أقرب منه إلى الثورة والانقلاب ، وإلى أن يُعد في زمرة أبناء الدنيا أقرب من أن يُعد في زمرة الأنبياء . ولو أنه قدف به إلى جزيرة خالية لكان مسلكه فيما كسلكه روبيسون كروزو ولم يكن مسلكه ثمة كسلكه استكندرو سلكيirth من تصنيف كوبير ، وإن اختلاف الرأي في عرض هذا الخلق على معيار النقد ليتوقف على مزاج الناقد وتقديره ، وإنما أساس النقد كله أن فرنكلين قد أفرط في التوحيد بين الفضيلة والنجاح المحترم ، أو كما كتب على هامش ترجمته : ما من شيء كالفضيلة يكفل للمرء حظه ... ولكن مما يوضع له في الكلمة الأخرى أنه - إذا لم يكن قد عبر

(١) كتاب بيرنارد كوهن

عن أرفع الآفاق وأبعد الأعماق في الطبيعة الإنسانية — قد جعل بفضل علمه وحبه لخير بلاده الأمريكية ، كما جعل الدنيا كلها ، مكاناً أصلح للعيش فيه ، وقد صعد بجهوده في سلم وطنه الجديد ، وقدف بكل ما عنده في معركة الديمقراطية التي تقابل المجتمع الخاضع لسلطان الاستبداد ، وآمن بأن الناس جميعاً ينبغي أن يكونوا — في كل مكان — راضين سمحين أحراراً متقدرين ، وإن العمل مثل هذه الغاية وحسن الابادة عنها ليس بالمطلب الصغير ولا بالأمر الهين .. »

ومن الذين يشون عليه من لا يحملون نعصن التحيّة ولا يحملون ميزان العساب ، ولكنهم يحكمون إلى هوى العاشق وشوق المفتون ، ويقولون بلسان قاتلهم لورنس نبي الجسد في القرن العشرين :

« أنتي لأعجب به » .

« أعجب بشجاعته الداءوب قبل كل شيء ، ثم أعجب بحصافته ، ثم يبصره النافذ في غمائم البروق والرعود والكميريا ، ثم بفكاهته الدارجة : كلها خصال الرجل العظيم الذي لم يكن قط أكبر من مواطن عظيم » .

ثم يقسو ، أو تقسو شبيعته كلها بلسانه : « إنه ... طابع ، فيلسوف ، عالم ، مؤلف ، وطني ، زوج صالح ، مواطن ، فما باله لا يكون نموذجاً يقاس عليه ؟

« أترأه رائداً ؟ يا للرواد !

« لقد كان بنiamين رائداً من أكبر الرواد في الولايات المتحدة ، ولكننا لانستطيع أن نسلك معه . فما هو جانب الخطأ فيه ؟ وما هو جانب الخطأ فيما ؟

« أنتي لا أذكر في صبائك كيف كان أبي يشتري الكتاب الذي يسمى التقويم ونظير على غلافه صور الشمس والقمر والنجوم ، وتخالله النبوءات عن الحروب والمجاعات ، ومعها في الزوايا نوادر وأضاحيك تمازجها العبر والمعطيات ، وقد كنت أضحك ضحكتي الصغيرة الغريبة

من تلك المرأة التي تعودت أن تعد الكتاكيت قبل انفراج البيض عنها وما إلى هذه الفكاهات ، وعلمت من ثم أن الأمانة أفضل سياسة بشيء من تلك الغرارة . وكان مؤلف هذه الشذور ريتشارد المسكين ، وكان ريتشارد المسكين بنيامين فرنكلين ، كاتبا ما كتب في فلاديفيا قبل أكثر من مائة عام . وربما كنت حتى اليوم لا أسيغ تلك العبر والعظات ، ولا أزال ضائعا بها كأنها الشوك في لحم الصبي الصغير . ولأنني لا أزال أؤمن بأن الأمانة أفضل سياسة أراني أبغض السياسة بحذافيرها . وانه سواء عندي أن تعد الكتاكيت قبل مولدها وأن تعدوها منها ما يمنطرها بعد خروجها من البيضة . ولقد لبست السنوات الطوال وعانيا التوخرات التي لا عداد لها كي أخلص من ذلك الملاك الشائكة الذي أقام به ريتشارد المسكين أسوار الأخلاق » .

وقيل ذلك يقول لورنس عن فرنكلين والروح الإنسانية : « إن الروح الإنسانية غاب الألفاف ، وفرنكلين يقطعن منه حيزا يحرثه ويدير عليه حائط البستان » (١) .

وهذا هو الشرط الناقص في معيار لورنس نبي الجسد في القرن العشرين ، أو نبي النزوات الحسية على التعبير الصحيح .

فلا يوفق ذوقه نظام متكتشف لضوء النهار ، ولا بد من الألفاف المشابكة على غير نسق معلوم ، ولا بد من الزوايا المظلمة والتقطفات المضطربة هنا وهناك ، ولا بد من صدع العائط حول البستان ليزول البستان اسماؤسه ، ولا يبقى غير الغابة ذات الألفاف ، ذات السباع ، وحيانا لو اتسعت للأفاعي مع السباع !

ولا يطلب من كل عظيم أن يكون وفقا لشروط لورنس فيما يستحق به المحبة والعاطفة المشتعلة . حسب العظيم أن يكون وفقا لاعجابه وتعظيمه بسبب أو سبب ، وقد كان فرنكلين وفقا لشروط اعجابه بأسباب

(١) دراسات في الأدب السلفية الأمريكية تأليف لورنس D.H. Lawrence

كثيرة : شجاعة وحصافة وبصر نافذ خلل الغمام ، وفكاهة دار جقووطنية  
جدية بالاعظام والاكرام .

ولا نكتم عن أقسى آتنا فرضي عن معيار لورنس في تقدير العظمة  
بعض الرضا ولا نحس في تصميم الوجдан آتنا تكره كل الانكار .

أتكون عظمة بغير نار مقدسة ؟

كلا . لا غنى عن هذه النار المقدسة في عظمة عظيم ، وليس من حق  
النظام ولا النور أن يسلبها تلك النار التي لا يقر لها قرار .

إلا آذ العبرية كلها نار مقدسة ، والعبرية كلها لا يقر لها قرار مع  
اضطرام تلك النار .

وفرنكلين على وفاق هذا الشرط بغير شذوذ ولا استثناء ، فلا دخان  
ولا شرر ولا قمعة من الوقود المتأرجح بين الضراهم .

ولكن النار هناك في الوقود المصنون .

لا صاعقة تنقض على الحطام بين البروق والرعد ، ولكن العمود  
هناك يتلقى الصاعقة في أمان .

والفرق بين النارين حتم في مقام الكلام على عبرية فرنكلين .  
أليس هو صاحب المقد الذي تحس ناره ولا نحس دخانه وشرره ؟  
أليس هو صاحب العمود الذي يستنزل الصاعقة ويروضها بعد الجماح  
ويلاية الفارس الخير ؟

آذ العبرية التي يعجب بها لورنس كالنار التي تلتهب في المدخنة ثم  
تطير العرارة منها بين الجدران وبين الهواء والسماء .

ولم تذهب هذه النار بين يدي فرنكلين ، لأنه صاحب المقد الذي  
اخترعه ليحفظ النار وبيتها على السواء بين الجدران ، وليرسل منها إلى  
الفضاء ما تستغنى عنه الأبدان .

والصاعقة لم تذهب كذلك بين يديه ، ولكنها ساسها وقادها وأسلس زمامها ، فهي صاعقة في طريقها بين السماء والأرض ، ولكنها من قبيل العبرية التي خلقت لفرنكلين ١

ويوشك أن يكون التشبيه هنا واقعة محظومة لا مجاز فيها ، ويوشك أن يكون الموقف وعمود الصاعقة من اختراع هذا العبرى لأنهما أشبه التيران بعيقريته الطيبة الرفique : عبقرية تعجب النفوس والعقول ، ولكنها لاتروع ولا تهول .

لهذه العبرية مطحها بين العبريات في كل زمن ، ولعلها أولى بال محل الأول في هذا الزمن خاصة . لأنه زمن لا توزعه عبريات الهمب والدخان ، وقد توزعه المثاث من عبريات النور والهدایة والأمان .

ومن رسائل هذه العبرية في هذا الزمن أنه زمن ضاعت فيه الشخصية الإنسانية بين التخصص والكثرة العددية ، وكلاهما «فناء» لمرايا الإنسان أشبه بفناء «النرفانا» في عقائد المتهزمين المشكرين للحياة .

إن «الشخص» قد جار على «الشخصية الإنسانية» فلم يترك في كل امرىء الا جزءاً من إنسان مستغرقا في جزء من المعرفة وجزء من العناية بالعالم الواسع الذي يعيش فيه ، وليس أخر ولا أوخم من هذه التجزئة في الزمن الذي ولدت فيه الفكرة العالمية وأصبحت علاقة العالم الإنساني بعضه ببعض حقيقة متمكنة تتطلب الإنسان كله للمساهمة فيها ، ولا تقنع منه بجزء ناقص محبوس في أصداف المحار .

وأن هذه العبرية التي تعددت جوانبها وتشعبت شوارقها ، مع الازان والاعتدال وحسن الاحاطة والاجمال ، لمي الطريق الذي يشقى من هذه الآفة ، والقدرة التي تستنهض الهمة لمحاكاتها ، ثم لا تائشها من بلوغ الغاية في المحاكاة ، لأنها — بطبيعتها — تعجب النفوس والعقول ولكنها لاتروع ولا تهول .

وقد جارت الكثرة العددية على معالم الشخصية الإنسانية فرق هذا

الجور الذي ابتليت به من داء التخصص والانحصار ، وقد تجدى هذه العبرية جدواها التي لا تشبعها جدواي العبريات الأخرى في الصاف « الشخصية » الممتازة من طوفان الكثرة العددية . لأنها من هذه الكثرة خرجت ، ولهذه الكثرة عملت ، وعلى هذه الكثرة عولت في كل مرحلة من مراحل النجاح وعلى كل درجة من درجات السمو والارتفاع ، فلم يمنعها ارتفاعها من غمار الكثرة العددية أن تكون من زمانها إلى هذا الزمان مثلاً نادراً « للشخصية » الفندة التي لا تضيع في غمار .

والصفحات التالية صور متتابعة لهذه الشخصية أو لهذه العبرية ، لم تحفل فيها بسجل الأرقام ولا باحصاء الأيام ، ولم تكتبها لنبدأ فيها بسنة الولادة ونختتمها بسنة الوفاة ونمضي فيها مع التقويم شهراً بعد شهر وعاماً بعد عام ، ولكننا كتبناها كما نكتب ترجمتنا عامة لعرض فيها لمحه بعد لمحه ثم بها ملامح الصورة بعد الفراغ من النظر إليها ، وقد يتتابعها القارئ فلا يفوته مع ذلك سجل الأرقام ولا احصاء الأيام ، وإنما يطم بها حيث يعبرها في طريقه ، ويستغنى عنها بعد ذلك إذا شاء ، أو يقتربها على حد سواء .

و سنبدأ « الصورة » بترجمة مجللة ترسم مراحل الطريق ، أو ترسم حدود النظر إلى الأطار الذي يحيط بملامحها وقسماتها ، ثم تبعها بصورة لكل جانب من جوانب هذه الشخصية على أعمها وأوسعها ، مع صعوبة التعميم والاحتاطة بهذه الشخصية الفندة التي لم تدع شيئاً من شتون عصرها إلا اشتغلت به في وقت من الأوقات ، ثم تدع لها أن تتكلم بلسانها وتعبر لنا عن كل جانب من جوانبها ، ولعل الكلام الذي نسمعه منها أدل عليها من كل كلام يقال فيها .

ولنبدأ بالترجمة : ترجمة العالم الكاتب السياسي الفيلسوف الإنسان.



أَبْخَرُ الْأَوَّلِ  
عَنْ فَرَانِكِيلِين



## مقالم الطريق

كتب فرنكلين سيرته التي سماها المذكرات وسميت فيما بعد بالترجمة الذاتية ، وبالأما و هو ينوي أن يخص بها أبناء أسرته للاستفادة بها في شؤونهم العائلية ، ثم أطلع عليها بعض أصدقائه فأعجبوا بها وأشاروا عليه باتمامها و تعميم نشرها ، ولكنها لم تنشر في حياته ولم يحصل عليها الناشرون كاملة إلا بعد مساومات و مفاوضات طويلة ، مع الذين جمعوا أجزاءها في فرنسا حيث ظهر الجزء الأول منها للمرة الأولى مترجمًا إلى اللغة الفرنسية .

وقد كتبت هذه الترجمة على أربعة أجزاء في أوقات متعددة وأماكن متفرقة .

كتب الجزء الأول منها في إنجلترا وهو في الخامسة والستين من عمره ، ويشتمل بعد تاريخ أسلافه على تاريخ حياته من مولده في سنة ١٧٠٦ إلى زواجه سنة ١٧٣٥ .

وكتب الجزء الثاني في باريس بفرنسا بعد ذلك بثلاث عشرة سنة ( أي سنة ١٧٨٤ ) .

وكتب الجزء الثالث بعد أربع سنوات ( ١٧٨٨ ) على أثر عودته إلى فلاديفيا وبلغ به حوادث سنة ١٧٥٧ حين كان في العادية والخمسين .

والظنو أن أنه أضاف إليها الجزء الرابع ما بين أواخر سنة ١٧٨٩ وأوائل سنة ١٧٩٠ قبل وفاته بفترة وجيزة .

ولا توجد بين الترجمات الذاتية ترجمة لها نصيب هذه الترجمة من الأقبال والقراءة العامة ، لأنها حديث شائق عن رجل مشهور محبوب يروي قصة حياته ، ويحسن روایتها على النسق الذي يهم كل قارئ

وقارئه كأنها قصة للسلية ، وكأنها في الوقت نفسه قصة القاريء في حياته الإنسانية التي تتشابه بين جميع الناس على اختلاف الحوادث والأوقات .

وهذه الترجمة تصور صاحبها أصدق تصوير غيرها ذكره من أخباره وأعماله وفيما يستخلصه القاريء من بين السطور على غير قصد من المؤلف ، لأن أسلوبه فيها يفسر الناحية المهمة في شخصية فرنكلين وفي عوامل نجاحه وسهولة مسلكه بين الناس في كل مكان عمل فيه ، من وطنه إلى إنجلترا إلى فرنسا ، ومن بيته الصناع الفقراء إلى بيته الملوك والأمراء والنبلاء ، ومن طوائف الأميين وأشباه الأميين إلى طوائف العلماء والحكماء وقادة الآراء .

إن الرجل لم يكتب هذا المسلك السهل بالملق والموافقة ، لأنه كان ييدي رأيه على أنه إذا خالف ساميته ، وكان لا يشنى على أحد بغير أسلوب العالم الذي يعني كل ما يقوله وإن تلطف في التعبير ، ولكنه كتب هذا المسلك السهل بتسليمه للضعف الإنساني حيث لا تجدهي المكابرة ، فكان يعرف عيوبه ولا يداريها ، وكان حكمته التي كتبها في تقويمه « نتفت أصابعك قبل أن تنظر إلى بقى .. » شعارا له يتبعه ولا يلزم أحدا أن يتبعه مثله . فإذا كتب عن عيوبه خيل إلى القاريء أنه بوري من تلك العيوب ، وإذا شرح أعماله وتكلم عن أسباب نجاحه لم يكتم القاريء أنه فخور بها كما يصنع الكثيرون من أدعياء التواضع وانكار الذات ، ولكنه يتكلم عنها ويدع القاريء يفهم أنه قادر على مثلها إذا أراد ، وأن الأسباب التي استعان بها ميسورة بين يديه لأنها في ميسوره ومقدوره .

ومن مفتتح الترجمة إلى ختامها يجري المؤلف على هذا الأسلوب الصريح بغير تكلف ولا مداجاة ، فيقول في مفتتح الترجمة أنه كتبها ليرضى شهوة التحدث عن النفس التي تملك الشيوخ في آخريات أيامهم دون أن يضجر أحدا من ساميته ، لأنهم أحبر في السمع أو الاعراض ،

وأنه لا يكتفي عن القاريء أنه فخور بنجاحه ولا يبدأ الكلام فائلاً على سبيل الاعتذار « بلا فخر ولا ادعاء » ثم يتلوه كلام كله فخر وادعاء ... وبمثل هذا الأسلوب ي مجرد الفخر من شوكته المؤذية وي مجرد التواضع من طلائه الكاذب ، ويقف « بانسانيته » الضعيفة القوية بين أيدي أخواته من الناس .

ويستخلص القاريء من الترجمة صفة أخرى كان لها ولا دين أثرها العظيم في آلة فرنكلين للناس وألفة الناس إيه ، فإن القاريء ليفهم من الصفحات الأولى أنه يعيش مع « مخلوق اجتماعي » من فرعه إلى أصبح قدمه . وقد قيل قدیماً وحديثاً إن الحاسة العائلية أساس الحاسة الاجتماعية وقرارها الذي ترجع إليه في الأعماق ، وهذه الحاسة العائلية أو هذه الحاسة الاجتماعية هي التي تتضمن بها كل صفحة من صفحات الترجمة من بدايتها إلى نهايتها ، فإنه على عله بغير آباته وأجداده ، وعلى عزيمة الهجرة الأبدية التي اعتزماها مؤثراً دار الهجرة على مواطن الآباء والأجداد ، وعلى كثرة الشواغل التي تشغله السفير الأمريكي عن حكومة الدولة البريطانية في إبان الخلاف والشقاق ، لم يمنعه هذا كله أن يبحث عن توارييخ أسلافه البسطاء وأن يتحرى منها كل ما أمكنه العثور عليه وأن يثبته كما انتهى إليه بغير صقل ولا تزويق وبغير حشو ولا ادعاء .

ويستطيع القاريء من قراءة السطور وما بينها أن يفهم أن « بنiamين » قد ورث من كل سلف مذكور حمل اسم فرنكلين بنية قوية ومراجحة لا تقرب ما يكون المزاج الانساني إلى الاعتدال ، فسلك سبيلاً بين الناس بغير عقدة خفية وبغير خيبة مطوية ، واستعن بتلك البنية على احتمال ما يعيشه الكثيرون من خلائق الناس التي تطلق أو لا تطلق ، ولا وجه لاستغراب النجاح من رجل عليم بالضعف الانساني مقتدر على المعدنة مطبوع على الحاسة الاجتماعية ، سليم الأعصاب ، غير مضطرب المزاج . ونحن لا نزيد في هذا الفصل — بدأنا — أن ننقل الترجمة كلها أو

تلخصها ، ولا نريد كما ذكرنا في التمهيد أن نستقصي هذه الترجمة في سائر فصول الكتاب ، لأننا آثرنا أن تتكلم على جوانب الصورة التي ترسم لنا ملامح فرنكلين ، وندع الكلام عن وقائع الحوادث وأرقام السنين ، فيعيننا فرنكلين العالم كيف كان عالما ، وفرنكلين الكتاب كيف كان كاتبا ، وفرنكلين السياسي وفرنكلين الفيلسوف كيف كان في مناهجه السياسية وفي آرائه الفلسفية ، وكيف كان فرنكلين الإنسان بعد ذلك إنسانا حيا في جميع تلك الجوانب أو جميع تلك الملامح من الصورة الشاملة ، ولا يعيننا ماعدا ذلك من التفاصيل التي لا تصحبها « شخصية » من هذه التفاصيل .

نحن لا نريد أن ننقل الترجمة أو تلخصها ، ولكننا لا نستطيع مع هذا أن نغفلها وندع النقل منها في كتاب عن « شخصية » الكتاب الذي ألقاها ... مما نقله هنا من الترجمة فاما هو الجزء الذي يكفي للإبانة عن أسلوبه والجزء الذي تفرد الترجمة به فلا يشاركا فيه مصدر آخر من مصادر السيرة التاريخية ، وذلك هو الجزء الذي يتكلم فيه فرنكلين عن سلفه إلى مولده وطفولته واختياراته لصناعة على آسسال من سوابق أولئك الأ elősl ، ثم تتبع هذا الجزء بالإشارة إلى خطوات هذه الحياة العاشرة بين أرقام السنين ، لأنها سجل يراجع عند الضرورة كلما دعت الحاجة إليه في متابعة فصول الكتاب ، ولا يفوتنا أن نعد من أسباب هذا الاكتفاء أن مذكرات فرنكلين ليست من قبيل التراجم التي تختصر وتلخص فيعني عنها الاختصار والتلخيص ، لأنها بنية حية وليس أشتاتا من الحوادث يمسكها السبط ويائى من يشاء فيقطع السبط حيث يشاء ، ولكنها تؤخذ جانباً جانباً كما تؤخذ الصور من جوانبها المتعددة ، وهذا هو جانبها الذي اخترناه لنقله بغير تصرف فيه ، للسبب الذي قدمناه .

قال فرنكلين في النسخة الأولى من مذكراته :

« هنا سأرضي تلك النزعة المألوفة في الشيوخ : نزعة التحدث عن

أنفسهم وأعمالهم الماضية ، دون أن أزعج بها غيري من يحسبون — رعاية للسن — أنهم مطالبون بالاصناف إلى ، إذ كان في وسعهم أن يقرأوا أو يدعوا القراءة متى شاءوا . وسأعترف أخيراً بأنني مارضى غرورى لأننى انكفرت لم يصدقنى أحد . والحق أنتى ما سمعت ولا قرأت قوله لقائل فى التمهيد لكتابه انه لا يريد أن يدعى أو يفتر ... الا رأيت بعد ذلك ضرباً من الادعاء أو الغرور ياتى على الأثر . وان كثيراً من الناس ليغضبون الغرور فى الآخرين مهما يكن من وفرة تنصيبهم منه ، ولكننى تعودت أن أفسح له مكاناً كلما التقى به ، لعلنى أنه يعيد أحياناً من يفترون ومن يتصلون بهم في جوارهم ، وليس من العبث اذن أن يشكر الإنسان ربه على ما يسديه اليه من الغرور بين سائر النسم الذى يستمتع بها في حاته .

«والآن أقول بعد حمد الله متطامنا بين يديه أنتي مدین بما نعمت به من السعادة لحكمته الرحيمية التي هدتي الى الوسائل التي توسلت بها وبلغت ما بلغت من النجاح بفضلها ، واز يقيني بهذا يدعوني الى الأمل ، واز كنت لا أعلم الغيب ، أن تلك الحكمة الرحيمية سوف تتولاني لاستبقاء تلك السعادة أو للصبر على ما يصيبني من خيبة الرجاء كما يصيب الآخرين . اذا لا يعلم مصيرى غير الله التقدير على أن يجعل في كل شيء بركة حتى العذاب .

« إن المذکرات التي أسلّمها إلى أحد أعمامى المعنین مثلی باستطلاع الأخبار والتواتر عن أسلاف قد زودتني ببعض المعلومات الخاصة عن أولئك الأسلاف ، وقد علمت من هذه المذکرات أن العائلة سكتت القرية بعينها — قرية أكتون في نورثامبتون شاير — ثلاثمائة سنة ولا يعلم کم من السنين أقامت فيها قبل ذلك ، ولعلها بدأت منذ اتخذت اسم فرنكلين ، الذي كان علما على طائفة من الناس ، لقبا لها يوم ذهب الناس جمعا يقرّون أسماءهم بالألقاب في سائر أنحاء المملكة .

« وكانوا يعيشون على نحو ثلاثين فداناً مستعدين مع غلتها بصناعة

العدادة التي احترقتها الأسرة الى أيامه ، وكان أكبر الأبناء يتدرّب من نشأته على هذه الصناعة : عادة جرى عليها الآباء من القدم ونفع هو وأبنى على مثالهم فيها .

« ولا ذهبت لمراجعة السجلات المحفوظة في قرية أكتون وجدت فيها تسجيلات لولدهم وزواجهم ووفاتهم منذ سنة ١٥٥٥ ولم أجد لهم تسجيلات محفوظة قبل تلك السنة ، وعلمت من تلك التسجيلات أني كنت أصغر الأبناء لأصغر الأبناء خمسة أجيال متلاحقة ، وكان جدي توماس الذي ولد سنة ١٥٩٨ معمراً عاش في أكتون حتى أقعدته السن عن مباشرة الصناعة فذهب الى بانبرى من إقليم « أكسفورد شاير » ليعيش مع ابنه جون الذي كان يحترف الصباغة وعلى يديه تعلم أبي هذه الصناعة ، وقد توفي جدي ودفن بها ورأينا شاهد قبره سنة ١٧٥٨ .

« وسكن ابنه الأكبر — توماس — في منزل أكتون ثم تركه ومعه الأرض لابنته الوحيدة التي باعت الميراث — هي وزوجها المسمى فيشر من ولنجبورو — لستر استيد مالك الأرض الآن .

« وقد كان لجدي أربعة أبناء شدوا وكبروا وهم توماس وجون وبنيامين وجوشيا ، وساخرتك بما علمته عنهم يعيداً من مراجعى وأوراقى معتمداً على ما وعنه الذاكرة . فاذ لم تكن تلك الأوراق قد ضاعت فانك واجد فيها مزيداً من التفصيات .

« نشأ توماس حداداً بصحبة أبيه ، ولكنه كان ذكياً فشجعه السيد بالمر عميد البلد كما شجع الخوته على التعلم والاستزادة من المعرفة ، فتدرّب على كتابة العقود ونبه شأنه في أمور البلد وأصبح وعليه المعول في توجيه المسائل العامة بنور ثابتون وقريته التي روت لنا أخباراً كثيرة عنه ، وذاع صيته في أكتون فتولاه لورد هليفاكس يومئذ برعايته . ثم مات في السادس من شهر يناير سنة ١٧٠٢ حسب التقويم القديم قبل مولده بأربع سنوات ، وتدل سيرته التي تلقيناها من شيخوخ أكتون كما أذكرها

على أمر عجب لشدة الشبه بينها وبين سيرتي ، ولو أنه مات في نفس اليوم الذي ولدت فيه لخطر تلك أنتي تقمصت روحه

« ونشأ جون صباحاً يستغل على ما أظن بصبح الصوف ، ونشأ  
بنيامين صباحاً للحرir متلماً في الصناعة بلندن . وكان رجلاً ملرياً أذكره  
جيداً لأنه جاءنا اذ كنت طفلاً ليزور والدى في بوستون ، وسكن معنا  
بالنزل بعض سنوات ، وقد عمر طويلاً ، وحديده صمويل فرنكلين يعيش  
في بوستون اليوم ، وقد ترك بعده مجلدين من نظمه يشتملان على  
مقطوعات منظومة لمناسبة موجهة الى أصدقائه وأقاربه ، ومنها واحدة  
وجهها الى<sup>(١)</sup> .

« واخترع طريقة للاختزال علمنى ايها ولكننى لم استعملها قط  
ونسيتها الآن . وقد سميت على اسم هذا العم للعطف المتبادل بينه وبين  
أبى ، وكان تقىاً جداً شديد المواظبة على حضور العظام من أبلغ الوعاظ  
يسمعها ويدونها بطريقة الاختزال ويحتفظ عنده بمجموعات كبيرة منها .  
وكان كذلك مشغولاً بالسياسة كثيراً ولعل اشتغاله بها كان  
أكثر مما يلامس موكرنه . وقد عثرت له في لندن على مجموعه  
للكراسات التي صدرت في موضوعات المسائل العامة من  
سنة ١٦٤١ إلى سنة ١٧١٧ ضاع منها بعضها كما يتبيّن  
من ترقيمها وبقى منها ثمانية مجلدات من القطع الكبير وأربعة وعشرون  
مجلداً بين متوسط وصغير ، وكان رجل من باعة الكتب القديمة أعرفه  
وأشترى منه بعض الكتب قد عثر بها فأحضرها الى<sup>\*</sup> ، ويظهر أنّ عمى  
تركها عند سفره الى أمريكا اذ كان قد جاوز الخمسين من عمره ، ودوّن  
على هوامشها كثيراً من تعليقاته وملحوظاته .

« لقد كانت عائلتنا الخاملة هذه بين المابقين الى قبول مذهب

(١) لم تنشر الآيات في نسخة المذكرات الأولى ، وعلم من أوراق  
آخر أنها نصيحة باجتناب الحياة العسكرية لأن الحرب صناعة خطرة .

الاصلاح ولبست على المذهب البروتستانتي خلال حكم الملكة ماري و تعرضت للنتابع أحياناً من جراء غيرتها في مقاومة البابوية، وكان لديهم نسخة إنجليزية من الكتاب المقدس يحتالون على اخفائها بوضعها في داخل كرسي ينطوى وينبسط ويضعه جدي الأكبر على ركتبه كلما أراد أن يقرأ على الأسرة شيئاً من آياته، وكان أحد الأطفال يقف عند الباب ليتهم إلى قدوم الرقيب الموظف بالمحاكم الروحية كلما بصر به قدماً من بعيد، فينطوى الكرسي في هذه الحالة، ويختفي الكتاب المقدس فيه كما كان. وقد أبىاني بهذه القصة عسى بنiamin وعلمت أن الأسرة كلها دانت بمذهب الكنيسة الإنجليزية إلى أيام شارل الثاني التي حدث فيها فصل بعض القساوسة لأنحرافهم عن مذهب الكنيسة الملكية، فاستقلوا بتحلهم في (نور ثامبتون شاير) وأنضوا إليهم بنiamin وجوشيا وغلت بقية الأسرة على مذهب الكنيسة الرسولية.

وتزوج أبي — جوشيا — صغيراً فاتقل بزوجته وأطفاله الثلاثة إلى نيو إنجلاند بأمر يكاد حوالى سنة 1682 لصدور القانون بتحريم قيام التحل المخالف للكنيسة في البلاد الإنجليزية، وأقمع طائفة من صحبه بالهجرة إلى هذه البلاد لما كان يلقاه من العنف في وطنه، فاقتضى هو وصحبه بضرورة الهجرة أملاً في التحرر من الحجر على عقائدهم، وولده من زوجته الأولى أربعة أطفال آخرين ثم عشرة أطفال من زوجة أخرى قدم عددهم سبعة عشر، وأذكر منهم ثلاثة عشر يجلسون على مائده عاشوا حتى أصبحوا رجالاً ونساء وتزوجوا جميعاً. وكانت أمّا أصغر الأبناء وأصغر الأطفال جميعاً ماعدا طفلتين أصغر مني، وولدت في بوسطن بنيو إنجلاند.

« وزوجته الثانية — أمي — هي آبيا فولجر بنت بطرس فولجر أحد السابقين من المهاجرين إلى نيو إنجلاند، وأشار إليه كوتون ما ثر اشارة مشرفة في تاريخه لكنيسة ذلك الأقليم فقال عنه — إذا لم تخنى الذاكرة — : انه رجل إنجليزي صالح مثقف .

« وسمعت أنه كتب مقطوعات متفرقة كثيرة في مناسباتها لم تطبع منها غير واحدة اطلقت عليها منذ سنوات ، وقد نظمها في سنة ١٦٧٥ على النسق الذي كان متداولاً مأولاً يومذاك ووجهها إلى القائمين بالحكم في ذلك العين حاثاً فيها على حرية التisper منافحاً عن عقيدة العواديين وجماعة الصحابيين وغيرها من النحل التي كانت عرضة للحصر والاضطهاد ، وعزى فيها مصائب العرب الهندية والمصائب الأخرى التي ابتليت بها البلاد إلى تلك السيئة البغيضة التي يصب الله غضبه على مرتكبها ، داعياً إلى إلقاء القوانين التي سنت للتضييق على خسائر الناس ، وقد لاح لي أن المقطوعة كلها كتبت بأسلوب الصراحة اللاذقة والرجولة الكريمة في الذود عن العريمة ، وإنني لأذكر سطورها السنة الأخيرة حيث يقول : إنني لأممت المذمة من كل قلبي ، وأناديكم من مدينة شربرون التي أقيم فيها موقعاً باسمي ، غير مسي ، إلى أحد منكم ، أنا بطرس فولجر...»

« وتلتمد أخوتي الكبار جميعاً في صناعات مختلفة ، وأدخلت أنا مدرسة الأجرامية في الثامنة من عمري وأراد والدى أن ينذرنى للكنيسة لأننى عاشر أبناءه ، وقد كان استعدادى المبكر لتعلم القراءة — ولا بد أنه كان مبكراً جداً لأننى لا أذكر زماناً كنت فيه أجهلها — موافقاً لنبوءة أصدقائه الذين اعتقادوا أننى خليل بمستقبل حسن في الأستاذية ، فشجعه اعتقادهم على اتمام مقصدته . وقد أقره عمى بنiamin على رأيه واقتراح أن يهبلى كل ما عنده من مجاميع المظارات الدينية ، ولكننى بقيت في المدرسة مدة لا تزيد على السنة قلت خلالها من وسط الفصل إلى مقدمته ثم قلت من هذا الفصل إلى الفصل الذى يليه كى أقتظم في الفصل الثالث عند نهاية السنة .

« على أن والدى وجداً أثناء ذلك أن التعليم الجامعى كبير التكلفة لا ينبع بأعبائه مع تكاليف عائلته الكبيرة ووفرة مطالب المعيشة التى تلازم المتعلمين ، وسرد هذه الأسباب على مسمع منى لأصدقائه تسويغاً

لنقلى من مدرسة الأجرورية الى مدرسة أتعلم فيها الكتابة والحساب يديرها رجل مشهور يسمى جورج برنوبل ناجح في صناعته لوداعته وطيب عشره ، ومنه تعلمت الكتابة المقبولة في وقت وجيز ولكنني أخفت في تعلم الحساب ولم أقدم فيه ، ولما بلغت العاشرة خرجت من المدرسة لمساعدة والدى في صناعته وهي صناعة الشمع والصابون التي لم يكن قد تدرب عليها منذ صباه بل اتخذها بعد وصوله الى نيوانجلاند لأن رزقه من الصياغة لم يقم بتنمية العائلة الكبيرة لقلة الحاجة اليها في نيوانجلاند ، فعملت في قطع الفتائل للشمع وصب السائل في القوالب وملاحظة الدكان وأيصال الرسائل والطلبات .

« وفدت من هذه الصناعة وشعرت بميل شديد الى العمل في البحار ، ولكن والدى أبى على هذا العمل ، وظلت — لقربى من الماء — متعلقة بالبحر فتعلمت السباحة وتسيير الزوارق وأصبح من المألف ، كلما اجتمعت في زورق أو قارب مع زملائى من الصياغة أذ يهدوا الى في تسييره وبخاصة في الحالات المتعرجة ، وتكررت قيادتى لهم في غير تلك الحالات فكنت أقودهم الى بعض التناوشات التى ذكر هنا مثلا منها لما فيه من الدلاله على الدوافع العامة وان لم يكن مثلا لحسن تدبرها وتصريفها .

كاد في جوارنا مستنقع ملح يحيط ببركة المصنع تعودنا أن نقف عند حافته ساعة المد لنصطاد السمك الصغار ، وطال ترددنا على تلك الحافة حتى توحلت وجعلت تسيخ بأقدامنا . فعن "لى آذ نبتي عليها رصيفا نستخدم في بنائه كوما من الحجارة معدا لاقامة منزل جديد بجانب المستنقع وصالحا كل الصلاح لبناء الرصيف الذى تريده ، وعلى هذا جمعت بعض الرفاق — بعد انصراف العمال في المساء — وأخذنا في نقل الحجارة كائنا سرب من النمل يتعاون اثنان منا أو ثلاثة أحيانا على نقل الحجر الواحد حتى ثقلنا الحجارة كلها وأتممنا بناء الرصيف ، وجاء العمال صباح اليوم التالي فدهشوا لاختفاء الحجارة وعلموا أنها نقلت

إلى الرصيف الذي بنيناه ، وبمحضها عن الجناة فعرفونا وشكوا إلى آبائنا ، ولم يتفقنى عند أبي اعتذاري له بأنه عمل نافع ، لأنه قال لي أنه ما من عمل يخل بالأمانة يوصف بالمنفعة .

« وأحسبك تواقاً الآن إلى الإمام بشيء من صفاته وأخلاقه . فاعلم أنه كان ضليع البنية معتدل القامة لا بالطويل ولا بالقصير ولكنه مدمج الجسم قوى الأركان ، ذكرياً يرسم رسمًا حسناً ويحيد العزف على آلات الموسيقى بعض الإجاده ، وله صوت مقبول يتمنى به حين يوقع المزامير على القيثار كما تعود في المساء بعد التراوغ من أعمال النهار فيطرينا جداً أن نصفه إليه ، وكانت له براءة في تناول الأدوات والآلات يستخدم منها ما ليس من صناعته فيحسن استخدامه . غير أن المزية الواضحة التي كان يمتاز بها سلامة الفهم والرأي في تناول المسائل الخاصة وال العامة ، وإن تكون شواغله العائلية لم تدع له قط وقتاً للعمل في هذه المسائل العامة واستغرقت أوقاته جيئاً في القيام بتعلمه والتفرغ لكسب الرزق مع قلة المورد والعائد . إلا أنني أذكر جيداً أن أنساً من الوجهاء البارزين كانوا يزورونه فيينة بعد فيينة لاستشارته في شئون البلد أو شئون الكنيسة التي يتمنى إليها ويقبلون منه الرأي والنصيحة بالتجلة والاحترام ، كما أذكر أن أنساً من أصحاب المشكلات الخاصة كانوا يسألونه النصيحة ويبحثون إليه فيما يشجر بينهم من خلاف ، وكان من عاداته أن يدعوا إلى مائدته صديقاً أو جاراً من ذوىقطنة يتحدث إليه ويحاول على الدوام أن يختار للحديث موضوعاً يفتق أذهان الأطفال ويلفت انتباههم إلى الرسالة لما يتبين من الخير والعدل والحكمة في تدبير شئون الحياة » .

هذه النبذة من مذكرات فرنكلين معينة لنا — على وجاهتها — في تصوير الجانب الموروث من تكوينه واستعداده وعامة أخلاقه ، وتتلخص في قوة البنية واستقامة الطبع وسدادقطنة والاعتراف بالواقع مع الشجاعة وإباء، الفضيم والتأهب للمخاطرة إثارة لها على الخصوص للمذلة وقد تكون هذه النبذة الوجيزه معينة لنا في تصوير الاستعداد الاجتماعي

الذى ينتقل بالوراثة مع كيان البنية ولكنه لا يظهر في المجتمعات كافة على درجة واحدة ، بل يتوقف ظهوره على مؤاشرة الحوادث والبيئات ، ومن هذه الموروثات الفطرية الاجتماعية حسن الاستعداد للسلوك مع الناس من الأنداد والرؤساء وحسن الاستعداد للفهم والمعرفة وحسن الاستعداد للحكم على عوارض الحياة ما كان منها عاماً مشتركاً وما كان منها خاصاً محصوراً في شتون المرء وذويه ، وقد تكون الوراثة بالصناعات من المعادن « المصنوعة » كما يُؤخذ من اسمها ولكنها لا تكتسب في جميع البيئات على السواء ولا تكتسب في البيئة الواحدة على درجة واحدة ، وقد يطول البحث في وراثة المزاج الذي يعين صاحبه على مطالب الحياة الاجتماعية هل هو موروث كله أو هو مكتسب كله من البيئة الاجتماعية ، غير أننا نطالع أن البحث قليل في صلاح المرء للسلوك مع الناس وحسن التصرف في علاقاته الاجتماعية كلما اختلف مزاجه وسلمه تكونه واستقامت فطرته . فلا شك هنا في معاونة الأخلاق الموروثة للأخلاق الاجتماعية ولا في التفرقة بين الصالحين للحياة وغير الصالحين لها كائنة ما كانت شروط المجتمعات على الأحياء .

بهذه الوراثة — وراثة الصلاح للحياة — ولد فرنكلين وعاش إلى ختام حياته في سنته العالية ، وقد كان هذا المزاج الموروث فيه أشبه بالبنية الصالحة لاحتضان كل طعام واستخراج كل ما فيه من غذاء ، فما كان عسيراً على غيره أن يهتسسه ويستفيد منه لم يكن عسيراً عليه أن يجعله غذاء صالحاً على ما يعييه من غثافة أو مرارة ، ولم يكن يعييه أن يهسيه ذلك الغذاء لغيره بعلوى الحكمة المطبوعة والبسجية السميحة ، وقد يصنع ذلك مع الزملاء المنافسين كما يصنعه مع الرؤساء والرؤويسين ، ونادرته مع جفرسون — وهو من أعظم زملائه في قيادة الشورة الأمريكية — مثل لهذا الخلق المطبوع على الترويض والتقويم : ترويض الطائع العصبية وتهوين المشكلات الصعب .

فقد عز على جفرسون أن يعارضه آباء الاستقلال في كل كلمة كتبها

في الإعلان الذي أذيع به استقلال الأمة الأمريكية ، وجلس كثيراً حانياً رأسه بين يديه لا يدرى ماذا يصنع بتلك الملاحظات المتناقضة وكيف يكتب ما يرضاه هذا الفريق وذلك الفريق وهم يجددون الملاحظة مع كل تغيير ، ولا ملامة عليهم في التدقيق الشديد لأنه إعلان تاريخي توزن فيه كل كلمة بموازين الحقوق والأرواح .

فخرج فرنكلين من تلك الجلسة الغائمة بفكرة من فكاهاته السمعة هونت على جفرسون ما كان يلقاه ونشطت به إلى تجديد العناء في المذف والإبدال والاصفاء .

قال فرنكلين : إنها قصة جون تومبسون تعاد من جديد .

وسأله جفرسون : من جون تومبسون هذا ؟

فعاد فرنكلين يقول : جون تومبسون هذا صديق قديم كان يتلمذ على معلم مشهور بصناعة القبعات ثم خطر له أن ينفرد بالعمل ويفتتح له دكاناً يكتب له إعلاناً جاماً يجتذب إليه طلاب القبعات . فكتب الإعلان وقال فيه : « إن جون تومبسون قبعاتي » يصنع القبعات ويسعها (قدما) ... وراح يعرض الإعلان على أصدقائه ليسألهم رأيهم فيه ، فقال له أولئك : إنه لا حاجة به إلى كلمة « قبعاتي » ما دام في الإعلان أنه يصنع القبعات ويسعها ، وقال له الصديق الثاني إن الناس لا يفهمون أنه صانع القبعة ما داموا يجدونها أمامهم معروضة للبيع ، وقال له الثالث إنه من السخف أن يقول (يسعها قدما) ما دام معروفاً عنه أنه لم يكن من أصحاب المصارف التي تفرض على الحساب ، وقال له الرابع إنه ما من أحد ينتظر منه أن يتبرع له بالقبعة احساناً أو هدية ، فما حاجته أن يقول انه يبيع القبعات ؟ وبقي الإعلان هكذا بعد كل هذه التقييحات : (جون تومبسون . قبعات) ... فقال له الصديق الخامس إنه لا حاجة إلى كلمة قبعات ما دامت صورة القبعة مرسومة في الإعلان ... وانتهت النصائح والتعديلات ببقاء اسم جون تومبسون وإلى جانبه صورة قبعة ... وهكذا تنتهي بلاغة البلاغ ، كلما عرضوها على الناس للتقيح وابداء الآراء

وهذه القصة — وحدها — كلمات فارغة لا يقرأها أحد ويظن أنها تساوى أن ينفق فيها وقت استماعها ، ولكنها في ذاكرة فرنكلين وضعت في موضعها فصلحت لتقرير أزمة ودفع سامة وتجديد نشاط في نفس عظيمة ، ولم يستطع فرنكلين أن يصنع بها هذه المعجزة لأنها يسر حكاية تروي ، وإنما استطاع المعجزة لأنها اتخذت من تلك الحكاية أداة للطبيعة السمححة المفتوحة على تذليل الصعاب وتقدير المعاذير وقبول الدنيا على علاقتها ، وأخذ الناس جملة بما طبعوا عليه من المنهات .

ونحن لا يفوتنا في معرض الكلام على الأخلاق الفطرية ، أو الأخلاق الموروثة ، أن تهرر تلك الحقيقة المشهودة التي يتوقف عليها انصاف « الشخصية الإنسانية » وتقويم كل ترجمة من تراجم العظام بقيمة صاحبها ، ونعني بتلك الحقيقة المشهودة أن الخلق الموروث لا يلغى المزايا الفردية ولا ينقص من فضل الفرد في الارتفاع بما ورث مع اختلاف الزمن وتبدل المواطن والمناسبات التي يتتفق فيها بتلك المزايا . فإذا استطاع الفرد في الجيل الحاضر أن يستخدم مزاياه الموروثة التي كانت نافعة لأبائه قبل جيل أو جيلين فلا بد من فضل له في حسن الاستخدام وحسن الاحتفاظ بما آل إليه من تراث الأقدمين ، وإذا كان العطام الموروث قابلاً للضياع أو كان الغالب عليه أنه يضيع ولا يبقى فالأخلاق الموروثة تضيع كما يضيع العطام إذا أكلت إلى المرط فيها والعاجز عن حياتها ، وقد توضع القطنة في غير موضعها فتضىء ولا تنفع ، وتجور الشهوات على الجثمان القوى فتهلكه ، وقد يكون الشعور بالقدرة من بواعث الشطط والتمنادى في الغواية وقد كان مساك الاعتدال في خلائق الآباء والأجداد .

وفرنكلين لم يضيع ما ورث ولم يحتفظ به كما ورثه ، بل نماه وثبته وقواه ، وعاش إلى ختام أيامه بشروطه النفسية وعليها أضعاف مضاعفة من ثمرات السنين .

رآه شاب من شارلستون يسمى فيليب ماكتزى وهو في السبعين  
فكتب إلى صديق له يقول : « انه يقارب خمس أقدام وتسعة قراريط ،  
ويبدئه أضخم مما يناسب طوله ، وعياه رماديتان تهاذثان كالصلب الجديد .  
وله رأس كبير وجبين عال وعلى خده الأيسر خال . لا يليس الشعر  
المستعار وشعره الطبيعي مرسل يتدلّى على كتفيه ، ومن الغريب أنه لم  
يخطه الشيب إلا قليلاً مع أنه في السبعين ... وقد تحدث إلى أعظم العظام  
في العالم ولكنه كان يصنّع إلى تعليقاتي الغيرية لأنها تستحق الاصناف  
حقا ، وقد أبدى ملاحظتي هذه بعد انصرافه لصديقى أيد رو تلدرج  
فضحك وقال لي : « إياك أن تخطئ فهمه . إن الدكتور فرنكلين كان  
مهما حقا وأنت لا تعرف . فإنه ليهتم بكل شيء وكل إنسان .. ويعنيه  
من تكون أنت وماذا عملت في حياتك » (١) .

واهتمام فرنكلين هذا الاهتمام بكل شيء وبكل إنسان هو موطن  
العجب والاعجاب بتلك القدرة التي صمدت لها مأ الحياة طوال ذلك العمر  
المديد ولم تخجل على مهمة منها بمحقها من العناية ولا على أحد بمحقه من  
البلاء ، وبقى الرجل بعد هذه التكاليف جميعاً وكأنه في وهم من يراه  
لا يهتم بشيء ولا يكره خطب ولا يرى على حال من القلق والاضطراب .

وليس أكثر من الحوادث والأنباء التي اعتبرت هذه الحياة في  
مراحل طرقها ، بل طرقها العديدة . وليس من اللازم للتعرّف به أن  
نخصّيها ونرتّبها على حسب تواريخها ، فكل ما يهمنا في ترجمة العظيم  
من حوادثه وأنبائه أن تصور لنا جانباً من جوانب شخصيته وسراً من  
أسرار عظمته واقتداره ، وستتحرّى ذلك فيما سكتبه عن فرنكلين العالم  
وفرنكلين الكاتب وفرنكلين السياسي وفرنكلين الفيلسوف ، ونكتفى  
بالسلسلة التالية من أرقام السنين ومعالم الطريق لمراجعة المواقف كلما

(١) هذه النادرة وتادرة المبيعات من كتاب ابن فرنكلين من فلاڈلفیا  
القديمة تأليف مرجريت كوسين .

دعت الحاجة إليها في مناسباتها ، وهذه هي كما ثقبتها من تقويم سيرته في كتاب رجال أمريكا تأليف ليونيل الفين ، وهو تقويم واف في بابه لمن يتبع مراحل الطريق من هذه السيرة :

سنة	
١٧٠٦	ولد في السابع عشر من يناير في بوستون .
١٧١٤	قضى سنة في مدرسة الأجرورية .
١٧١٤-١٧١٦	في مدرسة تجارية .
١٧١٦	مساعداً لأبيه في عمله .
١٧١٨	تلميذاً لأخيه من أبيه ، جيمس ، في صناعة الطباعة .
١٧٢١	ينشئ جيمس فرنكلين صحيفة « ذي انجلاند كورانت » رابع صحيفة في المستعمرات .
١٧٢٢	بنيامين فرنكلين يحرر الصحيفة أثناء حبس أخيه لاتهاماته السياسية .
١٧٢٣	أخوه لا يحسن معاملته فيهرج بوستون إلى فلاذيفيا ويعمل في الطباعة .
١٧٢٤	يغري بالسفر إلى لندن لشراء اللوازم ويختلى عن صاحب عمله الحكم كيث ولا يبعث إليه برسائل التوصية التي وعده بها ، وي العمل في الطباعة .
١٧٢٥	ينشر كتابه الأول لهذا لبعض الآراء الدينية .
١٧٢٦	يعود إلى فلاذيفيا لي العمل في دكان ، ولكن يعود إلى الطباعة .
١٧٣٠	يتفرد بحيازة مطبعة ، ويتزوج .
١٧٣٠-١٧٤٨	طبع ناجح مطرد النجاح . يصدر تقويم ريتشارد المكين وصحيفة بنسليفانيا جازيت ، ويتولى شتوفا

مهمة في حياة فلاديمير العامة ولا سيما مشروعات اصلاح المدينة وخدماتها الاجتماعية . يستغل بمحاجته ومخترعاته العلمية ويتولى في سنة ١٧٤٣ جماعة الفلسفة الأمريكية وتتاطر به أمة سرها .

١٧٤٨ يعتزل العمل محتفظا بمورده سنوي منه يكفل له معيشته .

١٧٤٩ - ١٧٥٢ تجارية الكهربائية الأولى ، وابناته للكهربائية في الصواعق ، واختراعه لعمود الصاعقة ، وشهرته العلمية الواسعة .

١٧٥١ تأب عن فلاديفيا في هيئتها الثانية .

١٧٥٢ تأب مدير لمصلحة البريد في المستعمرات .

١٧٥٤ يتوب عن بنسفانيا في مؤتمر ألاني للمستعمرات ويقترح تكوين الاتحاد .

١٧٥٥ منظم تموين البعثة التي قادها الجنرال برادوك في قتال الفرنسيين والمنود الحمر .

١٧٥٧ سافر إلى لندن للنيابة عن الشعب في خلافه مع ملاك الأقطاع في بنسفانيا .

١٧٦٢ عاد إلى أمريكا .

١٧٦٤ سافر إلى إنجلترا مرة أخرى .

١٧٦٦ نقش علينا بمجلس التسواب في مطالب الأمريكيين بضد القانون المعروف بقانون الستة .

١٧٦٧ - ١٧٧٥ تزداد شكوكه في سياسة وزراء جورج الثالث ويزداد افتئاته بضرورة اعلان المستعمرات لاستقلالها ، ويتأثر مع ذلك على بحوثه العلمية وتتصل صداقته العلمية والسياسية والفلسفية بالعالم « بريستلي » ، ويتصل العطف بيته وبين بيرك خطيب الأحرار .

سنة	
١٧٧٥	يعود إلى وطنه ، ويختار عضوا للمؤتمر القومي الثاني وعضوا في لجنته المنوط بها تحرير إعلان الاستقلال ، ويباشر إعداد العدد العملي للمقاومة .
١٧٧٦	أرسل مع اثنين للنيابة عن بلده في فرنسا .
١٧٧٧	نجاح عظيم ، وشهرة سياسية وفلسفية ودبلوماسية في فرنسا .
١٧٧٨	عقد المعاهدة بين فرنسا والولايات المتحدة ، وفرنكلين هو المندوب الأمريكي الوحيد في فرنسا .
١٧٨٣	أحد المندوبين في مفاوضات الصلح مع بريطانيا العظمى ، ويتم توقيع معاهدة الصلح بباريس .
١٧٨٥	يعود إلى وطنه ، ويقتله رياضة بسلفانيا .
١٧٨٧	مندوب في لجنة الدستور .
١٧٨٨	يعزل الحياة العامة .
١٧٩٠	توفى في السابع عشر من شهر أبريل .

## العالم

اذا وجب أن تكتفى بصفة واحدة لفرنكلين تغنى عن جميع صفاته وتنطوى فيها جميع الملامات والمواهب التي أعادته على جميع أعماله وآرائه فتلك هي صفة العالم .

يقول كروث في كتابه عن مشاهير رجال العلم في أمريكا : « انه لولا شهرته العلمية لم يكن خليقاً أن يصبح عبقرى أمريكا السياسي في باريس<sup>(1)</sup> » .. وهو قول صحيح من وجوه كثيرة ، ولكننا لا نعني بهذه الشهرة التي استفادها من بحوثه العلمية حين نقول ان صفة العالم تغنى عن صفاته الأخرى اذا وجب أن تكتفى منها بصفة واحدة ، وإنما نعني أن ملكته العلمية كانت ملحوظة في جميع أعماله على اختلافها ، فكان عالماً في سياسته ، وكان عالماً في صناعاته اليدوية والفكرية ، وكان عالماً في وظائفه الإدارية ، وكان عالماً في معيشته اليومية ، وربما استطاع في أطوار كثيرة من حياته أن ينسى أنه سياسي ، أو ينسى أنه موظف ، أو ينسى أنه كاتب ، أو ينسى غير ذلك من تكاليفه وجهوده ، الا صفتة العلمية فانها لم تفارقه قط في مهمة من المهام الكبرى أو الصغرى التي تصدى لها طول حياته ، ولم يكن يشرع في مهمة منها الا كانت ملكته العلمية أسرع ملكاته الى الظهور فيها والاقتران بها الى أن يفرغ منها .

والملامات العلمية كبيرة حين ننظر اليها متفرقة في العلماء المنقطعين لدراسات العلم وتجاربه ، واذا قلنا عنها أنها « ملكة علمية » بصيغة المفرد فهى في هذه الحالة عنوان لصفات كثيرة قد تجتمع للعالم الواحد وقد تتفرق بين كثير من العلماء ، ولكنها في جملتها لم تتوافر للكثيرين كما توافرت لفرنكلين من بوأكير صباح الى ختام حياته .

فمن المifikات العلمية جمع الحوادث المتفرقة المشابهة ، في ظاهرة واحدة . وقد كان فرنكلين عالماً في طقوسها حين رأى أبوه يصلى صلاة البركة على طعام كل وجبة فسألها : لماذا لا تصلى يا أبي على الذبيحة مرة واحدة تغنيك عن تكرار الصلاة قبل كل وجبة ؟ » .

ومن المifikات العلمية ملاحظة الأحوال الطبيعية التي تعرض لنا مصادفة ثم تكرار التجربة عليها للثبت من حصولها بالاتفاق أو على التواتر والأطراد . وقد كان فرنكلين عالماً في صباحه حين راقب نفسه وهو يسبح في الماء وفي يده طيارة الورق ، فرأى أن العوم أيسر له وأسر له في هذه الحالة من العوم بغير طيارة ، وعاود التجربة على أوضاع مختلفة حتى ثبت من تسيير الطيارة لجهود السابع في الماء على أوضاع متعددة . وقد كان فرنكلين عالماً في اختيار الخطة التي تيسر له اتقان الكتابة ، وكان عالماً كذلك في اختيار الخطة التي يتواخاها لمراقبة أخلاقه وتهذيب نفسه والعلم بنصيبيه من كل خلق من هذه الأخلاق ومقدار حاجته إلى المرانة عليه في معيشته اليومية ، فقد كانت التجربة والملاحظة والاحاطة بالعوامل المختلفة والبحث في جملة الفروض الممكنة بعض وسائله في هذه المحاولات وما جرى مجريها ، وكان قياسه للنجاح الفكري والنجاح النساني مرسوداً عنده على الورق يقرره ويستدل منه على مبلغه من التقدم فيه ومبلغ الصعوبة أو السهولة في هذا التقدم على توالي الأيام .

أعجبه أسلوب الكاتب الإنجليزي « أديسون » في مجلة السبكتاتور فأراد أن يستعن نفسه في القدرة على محاكاته وأن يدرب قلمه على الكتابة بهذا الأسلوب وهو في أوائل عهده بالكتابة ، فاختار مقالة من مقالات الكتاب دون معانيها وأغراضها العامة على ورقه ، ثم ترك القراءة في الكتاب ليسى عباراته وألفاظه ، وعاد إلى الورقة بعد أيام فأعاد كتابة المعاني التي دونها فيها معنى بعد معنى عبارات من عنده لا يذكر ما يقابلها من عبارات الكتاب ، ورجع إلى الكتاب بعد ذلك ليقابل بين الأسلوبين في التعبير عن المعنى الواحد ، فوضج له الفرق بينهما ووقف على الأخطاء التي تحتاج إلى العناية باصلاحها واجتنابها ، وعرف من عيوبه أنه قليل

المحصول من مفردات اللغة وأنه يبحث عن الكلمة التي يؤودي بها المعنى فلا يجد لها حاضرة في ذهنه ، فعمد إلى المقالات ينظمها شعراً لأنّه يعلم أنّ الشعر يحتاج إلى الترددات من الكلمات التي تتفق في معناها وتختلف في أوزانها وعدد حروفها ومقاطعها ، وأنه يحتاج إلى القوافي والفوائل في سطوره المتواالية ، وأنه على ذلك سهل الحفظ وال إعادة لأن الكلمة التي يبحث عنها مع العلم بوزنها وفاصيتها لا تتعينا في البحث كما تتعينا الكلمة المرسلة بغير وزن ولا قافية ، وكان يجرب مع هذه الطريقة طريقة أخرى في امتحان القدرة على الترتيب والتعبير ، فكان يدون المعاني مختلفة مبعثرة ، ثم يعود إليها بعد أيام ينسى فيها ألقابها وعباراتها فيبدأ بجمعها وترتيبها ثم يعاود كتابتها بالفاظ وعبارات من عنده ، ويسجل الفروق بين أسلوبه وأسلوب أديسون كما يسجل درجات التقدم في تجربة بعد تجربة ، فلا يترك هذا التسجيل للظن والتخمين بل يراه أمامه محفوراً بالأمثلة والشواهد والأرقام ، ولا يبالغ في الثقة بنفسه ولا في قلة الثقة بها على الحالين ، بل يعرف عيوبه وحسناته ويقول لنا في ترجمته لنفسه انه كان يفتبط أحياناً كلما رأى له عبارة تحقق عبارة الكاتب في جمالها ودققتها .

وأراد في سن الرجولة أن يروض نفسه على محاسن الأخلاق وأن يهتمي إلى حظه منها ومباعث افتقاره إلى زيناتها أو تمسكينها أو تهذيبها ، فأحصى الأخلاق المثلثى وعرفها على النحو الآتى :

- ١ - الاعتدال : لا تأكل حتى الشبع ولا تشرب حتى النشوة .
- ٢ - الصمت : لا تنطق إلا بما يفهم الناس أو ينفعك ، وتجنب الفضول والثرثرة .
- ٣ - النظام : اجعل لكل شيء موضعه ، واجعل لكل جزء من أعمالك وقته وموعده .
- ٤ - العزيمة : اعزم على أن تعمل ما يلزم ، واعمل ما تعزم على عمله بغير وفاء ولا تقصير .

- ٥ - القصد : لا تتفق شيئاً في غير مصلحة لك أو لغيرك ،  
ولا تبدد شيئاً أو تتفقه عبثاً .
- ٦ - النشاط : لا تضيع وقتاً ، وأشغل وقتك بما يفيد ، وانقطع  
عن كل عمل لا ضرورة له ولا داعية اليه .
- ٧ - الاخلاص : لا تلجا الى خداع ضار ، وفكري ببراءة وانصاف ،  
وتكلم وفقاً لما تذكر فيه .
- ٨ - العدل : لا تسيء الى أحد بما يضره ، ولا تهمل منفعة  
واجبة عليك .
- ٩ - التقدير : تجنب الافراط والتفسيرط ، ولا تستسلم لرد  
الاساءة بما توجيه اليك بوعتها .
- ١٠ - النظافة : لا تغفل عن النظافة في شخصك ولا في ملبيك  
ولا في مسكنك .
- ١١ - المكينة : لا تطلق للصفائر ، ولا للحرادث التي لا تمتلك  
ولا حيلة لتك فيها .
- ١٢ - الغسلة : لا تطاوع شهوات الجسد في غير داع من دواعي  
الصحة أو الذرية ، ولا تبلغ بها مبلغ البلاهة  
والضعف أو الاضرار بسلامتك وسعوك أو  
سلامة غيرك وسعوك .

وأنباء بعض أصدقائه أنه يوصف أحياناً بالكثيراء فأضاف إلى هذه  
الأخلاق خلق التواضع ولم يعرفه كما عرفها بل اكتفى بأن كتب أمامه :  
« سر على منهاج المسيح وستراط ». .

ولما فرغ من احصاء هذه الأخلاق بعد عرض الأخلاق الانسانية جميماً  
على ذهنـه ، ورأى أن هذه الأخلاق التي اختارها هي مسالك المروءة  
وأجدرها منه بالارتياض عليها واستدرالـ تقصـها — جعل لها درجات

يومية في كل أسبوع ، وأخذ نفسه بتقدير هذه الدرجات ومحاسبة خصيه عليها ، ليبدأ الأسبوع التالي على عزيمة وبصيرة يحظى من التجارب والاخذ : .

وهكذا كان يصطحب مقياسه العلمي في معيشته اليومية وفي ملاحظاته المارضة ولا يتنهى إلى حكم فيها إلا على قدر معلوم وحساب مرقوم ، ومن تجاريـه المارضة في ذلك أنه رأى في طريـه واعـطا يلقـى على الناس خطبة من خطبه الدينية ، وأحب أن يعرف مقدار الاقبال عليه وبمبلغ أثـره في ساميـه ، فتراجع إلى أقصـى مكان في الحلقة وعد خطواته ورافق الصراف الناس عن الخطيب وبقائهم حوله ، وقدر لكل رقة محدودة من الأرض عدد الواقفين عليها ، وعلم بذلك مكانة الخطيب .

أما كشوفه العلمية فقد كانت مقاييسه فيها تجمع هذه المقاييس وتزيد عليها خصائص نادرتين في زمانه ، ولا تزالان نادرتين في هذا الزمان ، ولعلهما من الخصال التي لا تكتفى في زمان من الأزمات .

هاتان الخصلتان هما : توحيد القوانين الطبيعية في أرجاء الكون ، وتفتح الذهن لكل فرض واحتمال .

فقد كان له عقل يفكر في حوادث السماوات والأرضين على نسق واحد ولا يقيم بين الحوادث فرقاً تختلف فيه قوانين الطبيعة بين مكان ومكان . فلم يجد في تفكيره فرقاً بين انتقال الكهرباء من سطبة إلى سطبة ، وبين انتقالها من جسم إلى جسم في الأجهزة المصنوعة على النمط البدائي الذي شاع بين العلماء في القرن الثامن عشر ، ولم يجد فرقاً بين حركة الهواء في الصحراء من أثر التسخين الصناعي وبين حركة الهواء في عواصف الطمار والمحيطات .

وكان يلتفت الى المشاهدات ولا يرفض منها شيئاً بغير بينةٍ وقبل التجربة والمراجعة ، وستقرأ له في المختارات من كلامه أنه كان يعيّب المحدثين لاستخفافهم بمشاهدات الأقدمين ، ويعيّب العلماء لاستخفافهم

بمشاهدات العامة والجهلاء ، فكل مشاهدة لها عنده حق من الاستماع والمنتبة الى أن يتحقق من صحتها أو بطلانها ، وربما انتهى الى حكم فيها ثم علق هذا الحكم على التجارب التالية التي يتبعها لأصحابها أن يكتشفوا من عواملها وأسرارها ما ينكشف للباحثين في الوقت الحاضر .

ونذكر لهذه الخصائص المقلية أسباب متى لتعليلها والرجوع بها الى ظروفها وملابساتها .

فمن هذه الأسباب أنه كان يعيش في عصر « نيون » عالمة الفلك والرياضية في عصره ، وأنه اطلع على قوانين نيون التي يتعلل بها حركات الأجسام العلوية والسفلى ، وألوان النور المنبعث من الشموس ومن المصايد الصناعية .

ومن هذه الأسباب أنه سليل آباء وأجداد من الصناع الذين تعودوا التجربة العملية في تركيب المعادن والأجسام ، وقد سلمت طوائف الصناع بعض السلامة من التقاليد الغرافية التي يتوارثها المتسلكون على العيب وعلى عوارض الخصب والجذب والوفر والشح في محصولات الأرض ومزروعاتها ، فتحترو ذهنها من العرافات الموروثة التي تعلل الحوادث بغير عللها المتكتفة لعقل الإنسان ، وتستنى له أن يصل الى العلة المعقولة من طريق لا تعرفه فيه السوابق والغواصات والمحجيات .

وأسعده على هذه الخصلة أنه كان من سلاطنة الثائرين على السلطان الديني في القرون الوسطى ، وأنه لم يكن هو ولا آباؤه من المتقيدين برياسة كهنوتية في مذهب أو غير مذهب ، فلم يشعر بالعجز الذي كان يشعر به العاجدون على العقائد الموروثة من بقايا القرون الوسطى .

ويحصي كروثر ، صاحب كتاب مشاهير رجال العلم المتقدم ذكره أسباباً موضعية أو محلية هيأت له النجاح في بحوثه العلمية ، ولم يكن على رأيه لينجح فيها لو لا تلك الأسباب .

فعنده أن هجرة فرنكلين من بوستون الى فلايدلفيا كان لها أكبر

الأثر في الوجهة التي اتجه إليها وفي المباحث العلمية التي توافر عليها ، لأن بوسطون كانت على أيام فرنكلين مقللاً للمحافظين والمتشددين في العقائد والأفكار التي ترتبط بالديون وعادات الاجتماع .

وعنده أن فلادنها كان يتوافر فيها الجفاف الذي يعين على التجارب الكهربية ، وكانت توافر فيها إلى جانب ذلك مواد الخامات التي تجري عليها تلك التجارب وتتضمن منها أصناف الورق كالغرق والنفايات ، ولو لا هذه المواد الميسرة لأبحاث فرنكلين عن تجاريته الكهربية وعن التعويل على الصحافة والطباعة ونشر المطبوعات .

وقد تقبل هذه التعليلات جمِيعاً وتبقي بعدها بقية لا يفسرها إلا اهتمام فرنكلين بالعقبة التي ميزته بين الآلوف من المشاركين له في جميع هذه الظروف وجميع هذه الأسباب .

فماذا كان فرنكلين يعلم من قوالين نيوتن وسائر القوانين الطبيعية إلى جانب علم الفطاحل من أعضاء مجمع العلوم في بريطانيا العظمى .

لقد كانوا في مجتمعهم على الأقل يحيطون بما لم يحط به من معارف عصره ، ولكنه أدرك أن الكهرباء في البروق والصواعق هي الكهرباء في الصنف والزجاج ، وأنفروا هم ضاحكين حين أفضى إليهم بهذا الرأي فلم يتحولوا إليه إلا بعد سنتين .

وربما صعَّ أن افتقاره إلى العلم كان من مزاياه ولم يكن من عيوبه تلك الآراء التي كان يسبق إليها العلماء المتخصصين ، لأنَّه ، كما قال برنارد جاف في كتابه عن علماء أمريكا<sup>(١)</sup> ، لم يكن متفقاً ولكنَّه لم يكن مشكولاً أو مربوطاً (Untrammeled) فلم تقف عقبات الآراء المحفوظة في طريقه ، ولم تتوافق القواعد التقليدية في دراسة الآراء ... ولكن فقدان الشكال على كل حال لا يوجد لنا الجواب . فلا بد من جواد سباق وراء ذلك اللجام المخلوع أو المقود .

ويجوز أن «فلادلفيا» ساعدت على التجارب الكهربية ، ولا يمتنع أن يكون الجو الرطب مساعدًا عليها في معرض آخر من معارض البحث والدراسة . ولقد حصل فرنكلين من بوستون على جهاز اعارة إياه صديقه الدكتور سبنس Speace الذي لا نعلم عنه شيئاً غير هذه الاشارة إليه لهذه المناسبة في ترجمة فرنكلين ... وكم بين المنشقين من بوستون إلى فلادلفيا من مسافر ومقيم ؟ وكم بينهم من فرنكلين ؟

إن الملكة العلمية الطبيعية في هذا العقل المبقرى هي التفسير الذي لاغنى عنه لجميع أعماله وبحوثه، وغير هذا التفسير تفسيرات كثيرة من قبيل ما قدم لا يستغني واحد منها عن هذا المرجع الأول والأخير لجميع تلك التفسيرات .

وهذه الملكة الطبيعية هي التي أوحت إليه بغير تعليم وبغير تلقين أن يضم البحث العلمي في موضعه الواجب ، فكل ما يقع تحت الحسن فهو موضوع بحث ودراسة من الوجهة العلمية . وربما عاش معه في عصره — أو عاش قبل عصره — أناس من الباحثين جعلوا هذه البحوث ترقى مختاراً ترافقها إليه بعض الموضوعات وتقتصر دونه موضوعات أخرى ، ولكنه هو لم يكن ليفرق بين ما هو صالح للحسن وما هو صالح للبحث والدراسة ، فتراوحت مباحثه بين السحب والأمواج ، وبين درجات الحرارة وألوان الأقمشة ، وبين اصلاح النظارات واصلاح نظام الاضاءة في المدن ، وبين التبريد بالتبخير وتهذيب العروض الأبجدية ، ولم ينفتح أمامه موضوع بحث فأعرض عنه لأنّه لا يدخل في صدّ البحوث العلمية كما يصنع الباحثون الذين لم يرزقوا مثل هذه الهبة الفطرية .

وقد كان للخيال شأنه — كما كان للواقع شأنه — في البحث الذي اشتهر به وأكبه اعجاب العارفين وغير العارفين ، وهو بحثه في الكهرباء واستخدامه في الوقاية من الصواعق ، أو من غضب الآلهة كما كانوا يسمونه في الأزمنة القديمة .

فقد كان المجبون به يقولون عنه انه اترع الصولجان من عاهم الدولة البريطانية واترع الصولجان من رب الصواعق والبروق جوبير إله الآلة عند الأقدمين ، ولم يخلع الخيال على عمل فرنكلين هذا مكانة أكبر من مكانته الحقيقة التي لا مجاز فيها ، فان الوقاية من الصواعق حقيقة أعظم من خيال المتخيلين عن عروش الأساطير ، وحقيقة العظمى نجوك ذلك أنه صبح العقول والعقائد فأدركت حوادث الأرض والسماء كما ينبغي أن تدرك ، وأدركت صفات الاله المعبد كما ينبغي له من التزير والتعظيم .

ولقد تناول فرنكلين بحوث الكهرباء وهي — على أحسن ما تكون — لعبة للتسلية ، فان هذه البحوث بدأت في حجر الكهرباء الذي تسبب اليه قبل الميلاد بستة قرون ، وعرف طاليس (٦٠٠ ق . م .) أن الكهرباء المحتكة تجذب الرغب والثارة الخفيفة فلم يفهم منها الا أنها « ذات روح » أو ذات حياة ، ثم جاء ثيوفراستوس Theophrastus فاكتفى بتسجيل مشاهداته ولم يهدى إلى تفسير معقول لهذه الظاهرة . ووقفت التجارب الكهربائية عند هذا الحد الى القرن السادس عشر ، ثم تقدمت خطوة أخرى على يد العالم الانجليزي وليام جلبرت طبيب الملكة اليصابات حين استطاع أن يثبت أن هذه الظاهرة تتكرر في بعض المواد وأن أجساما غير الكهرباء تجذب الرغب والثارة بعد حكها وتسخينها كالشمع والكريت والماس وبعض المعادن النفيسة ، وأن الرطوبة تفقدما هذه القوة اذا صبت عليها السوائل ، الا الزيت فإنه لا يضعف تلك الجاذبية فيها . وأذ لأحوال الجو تأثيرا في الجاذبية يختلف باختلاف الرطوبة والجفاف ، وتقدم جويوك Guericke مخترع المضخة الهوائية قليلا بالبحث الكهربائي فلاحظ أن الأجسام الكهربائية تتدافع أحيانا وأن الشرر يتطاير من بعضها ويصبحه صوت مسموع بمقداره من القوة ، ثم ورد خاطر التشبيه بالبرق والرعد على ذهن العالم الانجليزي والـ wall ولكنه لم يفسره وترقب أن يتبين في العالم ذهن عبقري يفلع في تفسيره ، ووقفت الدراسات العلمية

والاختراعات الصناعية بهذا البحث عند هذا الحد فلم تستخدم في شيء  
أقمع من تركيب بعض الأجهزة التي تعرض هذه الظواهر ولا تقرن بها  
«نظيره» عامة أو فرضاً من الفروض التي تؤسس عليها العلوم .

وفي هذه المرحلة تسلم فرنكلين مباحث الكهرباء فلم يزل بها حتى  
وضع لها تلك الفرض على قواعدها المقررة الى هذا اليوم ، فوحى بين  
ظواهر الكهرباء في الأرض والسماء ، وعرف الكهرباء الزائدة والكهرباء  
الناقصة ، أو الكهرباء المشبعة والكهرباء المتعطشة وهذا المعروفة ان اليوم  
باسم الموجة والسالبة ، وراقب خاصة التوصيل والاقتباس فصنع الطيارة  
المشهورة لاستخراج الكهرباء من السحاب ، ولم تكن هذه التجارب  
مأمولة العاقبة في تلك المرحلة . لأن خصائص المادة الموصلة للكهرباء لم  
تكن معروفة بتفصيلاتها ولم تزل متفرقة مبعثرة لاتربط بينها رابطة تجمع  
المتشابهات منها على قاعدة واحدة ، وفي احدى هذه التجارب أوشك أن  
يهدى لابتلاع الخيط الذي ربط به الطيارة أثناء نزول المطر ، ولو لا أنه  
لم يتسبّع بالماء في جميع أجزائه لهلك رعدة كما هلك الأستاذ ريشمان  
Richmann السويدي في تجربة مثل هذه التجربة كان يجريها في  
بطرسبرج ، فكان استمرار فرنكلين على تجاريته — مع هذه العوارض  
المبهمة — مخاطرة أخطر مما يقال عنه « انه لعب بالنار » .

ونحن في عصر التحليل وتوزيع الأعمال تساؤل : هل كان فرنكلين  
علمياً أو مخترعاً ؟ هل كان يدرس العلم بعقل الباحث الذي ينقب عن  
الحقيقة ويضع النظريات ويوفّق بين الحوادث المبعثرة ليجمعها إلى قانون  
واحد ، أو كان يدرس العلم دراسة الصانع العاذق الذي يخترع الآلات  
أو يحكم صنعها بزيادة المعرفة والتحقيق ؟

إن التفرقة بين العقليين سهلة بينة في كثير من الأحوال . فهناك العالم  
الذى يحسن التفكير والفهم والإحاطة بالأفكار والمفاهيم ، ولكنه  
لا يحسن تنفيذ الأفكار في آلات مفترضة ولا يحسن توجيه المندىين الى  
صنعها واحتراعها ، وهناك الصانع الذى يباشر التركيب والفك و إعادة

التركيب بمهارة يدوية وحيلة نظراً في ساعتها من تلك الحيل التي جعلت العرب يطلقون اسم علم الحيل على علم المكتنات ، وربما كانت هذه الحيل جميعاً خفية على الصانع عند ابتداء المحاولة الأولى ثم تظهر له بالمعالجة والاختبار كأنها طرق يسيء فيها حتى يراها مخلقة أمامه فيرجس عنها ويتحول إلى غيرها ، أو كأنها في النهاية من قبيل الصادفة التي لم يكن يتذكرها .

وغرنكلين كان صانعاً شأناً بين الصناع يعمل ويجرب ويحاول ويعتمد على التواتر كما يعتمد على الصادفة ، ولكنه في البحث عن النظريات والعلاقات بين الحوادث المبعثرة لم يكن مقبراً عن شأو أمثاله من المفكرين الباحثين ، فلم تكن تعوزه ملائكة لازمة للعالم الباحث عن العقائق والنظريات ، وكل ما يحتاج إليه هذا العالم الباحث من فتح الذهن وصدق الملاحظة وحسن الترجيح والموازنة بين الأسباب والاحتمالات فهو من عاداته الذهنية في مباحثه العلمية وفي معيشته اليومية ، فلم يكن ينبع من مكتب العالم ليدخل إلى مصنع العامل المخترع ، بل كان مكتبه ومصنعه موضعاً واحداً تشارك فيه ملكاته وخصائص ذهنه هنا وهناك .

إلا أنه كان يعتقد أن المعرفة مصلحة إنسانية ، وأن العلم الذي لا يتحول إلى منفعة عامة لا قيمة له في العقل ولا في الحياة ، ومن رأيه أن الكشف العلمي الذي لا يوضع موضع التطبيق في المنافع العامة ولا يصلح لشيء من الأشياء هو كشف «غير صالح» على الاطلاق .

وكأنما كان خجلاً من اضاعة الوقت في قذح الشرد وجذب الريش والزغب وتجريب هذه الألاغيب الكهربية على غير جدوى ، فكتب (صيف سنة ١٧٤٩) إلى صديقه العالم الانجليزي كولنسون Collinson يروى له — في شيء من التهمك — كيف يعتذر إلى أولئك الذين ساءهم ، أو أخفظتهم ، قليلاً لأن يسمعوا عن تجارب الكهرباء ولا يحسوا لها آثراً ملمساً في تفع بنى الإنسان ، فقال له انه خرج مع طائفة من صحبه إلى

نزة خلوية تع فهو طعامها على نار مستمدّة من الكهرباء : « ويشتعل فيها الكحول بشرارة تبر النهر من شاطئه إلى شاطئه بغير موصل غير الماء ، ويقتل فيها ديك رومي بالهزّة الكهربائية وينضج على سفود تدبره الكهرباء أمام نار مقدوحة من القناني الكهربائية ، وعما قليل يستطيع أن يشرب نخب الكهربئين المشهورين في إنجلترا وهولندا وفرنسا وألمانيا في أكواب مكهربة ترعش الشفاه قليلاً عند ماستها بفعل التيار المتبعث من بطارية كهربائية » (١) .

ومنافع الكهرباء اليوم لا تحصى ولا يضار بها شيء مما كان يستخدم قبلها في الصناعة وتيسير أعمال الناس أو تيسير الأعمال للملائين من المهندسين والصناع والتجار والوسطاء بين الصناعة والتجارة ، ولكن فرنكلين استطاع أن يقنع العالم بفائدة لها تساوى جهود المئات من العلماء في المئات من السنين ، لأن العمود الذي اخترعه للوقاية من الصواعق قد وزن تلك الجهد وأربى عليها ، ولم يوازنها ويرب عليها عند الذين أصابتهم الصواعق أو تعرضوا للإصابة بها حيث يتتابع نزولها ، بل هو قد وزنها وأربى عليها عند الملائين من الذين لا يتعرضون للصاعقة ولا يعرفون منها إلا اسمها يهول ويتردد في مقام الإنذار والوعيد ، ووازنها وأربى عليها عند أرباب الخيال الذين تصوروا جوبيتير على السحاب وتصوروا فرنكلين على الأرض تدين يتبارزان ، ويخلع الند الشري منهما سلاح الند الساوى المقدس في ملاحم الشعر ومزاعم الأساطير .

ولم يعد المازحون قائلين يقول : « أن عمود الصواعق قد سب على فرنكلين صواعق الغضب والنقمـة من عاـهل في الأرض يـناظر جـوبيـتـير في السـماء ، ذـلك هو جـورـجـ الثالثـ مـلكـ إنـجـلـنـداـ فيـ أـيـامـ الثـورـةـ الـأـمـرـيـكـيـةـ . فـاـنهـ كـرهـ أـنـ يـشـيعـ فـيـ الـعـالـمـ اـخـتـرـاعـ رـجـلـ ثـائـرـ عـلـىـ التـاجـ وـلـمـ يـقـدرـ عـلـىـ

(١) من كتاب بنجامين فرنكلين الأمريكي الأول تأليف برلنجمان  
Benjamin Franklin The First Mr. American by Burlingame.

منه وتحريمه لأن خوف الناس من صواعق السماء أعظم من كل خوف يخافونه من صاحب التاج ، فتوسل بكل وسيلة يقدر عليها لعزيزه فرنكلين في هذا الاختراع .

وكأن فرنكلين على طريقته البسيطة قد عرف أن كهربا السحاب تجذب إلى الموصل السهل فترى فيه ولا تصطدم بعائق على الأرض تنفجر الصاعقة من جراء المصادمة بينها وبينه ، فاختار لجذب الكهرباء السحابية وتوصيلها إلى الأرض بغير عائق وغير مصادمة عمودا قائما ينتهي إلى أسلال صالحة للتوصيل بالكهرباء الأرضية ، وفضل العمود المسنن على العمود المستدير من أعلاه ، لأنه يقلل المصادمة وبواحد الانفجار .

فلما ثبتت فائدة العمود لنم الصواعق ثُبِّث الخلاف على الرأس المسنن والرأس المستدير أيهما أسلم في الوقاية وأصلح في تحقيق النظرية العلمية ، فأوزع الملك إلى سير جون برنسيل Pringle رئيس مجمع العلوم أن يفضل العمود المستدير على العمود المسنن ، ونقل المسألة من ميدان العلم إلى ميدان السياسة وواجبات الولاء والطاعة ، فأجابه العالم النبيل بالجواب الذي يستحقه وألقى إليه في جوابه أن قوانين الطبيعة لا تخضع للمراسيم الملكية ، واعتزل العمل في منصبه الرفيع ايثارا للأمانة العلمية على المحظوظ والبعاد ، وشاعت يومئذ في إنجلترا أبيات من الشعر خلاصتها أن صواعق الغضب التي تملكتها أيها الملك جميعا لافتعمك إذا أردت أن تجاوز الحد The Point ... وهي كلمة في الانجليزية ترادف معنى السن والنقطة وتقابل في هذا المقام معنى الدائرة والكتلة ، يريد الناظم بذلك حد العمود المسنن الذي فضلته فرنكلين ووافقه على تفضيله كبير العلماء ، ومعه سائر العلماء .

ومباحثه العلمية التي لم تشتهر هذه الشهادة منوعة في جوانب منوعة من الحياة العامة والخاصة ، أحاطت بالعلاج الكهربائي وعلاقة الصحة بالعرق والتبريد بالتبييض ، وفنون شتى من الاستشفاء بالوسائل الطبيعية

وشملت البحث في غازات المستقعات وخفائر الأرض وسرعة السفن في  
ماء الضحل والماء الغزير ، ولغات القبائل البدائية في أمريكا الشمالية ،  
وإشارات التخاطب بين النمل والحشرات ، ومستقبل الطيران ومستقبل  
علم الضوء على اعتبار الضوء حركة من حركات التموج في الفضاء ، ولم  
يدع البحث في التشريح ووظائف الأعضاء وأساليب التطهير ، ولا في  
الموسيقى وفن الإيقاع ولا في الألوان والأشكال ، وجرى في هذه المباحث  
كلها على وثيرة المعهودة من تسخير المعرفة لمنفعة وتطبيق النظريات على  
الواقع المتدالوة ، وهي عادة ذهنية لاتعييب التفكير العلمي الصحيح  
لَا إذا كانت المنفعة المقصودة منفعة شخصية ينسى المرء في سبيلها منافع  
أبناء نوعه وحقائق العلم أو قوانين الطبيعة ، وتلك هي الخلة التي يرى  
منها هذا العقل العلمي المطبوع فكانت فائدة بني الإنسان أجمعين مقدمة  
لديه على كل فائدة ، ولم يكن نصيه من هذه الفائدة الكبرى غير الفتات  
على المائدة .

وقد ظهر موقفه من المباحث النافعة في اختراعه للموقد الذي سمي  
باسم ويزف الآن باسم موقد فرنكلين ، على ما دخل عليه بعد ذلك من  
التعديل والتحسين .

فهذا الموقد من الآلات التي يمكن أن تصنع باللسانات والألفاظ  
ويحتكرها المخترع فلا تباع إلا من مصنوعه أو بأذن منه ، وكان تمويل  
الأمريكيين قبل اختراع هذا الموقد على كوايني المداخن التي تستند  
الكثير من الوقود وتضيع الكثير من الحرارة المستفادة منه ، وتصيب  
المستدفرين بكثير من الأضرار لأنها تدفقُ الجانب المواجه لها من الجسم  
والجانب القريب إليها من الحجرة ، وتدع الجسم كما تدع المكان مختلف  
الوزان في درجات الحرارة مع غلاء الوقود الضائع وشدة الحاجة إلى  
الدفء والوقاية من البرد في الشتاء ، وشدة الحاجة إلى الموقد على  
العموم لمطالب النساء وغيره من اللوازم البيتية .

فاختراع فرنكلين موقداً يوضع وسط الحجرة وينقل إلى حيث يشاء

الساكن ويحفظ الحرارة كلها للتدفئة ويرسل الدخان الى المدخنة من أنبوية تركب عليه وترفع منه على حسب الحاجة ، وأراد حاكم المدينة أن يكافئه على هذا الاختراع فكتب له تسجيلاً باحتكاره وقرر أن يحرم صنعته وبيعه بغير إذن من مخترعه ، فشكراً لفرنكيلين واعتذر من قبول هذا التسجيل ، وقال في اعتذاره انه يتضمن هو وأبناء عصره بمخترعات الأقدمين ولا يعودون إليهم ثمناً لثاقبها الجزيلاً ، فمن الانصاف أن تتضمن اخواننا وأبناءنا بما نهتدى اليه من المصنوعات والمخترعات بغير جزاء .

ولم يجعل فرنكيلين وهو يعتذر هذا الاعتذار أن الشهرة الأدبية غير مضمونة للمخترعين والباحثين وليس عوضاً خالصاً من الحسد والادعاء فقد كان أعلم بالطبيعة الإنسانية من أن يخدع هذه الخديعة ، وكان يكتب الى صديقه جون لينين Lining بعد ظهور العشرات من مخترعاته فيقول ان الحسد يأبى على المتأسين أن يعترفوا للمخترع بفضل اختراعه وأن الفزو يسول لهم بعد ثبوت تفمه أن يدعوه لأنفسهم ويكتباً في الدعوى فيصدقهم الحسد والجهلاء ، وأنه ما من إنسان مالك لقواه العقلية يتنى لصديقه أو لولده أن يستغل بالاختراع<sup>(١)</sup> .

ولعله من مصادق ما تقدم في كل معنى من معانيه حوار الدكتور جونسون وتلميذه بوزويل عن تعريف فرنكيلين للإنسان .

قال بوزويل : « أحسب أن تعريف الدكتور فرنكيلين للإنسان تعريف حسن : حيوان صانع للألات » .

والذين فرآوا مذكرات بوزويل عن أحاديث الدكتور جونسون يعلمون أن الأستاذ لم يسمع من تلميذه فكرة الإسراع الى مخالفته فيما وأنه لم يكن من عادته أن يمنع موافقته لشيء من الأشياء بغير اعتراض . وعلى هذه العادة أجابه الدكتور قائلاً : « لكن كم من الناس لم

(١) من كتاب بنجامين فرنكيلين الأمريكي الأول تأليف برانجيم المتقدم ذكره .

يصنع آلة فقط ؟ وهب إنساناً بغير ذراعين ، فإنه لا يقدر على صنع آلة من الآلات ؟ » .

إذ تعرف فرنكلين للإنسان في الحقيقة أصدق تعريف له وأوفاه بالشرط الجامع المانع في التعريف ، فما من فارق بين الإنسان والحيوان توضح وأثبت من قدرة الإنسان على صنع الآلة واستخدامها ، وهذه القدرة هي المقصودة بتعرف فرنكلين لا وجه للاعتراض عليها بتفاوت الناس فيها ، فليس الاعتراض الصالح على تعريف الإنسان بالحيوان الناطق أن بعض الناس لا ينطقون ولا يفكرون وأن بعضهم يولدون بسكنها أو مجانين ، وليس من الاعتراض الصالح على تعريف الإنسان بالحيوان الاجتماعي أن يشد بعض الناس ويتارد في الغلاء وينفر من الاجتماع ... ولكن العبرة من هذه القصة أوسع وأدق من أن يحيط بها تعليق واحد ، وكفى منها هنا أن تبرز قدرة العقل العلمي المطبوع على التعريف وإقامة الحدود والقواعد ؛ وأن تبرز تلك الرابطة الوثيقة في طبيعة فرنكلين بين الإنسانية وصنع الآلات ، وأن تبرز مع هذا وذاك سهولة الإنكار حتى من الفضلاء !

ولم يقنع فرنكلين بخدمة العلم بفكرة منفردة مستقلة عن القادرين على خدمة العلوم في بيته وعصره ، فأنشأ نادى « الجاتو » الذي أصبح مجتمعاً للعلوم والآداب ثم أصبح بعد ذلك جامعة بنسفانيا القائمة إلى اليوم ، ونظم الجماعة الفلسفية الأمريكية كما نظم أول مكتبة عامة تفتقر الكتب بالشراء والاستعارة وتغيرها القراء ومن يحتاجون إلى المراجع من أصحاب البحث والدراسات ، وقد كافأته الجماعة الفلسفية على غيرته العلمية وجهوده في نشر المعرفة وتمكين العلماء من نشرها باتخاذه رئيساً لها مدى الحياة ، وهو تقدير من النخبة المختارة يفوق التقدير الذي يلقاه طلاب الرئاسة في مناصب السياسة ، وكان فرنكلين فخوراً به متزرياً به مما كان يلقاه من حساده الأقوباء من البعض المعتمد ونكران الجميل . ومهما تتعدد جهوده ومشاركاته في الأدب والسياسة والاجتماع فليس

من الحصر الذى يزورى بها أن تقول أنها كانت فى جملتها وتفصيلها جهود العالم المطبوع ، بذلك المعنى الذى افتتحنا به الكلام فى هذا الفصل عن فرنكلين العالم ، وزبده أن الملكة العلمية لم تفارق قط فى تلك الجهد والمشاركات .

## الكتاب

إذاً كنا قد عرفنا طبيعة هذا العقل من الأللام السريع ب حياته العلمية فمن اليسير علينا أن نعرف خطته إذا اشتغل بالكتابة في عصر المطبعة ، فإنه على التحقيق لم يكن ل يستطيع أن يعفى نفسه من عمل يتصل بهذه الصناعة ، وكذلك كان كتاباً وطابعاً وناشرًا ومديراً للعمل ، وسنرى كيف كان كتاباً يساهم بقلبه في جميع الموضوعات التي تسمم فيها الأقلام . أما الطباعة فقد كان فيها صفافاً وختاراً ومديراً للمكتبات ومصلحاً لما يختلق منها ، ويكاد أن يصعب مع المهندسين المكتبين في زمامه لأن هذه الهندسة لم تتشعب في ذلك الزمن تشubعاً يصعب عليه أن يحيط به على طريقته في الاحتياط بكل عمل قريب من رأسه ويديه ! وأما النشر فلم يترك شيئاً يشتعل به الناشر في عصره دون أن يتولاه ويبلغ به مداره .

ويقول فرنكلين في ترجمته لنفسه إنه لا يذكر زمناً لم يكن يقرأ فيه ، وهذا مع ذاكرته القوية التي أعادته على حفظ الكلمات وادخار المفردات والعبارات واستيعاب ذلك المعصول النظري ، والفكري ، الذي يسر له الكتابة المشوقة بأسهل أسلوب .

وقد قيل عنه أنه لم يوجد في العصر الحديث كاتب كان حظه من التعليم المدرسي أقل من حظه ، وكان فضل المعلمين عليه أقل من فضله في تعليم نفسه ، وكان عشر أبناء أبيه فنذره لخدمة الدين ، ثم تبين أن التعليم في المدرسة الكهنوthe يفوق طاقته فأدخله مدرسة من مدارس الأجرورية والتربية الأولية ، ومشك في هذه المدرسة — مدرسته الثانية — من الثامنة إلى العاشرة ، ثم أخرجه أبوه لمساعدته في صناعته .

وكان الصبي المشغوف بالقراءة يلتزم كل ما صادفه من الكتب في داره وعند أقربائه ، فقرأ الكتب التي يقتنيها أبوه في مسائل الدين

وخلقات المذاهب ومناظرات العلماء اللاهوتيين ، ووُقعت له نسخة من كتاب « رحلة الحاج » للكاتب المتصوف بنيان Bunyan فقرأها وأعاد قراءتها ثُم باعها ليشتري بثمنها أجزاء من مجموعه المتسببين<sup>(١)</sup> Chapmen Books التي تنشر تسعًا وتلم بالموضوعات المتنوعة من التاريخ والجغرافيا والتوارد والسير والعجائب الصناعية أو الطبيعية ، وهي قراءة توافق ذهن فرنكلين المشغول بالتوسيع والتنوع

ولم يبلغ السادسة عشرة حتى كان قد استوعب العشرات من أمهات الكتب النافعة من قبيل ترجم بلوتارك وذكريات زينوفون ودراسات لوثر وشافتسبير ورسائل دينوى ومقالات كوتون ماثر عن فعل الخير وغيرها من أشياء هذه المؤلفات القيمة التي كانت في متناول يده ، وقد أعجب أصحاب أبيه بذلك واقباله على القراءة وفهمه لما يقرأ فتبرعوا بإعارة ما عندهم من الكتب ، وشجعهم على إعارته باعاته كل ما يستغرقه في أيام معدودات ، ومنهم يائح كتب كان يعيشه ما يطلبه كتابا كتابا في المساء ليعيده إليه في النهار التالي ولا يتمكن من البر بوعده إلا أن يسر على مطالعته طوال الليل إلى الفجر على نور المصباح الضئيل .

والذي قرأه على هذا المنوال كثير ليس فيه كتاب واحد من كتب اللغز والفضول ، بلغ السادسة عشرة ومعلوماته تزيد على معلومات أبناء الثلاثين من طلاب العلم والمستغلين بالاطلاع ، وفكر في الكتابة على سبيل التجربة فأحسن اختيار المؤلف الذي يقتدي به ويوافق منحه وثابر على الاقتداء به والطموح إلى محاكاته والتتحقق عليه إذا تسعى له سبيل التتحقق ، حتى أخذ منه كل ما في وسع تلميذه أن يستمد على البعد من أستاذ .

كان اختياره لكتاب اديسون صاحب مجلة السكتاتور دليلا على

(١) المتسبب كلمة يطلقها العامة على الرجل الذي يلتزم الرزق من الحرف المختلفة كالبيع والشراء والصناعة والواسطة ، ولها أصل فصيح إذا وردت إلى التماس الرزق من أسبابه المتيسرة ، وإلينا ترجمنا بها الكلمة الانجليزية التي تفيد هذا المعنى .

ملكة ناقدة مبكرة عرفته بسلكارات ذهنه ومنهج تفكيره وتعييره ، فليس في الكتاب من تراءى ملامحه جلية مفصلة في أسلوب فرنكلين مدى حياته كما تراءى فيه ملامح هذا «الأب» الفكري الذي اختاره لقدرته بين عشرات من الكتاب .

وكان أخوه جيمس في هذه الأثناء قد استغل بالطباعة وعهدت إليه صحيفة بوستن جازيت Boston Gazette باصدارها في مطبعته ، فأصدر منها في أواخر سنة ١٧١٩ أربعين عددا ثم اختلف أصحابها معه فعمدوا بطبعها واصدارها إلى مطبعة أخرى ، فخطر له أن يستغل باصدار صحيفة يملكها ويديرها ويدير عليها أعمال مطبعته التي أوشكت أن تتغطى وتختفي سمعتها وعملها أمام المطبعة الأخرى التي تناقضها ، فائضاً صحيفة جواب إنجلترا الجديد New England Courant في شهر أغسطس سنة ١٧٢١ .

والحق فرنكلين بالعمل في المطبعة متلماً على أخيه في صناعة الطباعة وهو في الثانية عشرة ، فلما استقل أخوه باصدار صحيفة لم يكن قد جاوز الخامسة عشرة ولم يبق في الصناعة عمل لم يجرب يده فيه ولم يتقنه غير الكتابة ، فأخذ في معالجة هذه الصناعة على منهجه الذي شرحته أجمالاً في الكلام على طريقته العلمية .

وكان حب الاتقان في هذه الصناعة مطلباً طبيعياً يحسه من أعماق نفسه ، فلم يذهب مع الغرور وتحري الاتقان من أبوابه الصالحة ، وعلم أنه لا يستغني — بعد كل ما قرأه — عن المزيد ثم المزيد من القراءة ، فاقتصر من قوته ليشتري الكتب التي لا تستثار ، وخيل إليه من بعض مطالعاته أنه آمن بذلك فذهب النباتين فاقتصر على أخيه أن يعطيه طعاماً بغير لحوم ويضيف ثمنها إلى أجراه القليل ، فكان يشتري الكتب بثمن الطعام . وأدركه حصافته التي لا تغيب عنه وهو يطرق أبواب الشهرة الكتابية فأخفى اسمه واتخذ له توقيعاً مستعاراً باسم سيلنس دوجود Silence Dogood أي « صمتاً واعمل خيراً أو واصنع معرفة » وجعله

اسماً لامرأة وصفها في بعض مقالاته ، وعنى في جميع تلك المقالات بالتسويق واجتذاب القراء بالفكاهة والنقد الاجتماعي الذي يعجب القراء من الرجال والنساء مما لا يهتم بهم شركاؤهم ويحدثهم عن مشكلاتهم وأوجاعهم ولا يحيف على طائفة لمرضاة أخرى بل يسوئ بينهم جميعاً في النقد وملحوظة العيوب . ومن دأب الناس دائمًا أن يمتعوا بهذا التعميم في الملامة والسخرية لأنهم يصيّبوا كما يصيّب الآخرين ، ويقيّم الكاتب أمامهم مقام الحكم العدل أو الحكم الحكيم الذي يعرف أحوالهم ولا يجور على أحد منهم أو يعطيه باخفاء ما يعرفه عن نفسه وعن صحبه من المأخذ والعيوب .

وأصلح ما يكون لهذا النقد الشامل كاتب مغمض واسم مستعار ، لأن هذا الاسم المستعار يجرده من « اللون الشخصي » الذي يدعوه إلى الاتهام بالحيف والمحاباة ، أو يدعوه إلى المنافسة والحسد وتقدير الكاتب بمقابلته الاجتماعية دون مزاياه الكتابية ، وقد خطر لفرنكلين حين أخفي اسمه أن مقالاته عرضة للإهانة والاستخفاف قبل النظر فيها ، وربما يخسها أخوه وزملاؤه الذين يراجعون معه موضوعات الصحيفة كل حق لها حتى حق النشر والاستحسان ، وصح تقديره بعد اكتشاف أمره ومعرفة اسمه . فان أخاه قد تورط في أنه اغتر بالسمعة والاعجاب وتطلع إلى منزلة أكبر من منزلته في أعمال الصحيفة ، فتغيرت معاملته وتعددت مشاجراته واضطرب الأخ الصغير بعد حين إلى مفارقة الأخ الكبير ومفارقة المدينة كلها ثم مفارقة الديار الأمريكية إلى العاصمة الانجليزية .

ومن يقرأ البقية الباقية من مقالات « سيلنس دوجود » يشعر أن النواة كلها كامنة فيها ، فقد برزت فيها ملامح الرجل التي يراها قارئه لأول وهلة في كتاباته بعد الستين وبعد السبعين والثمانين ، وكل ما جد عليها فانياً هو من قبيل النمو الطبيعي للبنية المتركة أو الصقل والتركيب للمجوهر الفيسب .

وقد تعلم الفرنسية بعد سن الكهولة وكتب بها أو ترجم إليها بعض

كتاباته الانجليزية ، وأخلصت أستاذته فيها — مدام بوروفن — في امتحان أسلوبه الفرنسي قالت له « واضح ان لم يكن صافيا » وقال غيرها ما يشبه هذا في كتاباته الفرنسية والإنجليزية على السواء ، فهي واضحة سهلة محكمة ، والتقاد متقوون على دقتها وجلاتها وصحة تعبيرها عن معانيها ، ولكنهم يختلفون فيما عدا ذلك من محاسن البلاغة ومقاصد الكتابة ، ولا سيما القدرة على النفاذ الى الأعمق أو التحليل في القسم والآفاق .

وقد لخص آراء النقاد فيه كتاب مدرسي وجيز في تاريخ الأدب الأمريكي لثلاثة من أساتذة الأدب في الجامعات الأمريكية ، يغرس هذه الآراء من مصادرها المتعددة ويحتجد في أمانة النقل كما يجتهد في حسن الموازنة والترجيح .

فذكر من محاسن هذه الكتابة وضوحها وسلامتها وقوتها تعبيرها وما يتخللها من الصور الخلابة والمكامة السائنة والقدرة على جوامع الكلم مع سلامة الادراك وابراز الحقائق التعليمية في صياغة ترضي وتشوق .

وذكر من عيوبها أنها تفتقر الى جزالة الخيال والرشاقة التي اتسم بها أسلوب أستاذة اديسون والأفراط في التزعة العملية المسادية التي لا ترقع الى القيم العليا<sup>(1)</sup> .

ونعتقد أن هذه الموازنة تلخيص عادل لما قيل في محاسنه وعيوبه الكتابية ، وأن فرنكلين نفسه لم يكن يجعل هذه العيوب ولم يشغل باله بمحوها أو انكارها ، وألقى بالله كله الى محاسنته المحققة فاحتفل بتحسينها وحافظ عليها .

وكل ما كتبه عن البلاغة الكتابية يعزز تلك الآراء عن « تزunte العملية

Outline History of American Literature by Crawford, Kern, and (1) Needelman.

الفرطة » واخضاعه كل فكرة تجول في ذهنه لحدود التقرير والتطبيق .

ومن الكتابة عنده كغيره من مزاولات الحياة وضروب الأعمال وسائل الفنون : فكرة تجمع من البحث في الغرض المقصود منها ، ثم نظرية يتأدي إليها من ذلك التفكير ، ثم تطبيق يصححه بالتجربة والمراقبة وتقدير التقدم فيه بمقاييس من مقاييس الواقع المحسوس .

ومن الحوار التالي تبين مذهبه في الفكرة النظرية عن الكتابة وعن التطبيق العملي الناجح لتلك الفكرة النظرية .

قال : « كيف نحكم على جودة الكتابة ؟ أو ما هي الصفات التي ينبغي أن تتوافق للكتابية كي تعد من الكتابات الجيدة التامة في نوعها ؟

« والجواب أن الكتابة تكون جيدة إذا جنحت إلى إفادة القارئ بزيادة قسطه من الفضيلة والمعرفة ، وبغير نظر إلى نية الكاتب ينبغي أن يكون النهج محكما يستطرد — على انتظام — من الأمور المعلومة إلى الأمور المجهولة في تحديد وتوضيح وغير ليس ولا اختلاط ، وينبغي أن تكون الكلمات المستخدمة أقواها تعيراً عن معاناتها على شريطة أن تكون كذلك أشياعها وأدناها إلى الأفهام ، ولا ينبغي أن يقال في كلمتين ما يمكن أن يقال في كلمة ، ولا حاجة إلى المترادفات إلا نادراً وعلى أن يكون وقها في جملته سائلاً في الأسماء ، ونوجز فنقول أنها ينبغي أن تكون سلسلة واضحة موصلة لأن الصفات التي تناقض هذه الصفات لا تروق . وتنظر إلى المسألة من فاحية أخرى فنقول إن الرجل السيء قد يكتب المعنى السيء كتابة جيدة ، والله إذا سمعت نيته قد يستخدم أصلح الأساليب والبراهين على حسب القراء للوصول إلى بغيته ، وعلى هذا الاعتبار نقول إن أجود ما يكتب هو أجود ما يصيب به الكاتب مرماه » .

فالكتابة الناجحة هي الكتابة الجيدة في تقدير فرنكلين ، ومقاييس النجاح هو « التطبيق العملي » لفكرة مقررة ووجهة مرسومة ، وهذا هو فرنكلين كله مرة أخرى يتمثل في صناعة القلم وفي كل صناعة .

ويسادفنا في ترجم فرنكلين رأى متفق عليه بين الواقعين العاملين والنظريين المثاليين ، وهو هذه نهاية الواقعية العملية التي يرتادها في كل مطلب يعنيه ، وربما لمسنا في كلام الواقعين العاملين شيئاً من الاعجاب في التئويه بهذه الصفة ، وربما لمسنا من الجانب الآخر شيئاً من الفضاضة في تصريح النظريين المثاليين بها أو تلبيتهم إليها ، ولكنهم لا يختلفون في وصفه بهذه الصفة واعتبارها احدى صفاته البارزة ، بل كبرى صفاته العقلية والنفسية بين سائر الصفات .

على أتنا نرى أن النزعة الواقعية والنزعه المثالية فيه تقاربان ، أو أنها على الأقل لا تتناقض ولا تتعارضان ، فإنه يستحسن العمل إلى غاية مده ولا يستطيع أن يدخل جهداً من جهوده يتسع أمامه المجال لبلوغ الكمال الواجب في عمل من الأعمال .

وقد نجح في الكتابة الصحفية وقرر مكانته فيها وأصبح في مجالها علماً فرداً لا يدانيه أحد من معاصره ، وكان هذا النجاح خليقاً أن يقنع غيره بالوقوف عنده والاكتفاء به في صناعة الصحافة وصناعة الطباعة ، ولكنه لم يقنع به ولم يقف عنده ، ولم يدع شيئاً يقدر عليه في هذه الصناعة إلا حاول أن يبلغ منه ما يعيشه على الاستقلال والكتابية ، حتى سبك العروض للطبعة ، ولم يكن في بلاده يومئذ سباقون للحروف .

وديدنه في هذه الخطة هو ديدنه في كل مطلب ، فإنه يفك في الشروط التي ينسغى أن توافر للصحيحي ثم يأخذ نفسه بتحصيلها وتوفيرها ولا تشيه عقبة ترصد له في طريقها ، مما يشتهي أمامه النظريون المثاليون ولا يتبعه كل عامل من المجتهدين الواقعين ، وعلى هذه الخطة أخذ نفسه بالاطلاع على المعلومات الفلكية الضرورية لأصدار التقويم ، وفهم أن الإسلام باللغات مزية واجبة للصحفي الذي يريد أن يقنع عمله بين زملائه، وبخاصة في ذلك الزمن الذي تعددت فيه لغات النازلين بالولايات الأمريكية ولم تنتشر فيه لغة واحدة للكتابة والكلام كما حدث بعد حرب الاستقلال ،

فتعلم من الأسانية والإيطالية والألمانية ما يكفيه ، وتوسيع بعض التوسيع في اللغة الفرنسية ، وجرى في تعلم اليونانية واللاتينية على مذهب في التعليم المدرسي متوسعاً بين الاهماز والالازام ، فهو لا يهمهما ولا يرى أن تفرض على الطالب فرضاً أن لم يكن يشعر بالحاجة اليهما في مطالبه الثقافية ، وأحق منها بالفرض في البرامج لغات الأحياء أو اللغات الحية الشائعة بين أمم الحضارة ، وبين أبناء وطنه على التخصيص .

وما يدخل في هذه الخطة العملية المثالية أنه يجب تبديد الجهد ورأبى الأسراف بطبعه فيما يتغنى به الكماليات أو الفضوريات ، وهو لا يجوز بذلك على حق الكماليات لأن ذلك لا يسرف ولا يبذد الجهد في طلب الفضوريات .

ولا يخفى على الذين اختبروا تعلم اللغات أن الصعوبة فيها درجات : أولها درجة الفهم من الكلام المكتوب ، وتليها درجة الفهم من الكلام المسموع لأنها يرتبط بهجات النطق الذي لا يسهل التقاطه على السمع ساعة النطق به كما يسهل التقاط العرف المكتوب ثم التأمل في الكلمات على الإجمال ، وتلى هذه الدرجة في الصعوبة درجة المساع و الإجابة عليه بالكلام المقيد ، ولا سيما الكلام المصطلح عليه فيما جرت به تقاليد أبناء اللغة من المتفقين وغير المتفقين .

وفرنكلين لم يبذل جهده في لغة من اللغات التي تعلمها لغير ضرورة ، وقد عاش في فرنسا زمناً واتصل فيها بصفوة العلماء والمتعلمين ، وعالج الكتابة وأحسنتها إلى حد الرضا من طبقة التكلفين بالفرنسية الندية في زمانه ، ولكنه ظل إلى آخر أيامه بين الفرنسيين يفهم الكلام في المطبس ولا يفهم الكلام في الخطابة العامة ولا سيما الخطابة السريعة التي لا تجري مجرى الحوار على حسب المفهوم من السؤال والجواب ، والتي يترب على فوات معنى من معانٍ لها فوات المعانى التالية لها إلى آخر الخطاب . ومن طرائفه في هذه المأزق — وهي طريقة تدل على لطف الحيلة كما

تدل على حب المجاملة — انه حضر اجتماعا عاما تعاقب فيه الخطباء وتغدر عليه ان يتبع فهم الخطيب وعز عليه أن يهمل واجب التحية وينفرد بهذا الاعمال بين المستمعين ، فاحتال على الخروج من هذا المأزق بمراقبة احدى السيدات الحاضرات من يشق بذوقهن وفهمهن وبعدهن من الغرض في مهب الأهواء السياسية، وجعل يتبعها بالتصفيق كلما صفت وبالسكت كلما سكت ، وهو يحسب أنه قد أحسن الحيلة وتخلص من المأزق وأدى واجب المجاملة للمتكلمين والمستمعين ، ثم علم بعد ذلك أنه كان يجامل نفسه على غير قصد منه ، وقال له خفيده انه كان يصفق للثناء عليه والتنويه بما ترثه ... انه كان يكثير من التصفيق كلما أكثر الخطباء من الثناء والتنويه ، وكان لا يكتفى بتصفيق السيدة ومن يصفقون معها بل يحب دائما أن يزيد عليه فضلا من عنده ... ولعله لم يخسر بهذا الموقف الطريف الذي ساقه اليه جهله باللغة وجبه للمجاملة ، فان أذكياء الباريسين والباريسيات لا تفوتهم حيلته التي كشفها لهم على الرغم منه ، ولا تضيره عندهم ولا تحرمه لديهم من ابتسامة العطف والتسلية ! .. وقد دوى الكثيرون من سمعوه يتكلم الفرنسية مع صفة المجتمع الباريسي من العلماء والنبلاء أن الخطأ في كلامه كان أحب اليهم من الصواب ، لأنهم يتفكهون به ويكتشفون ما ينطصو فيه من حسن الاحتيال على التعبير .

ولم يكتب فرنكلين لغير الصحافة الا القليل ، وأطول مؤلفاته ترجمته التي كتبها لنفسه ولم يتسمها الى نهايتها ولم تظهر في حياته ، وله رسالة في الأخلاق كتبها في الجلطة وسمعاها « مبحث في الحرية والضرورة والسرور والآلم » غابت فيها عليه فلسفة العصر كله وذهب فيها مذهب القائلين بأن الفضيلة والرذيلة لا وجود لها في الطبيعة التي تسيرها قوانين الضرورة وقدار وفقار تلك القوانين كما تدار الآلات ، ثم عدل عن هذا الرأى أو عدله تعديلا يبقى لل فكرة قالبها وينير جوهرها ، فكان مذهبة الذي صمد عليه بقية حياته ان الفضيلة أهل لأن يفضلها المختار لو أنه أحسن

الاختيار وأن الخبراء الدهاء لو عرفا قيمتها لأصبحوا باختيارهم فضلاء بوجى من الخبر والدهاء .. وتعود بنا هذه المصالحة بين الضرورة وال اختيار إلى تلك النزعة الواقعية التي تلاقي النزعة المثالية في منتصف الطريق ، فستقاربان ، أو هما على الأقل لا تتنافران .

وفيما عدا الترجمة والرسالة الأخلاقية لم يفرغ لتأليف الكتب مع اشتغاله بالصحافة والتجارب العلمية ووظائف الحكومة التي وكلت اليه بعد اشتهر اسمه وذيع مخترعاته وعلومه . وقد كان عمله في الصحافة أعمالاً متشعبة كما تقدم ، فإنها كانت تشمل التحرير والطباعة والنشر وإنشاء الصحف وتوزيعها وبيع الكتب التي يطبعها أو يستوردها من البلاد الانجليزية ، وكانت الطباعة التي يتولاها تشمل سبك العروض وإدارة المكتبات وحفر النقوش وكل صناعة طباعية يحتاج إليها الصحفي والناثر في عمله . وقد عقد النية منذ فارق أخيه على أن يستغل بإنشاء صحيفة يملكها ويتصرف في إدارتها وتحريرها ، فبدأ بعد عودته من لندن إلى فلاديفيا بشراء مطبعة نجحت في إتقان مطبوعاتها وتوفير عمالها ، ثم اشتري في سنة ( ١٧٢٩ ) صحيفة بنسفانيما جازيت وأصدر قسوم ريتشارد المسكين بعد ذلك بثلاث سنوات ، وضم إلى الصحيفة مجلة سماها المجلة العامة *The General Magazine and Historical Chronicle* صدرت في سنة ( ١٧٤١ ) وكانت ثانية المجالات التي صدرت في الولايات الأمريكية ، وحاول في أثناء ذلك إصدار صحيفة ألمانية يكتبها أستاذ من أساتذة اللغات فصدرت منها أعداد قليلة ولكنها لم تعم طويلاً لقلة القراء باللغة الألمانية ، ومكنته سمته الحسنة في الصحافة والطباعة من المشاركة في بعض صحف الجنوب ثم أرادت الجماعة الزيادية بكارولينا الجنوبيية أن تشجع الطباعين على إنشاء مطبعة فيها فتبرعت بالف جنيه لمن يقيم مطبعة كاملة في الولاية ، فاتفق فرنكلين مع أحد زملائه على إقامة المطبعة مشتركين في إدارتها وأرباحها ، وحيل بينه وبين الحصول على المعاونة الموعودة فلم يكفل عن السعي حتى حصل عليها بعد وفاة الطباع

الراجم له ( سنة ١٧٣٢ ) وأصبح هو وشريكه مستقلين باصدار صحيفة الولاية باسم « سوث كارولينا جازيت » أي صحيفة كارولينا الجنوبيّة .

وكان فرنكلين كمئاً لكل صعوبة تُعرضه في أعماله الصحفية ولاسيما أعمال النشر والتوزيع ، ومن أخطر هذه الصعوبات التي تغلب عليها أنه مني بعزلة آندرو برادفورد مدير البريد يوم كان البريد « التزاماً » يتولاه المدير لحسابه ولا يدخل في عداد المصالح الحكومية ، فمنع برادفورد ساعاته من توزيع صحيفة فرنكلين وأوشك أن يضل حركتها لو لا ذلك الخلق المطبوع الذي أسعد فرنكلين بالأنصار والأعوان في جميع المأزق المحرجة ، وهو خلق الكياسة وطيب المعاشرة وحسن التفاهم مع الناس من كل طبقة ، فلم يثبت أن تفاهم مع الساعة واسترضاهما بالهدايا ثارة والاقتساع ثارة أخرى فأقبلوا على توزيع صحفته على غير علم من مديريهم ، ونجح حيث أخفق مدير البريد .

وأعانه هذا الخلق في اجتذاب العملاء فأقبلت دواوين الحكومة على طبع أوراقها عنده ، واختاره تجار الكتب لطبع الكتب التي يوزعونها ، وكان هو يطبع من التصانيف السلفية ما يقدر له الرواج في كل زمان ، كالمحاجم القانونية ، ومجاميع الصلوات ، ودساتير المسؤولين ، ومذكرات التطبيب والاسعاف ، ودواوين القصائد التي تصلح للمناسبات ، ونصائح الارشاد في مشكلات الأسر وأصحاب المعاملات وبرامج الصناعة التي تجمع بين العلم والهائلة ، غير ما كان يستورده من المطبوعات الأدبية التي يقبل عليها قراء الشعر والثر من خاصة القراء . ولم يكن يستورد منها غير العدد الذي ينفذه لساعته ، ويضمن له ثقة الخاصة من قراء الأقليم وتعويذه على مطبوعاته ووارداته .

ومن المحرجات في صناعة الطبع والنشر ما يخصه فرنكلين بصفة خاصة لاته على إيمائه بحرية الرأي يكره العادات ولا يميل إلى اغضاب المخالفين ما استطاع أن يرضيهم بالكلمة الحسنة والصراحة المقبولة . وليس من البسيط على طابع أو ناشر أن يقصر مطبوعاته ومنتشراته على

ما يرضي الناس جمِيعاً ولا يسوء أحداً منهم ، وأعسر ما كان ذلك في حصر المجادلات السياسية والدينية بين أناسٍ من مختلف الأقدار والعقائد والميول ، فاجتهد فرنكلين في اجتناب ما يمكن اجتنابه مما يسوء القاريء لغير ضرورة ، ولم يبال بعد ذلك أن ينشر ويكتب ما يخالف آراءه ويوافق آخرين ، وكتب دفاعه عن صناعة الطباعين توضيحاً لمساركه بين الآراء المتضاربة ، فكاد أن يرضى الجميع به لو كان إلى أرضاء الجميع من سبيل .

لا أنه — مع حرصه على المجاملة حرص الأفراد في بعض الأحيان — لم يجامِل أحداً فيما يشدّ عن آداب المُنازرة أو يقْحِم المُثَال الشخصية بين مباحث التقدِّم ومناقشات الآراء ، وكان يقول كما ذكر في ترجمته : «أنت أتحاشى في تحرير الصحيفة كل إساءة شخصية من تلك الإساءات التي وصَّت بلادنا في السنوات الأخيرة . وكلما ألح المُلْهون على نشر كلام من هذا القبيل واحتُجوا كعادتهم بجريدة الصحافة وشبعوا الصحيفة لتسويغ طلبهم بالمرَكبة الحافلة التي ينبغي أن تسع لكل راكب وكل مشترٍك — كان جوابي لهم أنت على استعداد لطبع كلامهم على حدة ولهم أن يطبعوا منها النسخ التي يريدونها ويسارونَ توزيعها ، ولكنني أنا غير مستولٍ أن أشتراك معهم في عمل لا أرضاء .

ولا نطاله كان بحاجة خاصة إلى مطبعة خصوصية لطبع رسائله في باريس ، فربما كان حكم المادة وحب الصناعة التي شبّ عليها سلواه في أيام الشيخوخة وباعثه الأول إلى افتتاح المطبعة الخصوصية قبل كل باعث من بواعث الأعمال السياسية أو الأدبية ، ولكن مطبعة «باسي» على هذا قد أخرجت له نخبة من الرسائل والنشرات لم تخرج مطابعه الأولى نظيراً لها أيام الشباب ، ولو سقطت هذه المطبوعات من مجموعة الكاملة لاختفى بالختئان أجمل ما كتب من الفكاهة والتقدِّم بعد تهذيب السن وحنكة الشيخوخة والاطلاع .

## « وفقاً للخطة المقررة ... » .

هذه عبارة شاعت أيام الحرب الأخيرة ، في بلاغات القيادات العسكرية ، وتعود القراء بعد تكرارها أن يفهموا منها أنها تكتب في البلاغات التي تنذر بالارتداد من غير اعتراف بالهزيمة ! فإذا سمعوا خبراً يتبدىء بالترابص والارتداد بادروا إلى اتهامه متهكمين : نعم ! وفقاً للخطة المقررة ..

ترى هل كان أصحاب هذه البلاغات من قراء فرنكلين ؟

لا نظفهم قرأوه . ولكنه قد سبقهم إلى هذه العبارة وأمثالها ، وعود قراءه قبلهم أن يتوقعوا كل حركة كبيرة من حركات سيرته الحافلة .. وفقاً للخطة المقررة ! . وعودهم أن يتسموا لهذه الخطة التي ترسم كل حركة من حركاته سلفاً حتى حركات الأفكار والأخلاق ! ولكنهم يتسمون هنا لتلك العادة المزمنة التي لا تتغير ولا تذكر إلا مقترونة بأخبار النجاح ، وليس في ابتساماتهم المتواترة شيء من التهكم أو السخرية على أخفاء الفشل بالدعوى ، بل هي ابتسامات العطف التي ترتفع إلى الشفاه كلما نظر الناظر فرأى أمامه وجهًا قد يطالعه من جديد ، ويرجع إليه في كل مرة على ديدنه وهجراه .

قال فرنكلين يصف مقدمات سيرته الطويلة : « إن الذين يكتبون عن فن الشعر يعلموننا أننا لا ننظم شيئاً جديراً بأن يقرأ إلا إذا رسلنا له من البداء مقفلةً مغلقةً عن مقاصده و إلا تورطنا في السخف والاطالة ، وأداني أعتقد أن هذه الخطة تصدق على الحياة برمتها ، خلافاً لمنزعى الأول إذ كنت لا أتبع في حياتي خطة موحدة ولا أرى الحياة على هذه الطالة إلا شتتاً من المناظر لا تربط بينها رابطة . واتني الآن لقصد على حياة جديدة . ولا بد لي من عزائم أمضى عليها ومسالك في الأعمال أتوخها ، كي أعيش من جميع الوجوه عيشة مخلوق عاقل . فليكن لزاماً على ” إذن أن أحترى القصد زماناً لأبرى ” ذمتى من كل زيف ، وأن

أروض نفسى على قول الصدق في كل موقف فلا أدع إنساناً يتوقع من  
كلامى أملاً لا يتحقق ، ولا أحيى عن سنة الأخلاص في كل كلمة أفوه  
بها أو عمل أعمله ، وهى أحب السنن في مناقب العقلاة ، وأن أفرغ نفسى  
بجهد وعناء لكل شاغل أقدم عليه فلا أنصرف بذهنى عنه سعياً وراء  
الأمل الخادع في الشروء العاجلة . لأن الاجتهاد والمثابرة أحسن وسائل  
الثراء ، وعلى الأنس بكلمة مسيئة عن الإنسان من الناس ولو في سياق  
الافضاء بالحقيقة ، بل أحاول أن أتنس الماذير لما أسمه من أخطاء  
الناس ، وأن أذكرهم بالثناء في كل مقام » (١) .

وعلى هذا البرنامج سار فرنكلين في حياته الكتابية وحياته الصحفية ،  
فلم يقصر عن غاية كان في وسعه أن يبلغها ، وقدم إلى الطليعة بين كتاب  
عصره في وطنه وغير وطنه ، ونظم من حياته قصيدة لا اختلال في أوزانها  
على النحو الذي رواه عن فن الشعر في رأى معلميه . ولا ريب أن هذه  
القصيدة الحية ، بل هذه اللحمة الواقية ، أبدع قصائده من منظوماته  
وأناشيده ، فلم ينظم من الشعر ما أبقاءه أو تركه للبقاء ، ولم يطابع  
هواء مع عروس الشعر إلا ليستعين بها على حفظ كلمات المنشور أو توقيع  
الأناشيد في مجلس من مجالس العبور ... فلم تبق له غير قصيدة واحدة  
 ذات قواف ممتدة ، هي الحياة على هذا الوزن الريت ، ومن قوافيها  
المتعددة قافية الكاتب الأدب .

#### ٤) الفصل الرابع من ترجمة قان دون .

## السياسي

يعمل في السياسة اليوم أناس كثيرون كلهم له وظيفة سياسية ، وكلهم له عمل غير أعمال الآخرين ، وقد يقضى الواحد منهم حياة معمرة ولا يستغل في السياسة بوظيفة غير الوظيفة التي استعد لها بترتيبه وتعليمه .

فالوزير ، أو الزعيم ، الذي يقود الرأي العام سياسي ، والسفير الذي ينوب عن دولته عند الدول الأخرى سياسي ، والحاكم الذي يدير الديوان أو يحكم الأقليم يعد من ساسة البلد ، والعالم الباحث الذي يدرس النظريات الاجتماعية ومبادئ الحكم عالم سياسي أو خبير مختص بعلم السياسة .

وهذه كلها أعمال محدودة في العصر الحاضر ، لا يختلط واحد منها بغيره وإن كانت كلها تتضمن تحت عنوان السياسة .

ولكنها لم تكن محدودة في عصر فرنكلين ، ولم تكن محدودة في وطنه بصفة خاصة إبان حركة الاستقلال ، لأن الشعب الأمريكي في ذلك العصر كان يتطلع إلى زعمائه البارزين في كل مشكلة ويتطلب منهم العمل والهدایة في كل موقف ، وكان يواجه المسائل والخطوب جملة واحدة بكل ما عنده من قوة وقدرة ، فهو يندب الرجل الذي يراه أمامه للمشكلة التي يراها أمامه ، ويستقر من الفقيه أن ينفعه في تدبير شئون القتال ، ومن المقاتل أن ينفعه في تدبير شئون الحكم ، ومن التاجر أن يعمل عمل السياسي ، ومن السياسي أن يعمل عمل التاجر ، ولا يملك الوقت ولا التمويل أو التقسيم الذي يتبع له أن يتضرر لكل عمل صاحبه ولكن رجل رسالته ، فكل مشكلة ل ساعتها وللرجل الذي يلقت الأ بصار ويقع الأسعاف في تلك الساعة ، وهذه هي المحنة التي امتحنت كل معدن من معادن الرجال البارزين فأخرجت في معصراً الشدة خير ما فيه .

وأخرجت مع هذا فتة صالحة من الرعاء لا تهوقهم فتة من قبيلها في عهد من عهودها الثانية ، بعد النهضة والتقدم والاتساع والارتفاع . وكان فرنكلين واحدا من هؤلاء الرعاء المدحرين للشدائدين في أوقاتها ، وللسياسة بجميع مقاصدها : سياسة الزعيم وسياسة المنفِر وسياسة الحاكم وسياسة الباحث في كل سياسة .

ونجح حيث طلبوا منه النجاح ، ولم يخيب الطفون في وجاه يناظبه أو ناظته به حوادث الأيام .

في عصرنا هذا قد ترجم السياسي وظلتمن أسباب نجاحه في أوائل نشأته ومبادئه تربية وتعلمه .

وفي عصر فرنكلين نفسه ربما جاز التماس الأسباب — أسباب النجاح — في النشأة والتربية والتعليم .

ولكتنا لا تستغني في عمل من أعمال فرنكلين — خاصة — عن الرجوع به إلى الفطرة الموروثة قبل غيرها ، فلم تكن في عصره علوم مقررة وبرامج محفوظة لتخرير الساسة الناجحين في كل ضرب من ضروب السياسة ، ولو كانت هناك تلك العلوم والبرامج لما فسرت لنا شيئا من نجاحه في سياساته ، لأنه — كما قيل — لم يوجد أحد قط كانت فائدته من المدرسة أقل من فائدة فرنكلين .

ولا بد أن تنظر في تكوينه المطري ، وفيما هو من قبيل هذا التكوين ، لتفسيير كل قدرة له لم يستندها من المرأة والتعليم .

ولا يستطيع مترجم له أن ينسى في هذا الصدد قوة البنية التي ورثها من أبيه ، فإن قوة البنية أصدق أخوان السياسي في كل عمل من أعماله يتطلب الهدوء واعتدال المزاج ، وكل عمل من أعمال السياسي يتطلب النفس الهدامة والمزاج المعدل .

وحجب النظام خصلة يتعلّمها الإنسان في المدرسة وفي تجارب الحياة ،

كما يتلقاها استعدادا بالوراثة مع البنية الطبيعية ، ومهما يكن من فضل التعليم والتجربة في هذه الخصلة فلا شك في اختلاف الاستعداد لها بالطبيعة الموروثة ، فقد يعني قليل من التعليم والتجربة مع الاستعداد الطبيعي حيث يضيع التعليم الكثير والتجربة الطويلة عبثا مع فقدان ذلك الاستعداد .

ولقد كانت قوة البنية عونا لفرنكlin على التنظيم وكابحا لدفافع الغلل والاندفاع والتقليل بين رأى ورأى وبين نظام ونظام ، وقال عارفوه — بعد الأربعين على الخصوص — إنهم لم يروه قط في ريبة أو عجلة .. وهذه أيضا عدة من عدد النجاح في السياسة لا يستغنى عنها ، ولا يقدر عليها أحد كما يقدر عليها الرجل المكنى البنية المستقر على نظام لأعماله وأوقاته ومنع الخلط بينها والارتباك في البدء بها والاتهاء منها ، ويمنع الريبة والعجلة تبعا لذلك ، فلا يفقد طمأنينة ولا يفقد العاملون معه طمأنيتهم إليه .

ويتحقق بالاستعداد الفطري أنه كان عشر أبناء أبيه ، فلم ينشأ نشأة الطفل المدلل ولا نشأة الطفل الوحيد الذي يقضى أيام الطفولة بعيداً من أمثاله غريباً عن شعور الزماله والعشرة الطبيعية . وفتح عينيه على الدنيا وهو يصاحب أطفالاً أكبر منه وأصغر منه بين اخوة وأخوات من الجتسين . فلم يصعب عليه بعد ذلك أن يسلك مع الناس ، وعرف الكبار والصغر في أخص حالاتهم وأعمها معرفة البداعة السهلة والفهم الصحيح . وكان له من كل أخي وكل أخت نموذج مختلف ينوع أمامه طبائع التفوس فلا تخفي عليه حقائق النفس البشرية على تعدد الأمزجة والطبع .

ولستا فري أن المقدرة السياسية كان لها الفضل كله في نجاحه حيث نجح في « وظائفه » السياسية التي لم تتحصر في مجال واحد من مجالات السياسة ، فمن قيادة الرأى العام إلى المفاوضة إلى الادارة والتنظيم إلى مباحث الحكم وفلسفة الاجتماع — كل أولئك كان له فيه أعوان من ظروف الزمن وظروف النهضة الفكرية وظروف المجتمع الأمريكي نفسه

في إبان تكوينه قبل الخلاف مع الدولة البريطانية وبعد الاستقلال عنها إلى يوم وفاته .

/ فالنزاع بين بريطانيا العظمى وفرنسا كان له شأنه في ضم فرنسا إلى جانب الثورة الأمريكية وتحريضها على الاتتقم من بريطانيا العظمى لسعياً الحشيش في طردها — أى طرد فرنسا — من أمريكا الشمالية نفسها ، وقد كانت رغبة فرنسا في طرد الدولة البريطانية من تلك البقاع لا تقبل عن رغبة الأمريكيين الساخطين على حكومة لندن وحكومة المستعمرات .

وهذه معاونة من الظروف لا تهمل في تقدير مساعيه وتقدير أسباب نجاحه ، ولكنها اذا وضعت في الميزان وجب أن توضع أمامها عوامل أخرى في السياسة الأوروبية كانت تميل بفرنسا إلى الجندر والأئمة في تشجيع الثوار الأمريكيين ، بل كان من هذه العوامل التي تدعو إلى الجندر والأئمة أمور ترجع إلى فرنسا داخل حدودها ولا تمتد إلى ما وراء الحدود في القارة الأوروبية أو القارة الأمريكية ، وتلك هي مخاوف القصر والنبلاء من بوادر الثورة الفرنسية التي كانت تهددهم بالتدبر بعد النذير حتى قضت على لويس السادس عشر — ملك فرنسا — الذي استقبل في بلاطه فرنكلين .

ومن الظروف التي أعانت على النجاح ما لا يحسب لفرنكلين في ميزان القدرة السياسية ولكنه يحسب له راجحاً مرجحاً في غير ذلك الميزان ، وشهرته العلمية ظرف من أكبر هذه الظروف ، وسبباً له الحيوية ظرف آخر لا يقل في تمييز الطرق أمامه وفتح الأبواب له عن الشهرة العلمية .

وهنا أيضاً ينبغي أن نعادل بين الكفتين ونضع شيئاً في كل كفة منها ولا تقص المرجحات على كفة واحدة .

هنا أيضاً ينبغي أن نعلم أن الظروف المؤاتية تصادف الساسة في كثير من المهام الكبرى والصغرى ولا يحسنون الاستفادة منها بل لعلهم

يمكرونها ويضيئون فرستتها بالغطاءات التي يستغلها الخصوم ويحسبونها في جانبهم من الظروف المؤاتية !

وقد كان خليفة فرنكلين في تمثيل بلاده عند الدولة الفرنسية رجلاً من مشاهير الأميركيكين بلغ إلى رياضة الجمهورية وعده المؤرخون الأميركيون والأوربيون من آحاد الرؤساء النابحين ، وكانت له فلسفة سياسية ومبادئ ديمقراطية تدرس الآن بين أصول الحكم الدستوري والحرية الفكرية ، وحل هذا الخلف العظيم محل سلنه العظيم فأحسن بالعب الفادح من اللحظة الأولى ، وكتب إلى قومه يقول : انه يحل محله ولكن لا يعني غناه ... ولم يكن جهراً من يتلطفون أو يمدحون على حساب الحقيقة والعدل باسم التواضع المكذوب .

والظروف المعاونة في استنباط قواعد الفلسفة السياسية تشبه هذه الظروف وأمثالها في مسائل المفاوضة الدبلوماسية . فقد كان أذكياء العصر يرقبون هذه الفلسفة وهي تولد وتترعرع وتسمو مع الحساد والطالب الشعبي من جانب الطلاب وجانب المعارضين والمنكريين ، وكان له رأى عن التعشيل النباني وحقوق الدولة في تحصيل الضريبة وحقوق المحكومين في المطاسبة عليها وحقوق الطبقات في المساواة أو الامتيازات الموروثة — قضية قائمة مسموعة العجج من طرفها منجمة على حسب الحوادث بل على حسب الأفراد والأقاليم في كثير من الأحوال ، وكان صاحب الرأى الفلسفى يعمل « فلسفته » عملاً وينفذها تنفيذاً ولم يكن قصاراً منها أذ يقرأها على الصفحات ويناقشها بالبراهين ، وكان جو الدولة البريطانية من أقصاها إلى أقصاها يتماوج بيقاها الثورة الدستورية ويردد الأصداء القريبة التي يسمعها المحكمون كما يسمعها المحكومون ، وكانت فرنسا تنسى الانفاس من هذا الجو وتنفسها في صرخات فولتير وزملائه التمردين المتحفزين ، ولم تسمع نظرية واحدة من نظريات الفلسفة السياسية التي شاعت في ذلك العصر الا وهي لاحقة بحادية تؤيدوها أو سابقة لها ذات يوشك أن تتجسم للحس والعيان ، وهذه هي

النظريات التي تستجيب لها طبيعة فرنكلين ويتقبلها ذهنه ويقيم عليها أفكاره وأعماله في وقت واحد ، فليس الأفكار فيها إلا أعمالاً مفسرة ، وليس الأفعال فيها إلا أفكاراً مطبقة ، أو في انتظار التطبيق .

ويوضع كل هذا في كفني الميزان حيثما وزن قدرة فرنكلين وعمدة الظروف في مساعيه السياسية وفي قيادة الرأى العام الى الفلسفة الاجتماعية ، ويوضع في الميزان قبلها وبعدها تقدير واحد ينبغي إلا ينساه من يزن عملاً من الأعمال أو سيرة من السير ، وربما كان هذا التقدير سؤالاً يلقيه المؤرخ على نفسه ويجيئه ثم يفترض جوابه المقول في حساب المسؤولين الآخرين : فإذا كان صاحب السيرة لم يصل عمله بفضل قدرته وحدها دون غيرها ، فهل عمله الظروف وحدها يفضل قدرتها دون غيرها ؟ وهل كل عامل ينجح مثل هذا النجاح اذا وجد في هذه الظروف ؟

إن كانت الظروف لا تغنى عن العامل فذلك هو الفضل الذي يوضع له في ميزانه ، وإذا كانت الظروف المؤاتية لا تنقطع عن الدنيا ولا تتجرد منها حداثة من الحوادث العظمى فهى لا تملو ولا تهبط بكفة ميزان .

كانت قيادة الرأى العام من « وظائف » السياسة العامة التي تهض بها فرنكلين أو أنهض لها — على الأصح — لأنّه لم يطلبها بأدواتها ولم تكن لديه أدواتها في البلاد التي تناول فيها قيادة الشعب بالتأثير في الجماهير . فلم يكن خطيباً يملك عواطف السامعين ويشيرها ويطبع بها على هواه ، ولم يكن من عاداته أن يسرف في الوعود وأن يقول ما لا يفعل ولا ينوى أن يحمله ساعة الوعود به في ساعة من ساعات الحماسة وهياج الخواطر والأفكار ، ولم تكن الحماسة من طبائعه في علاقة من علاقاته بالناس خاصة أو عامة ومتاجرين أو هادئين ، وكان فصيحاً مبيناً في الاعراب عن رأيه والاقناع بمحجته وشرح أفكاره التي استقر عليها والتي لا تزال بين التردد والاستقرار ، ولكن هذه النصاحة المبنية ليست بالعدة الماضية في قيادة الجماهير من منصة الخطابة ، وليس على الأخرين بالعدة الماضية في عصر الزحام وأضطراب الأهواء وجماح المطالب الى غير وجهة ثابتة

يتناهم عليها القادة والمفكرون فضلاً عن الأتباع المتقادين بغير تفكير .

فلما نهض فرنكلين بقيادة الرأي العام أنهض لها على الأصح من غير سعي لها وغير تدبير مقصود للوصول إليها اللهم إلا أن نحسب نتيجة عمله غالية مقصودة يناظر بها التدبير .

فقد كانت ثقة الناس به من تائج شهرته بالتصويم السنوي الذي سماه تصويم ريتشارد المسكين وكاد أن يحمل اسمه والاعجاب به إلى كل بيت في الولايات ، وكانت هذه الثقة في موطنها وبين عارفيه من تائج الاطمئنان إلى حسن ادارته وأمانة يده وضميره ورباطة جأشه وقدرته على مواجهة الشدائـد والأزمـات بما يلائمـها من الرأـيـ الحاضـرـ والمـفـكـرـ الـهـادـيـ،ـ والتـصـرـفـ الـمـرـيحـ الـذـىـ يـرـتـضـيـ أـطـرافـ الـخـصـومـةـ بـعـدـ سـكـونـ الـرـوـبـةـ وـاقـضـاءـ الزـرـاعـ وـالـخـلـافـ .

ولم يحاول قط ، ولا كان في قدرته ، أن يثير الجماهير بفصاحة الشارع وارتباك المدعوى الكاذبة التي لا تسأل عما تقول ولا يذكرها أحد بما قالت ولا يذكر أحد ما سمع منها بعد حينه ، ولكنه كان يقدر على ما هو أصعب وأخطر في مخاطبة الجماهير : كان يقدر على تهدئة الجماهير الثائرة . وهي قدرة لا طاقة بها لأقدر الخطباء على إثارة الجماهير الهدامة ، وكانت عدته النافعة في هذه المواقف ربطة جأشه وطبيعته المرئية على سيماه ونظرته الأبوية التي تهدى الناظرين بما يقابلها فلا يملكون إلا أن ينقادوا له طائعين كما يقاد الأبناء للأباء .

ومن هذه المواقف الثائرة أن بعض الأغوار على الحدود سمعوا بمعركة بين السكان البيض والهنود الحمر فهمجوا على قبيلة من القبائل الهندية للاقتصاص منها وفر أبناء هذه القبيلة وبناتها إلى فلانقها يحتمون بها من مطاردة الناقمين المتعطشين إلى الثأر والانتقام ، فثار بهم غوغاء فلانقها وتعقبوهم في الطرقات ليتسلّكوا بهم ويستقموا منهم على السماع بغير تمييز بين المعدين والمسلمين ، وطلب الحكم من فرنكلين أن يقمع

الفترة بفرقة من الجنود الرديف ، فلم يصل فرنكلين بالأمر وأثر التجربة بالحسنى قبل الوثوب الى السلاح ، وذهب الى الثنائين منفردا علا لا يحمل في يده شيئا حتى عصاه ، وكانت رؤيته كافية لتوقف الجمهور الهائج في ثورة غضبه للاضعاء الى الأب فرنكلين ، وكتب هو عن هذا الحادث الى صديق له في لندن يقول : « في خلال أربع وعشرين ساعة كان صديقله القديم جنديا ومستشارا ودكتاتورا على نوع ما وسفيرا الى الغواء . ثم عاد الى منزله نكرة كما كان .. » .

وبهذا الوقار على أسلوب آخر كان يؤودى أمامة القيادة بين كبار القيادة من فطاحل الزعماء ، فلما عهد اليه مع فئة من هؤلاء الزعماء أن يكتب اعلان الاستقلال لم يرض عن كلمة جفرسون التي قال فيها عن حقوق الأميركيين « أنها مقدسة لا تذكر » واقتصر بدليلا منها « أنها ثابتة بذاتها » لأن القول بأنها لا تذكر لا يطابق الدقة العلمية مع وجود من يذكر ونها ويقاولون في سبيل انكارها ، ولأن القدسية في الحقوق العامة قد ابتدلت بدعوى الملوك الذين يزعمون انهم يتلقون السلطان من السماء ودعوى رجال الدين الذين يزعمون أن القدسية مستمدۃ منهم وقد يتسللون من وراء هذه الكلمة الى المطالبة بالرقابة على حقوق الشعب « المقدسة » ! .. فكانت قيادته للامة لا تستغني عن وقار تفكيره بين الذهماء ولا بين الزعماء .

والسياسي المفاوض يلى السياسي الرعيم في القدرة والخبرة بأساليب المفاوضة في كل ظرف من ظروفها ، وهى تلك الظروف التي تتناقض بين يوم ويوم وبين خصم وخصم وبين قضية وقضية .

فتولى المفاوضة في بلده بين البيض والهنود الحمر ، وبين أبناء الولايات وأبناء كندا الفرنسية .

وتولى المفاوضة في إنجلترا فأبا عن بعض الولايات الأمريكية .

وتولى المفاوضة في فرنسا ليستعين بها على مقاومة بريطانيا العظمى

ويصدق معها معاهد تعرف فيها باستقلال الولايات وتسجل لهذه الولايات كيانها «ال رسمي » في عالم السياسة الدولية .

وكانت عدة « السياسي المفاوض » لديه أكمل من عدة السياسي الزعيم أو السياسي الذي يقود الجماهير بالأقوال والوعود .

كانت المسألة طبيعة فيه ، وكان من مبادئه « العلمية » صياغة الجهود عن التبديد ، فلا يقدم على نضال يستطيع اجتنابه بوسيلة من وسائل التراضي أو حيلة من حيل المجاملة والتفاهم على أواسط الأمور ، وعندئ ذه **« لا حرب حسنة ولا سلم سيئة » .. بل السلم خير من الحرب ما دامت المسألة تفتى عن القتال .**

وفاوض الهنود الحرر فنجح لأنهم يحسون منه دخيلة شعوره في مسألة الفوارق بين الأجناس ، وقد كان يقول إن الفتكت بأبناء قبيلة هندية اتقاما من أبناء قبيلة أخرى جور قبيح كاتقامتا من الهولنديين مثلا لعدوان يصيغنا من الفرنسيين واعتذارنا من ذلك بأنهم « كلهم يبغ الوجه .. » .

ولم يسمع الهنود منه هذا الرأي ولكنهم كانوا يحسونه من شعوره ومعاملته وإشارته للتراضي والمصالحة .

ولما ذهب للمفاوضة في إنجلترا كان في رأسه كل حل وكل محاولة قبل القطعية وأعلان العداء .

كان في ذهنه أن تتعاون أجزاء الإمبراطورية على نمط « الكومونولث » الذي اهتدى إليه الساسة البريطانيون بعد الحرب العالمية الأولى ، وكان في ذهنه أن تختر للإمبراطورية عاصمة في الولايات تتبعها الجزر البريطانية كما تتبعها الولايات الأمريكية وغير الأمريكية ، وكان في ذهنه أن تنقض الخصومة بتقرير حقوق الهيئات النباتية في كل بلد وتقرب حقوق الناج على المساواة بين الجميع ، فلا يكون لبرلمان إنجلترا حق

فـ فرض الفرائض مع وجود البرلمانات المحلية ، ولا يشترك التابعون  
للتاج في هذه المساواة .

وهذا المفاوض الذى كان من طبعه أن يذهب مع المفاوضة الى الحد الأقصى لم يكن يذهب بها الى غير حد ولا نهاية ، فلما جاء العدوان في بلده من الهند الحمر وظهر من العدوان انه استضعف وسوء فهم لمعنى المسألة والمداراة كان هو المقاتل المصر على القتال الى أن يتبدد هذا القهم وتزول من نفوس المعتدين مظنة الاستضعف . ولما فتح كل باب للمسألة مع الساسة البريطاني ويش من كل حل وكل حلقة كان هو في طليعة الدعاة الى المقاومة بالسلاح وعلى رأس العاملين على توفير الأسلحة وتجنيد الفرق واتخاذ الخططة في مواضع الهجوم والدفاع . أما المفاوضة في فرنسا فقد كانت في نصف الطريق أكبر مجازفة ، وكانت في النصف الآخر أكبر فجاج .

برح الديار الأمريكية سرا في السادس والعشرين من شهر أكتوبر (١٧٧٦) مع ثلاثة من الزعماء لماهاة الدولة الفرنسية في عقد معاهدة مع الدولة الأمريكية المستقلة تمهد لغيرها من المعاهدات مع الدول الأخرى ، وتبداً الاعتراف بالدولة المستقلة الجديدة في المعاهدات الدولية ، وكان سفره على سفينة صغيرة لا تحتمل زعازع المحيط الأطلسي في تلك الأوقية ، وأخطر من زعازع المحيط الأطلسي رقابة الأسطول البريطاني على السفن التي تفارق الشواطئ الأمريكية ومن عسى أن يكون فيها من التوار العاملين على خدمة الثورة ومناجزة الدولة الحاكمة ، ولا خفاء في الجزء الذي يتطرق فرنكلين لو وقع في قبضة الأسطول المتشير في عرض البحر ، فإنه لا ينجو من الشنق بتهمة الخيانة المنظمى قصاصا منه وعبرة لأمثاله ، وما كان هذا الجزء الرابض له ليخفى عليه قبل سفره ، فقد كان جون هانكوك Hancock يوقع اعلان الاستقلال ويقول والقلم في يده : « علينا يا صحاب أن تتعلق جميعا بصلة واحدة » وهي عبارة باللغة الانجليزية ترافق الكلمة العربية التي

تعبر عن هذا المعنى « بالاعتصام » بجمل واحد .. فقال فرنسكلين : نعم .  
والا تعلقنا ببعض كثيرة متفرقين !

سافر من بلاده في السبعين وهو يعلم هذا الخطر الذي يتربص به في الطريق ، ولكنه لم يصل إلى « نات » ليهدا بعض الشيء على أثر هذه الرحلة المقلقة في السفينة المضطربة حتى أحسن طوالع النجاح بعينيه ، وعلم أذ الحفاوة التي سيلقها من الأمة الفرنسية تحقق كل ما خطر على باله وبال أصحاب ، واقضى اليوم السابق لدخوله باريس دخول الفاصلين في التساؤل عن الموعد وعن الطريق والتسابق إلى أقرب الأمكنة لرؤية السفير المنتظر ، فلم يبق رجل ولا امرأة من المشتغلين بالسياسة والمطلين على أخبار الثورة الأمريكية إلا خفت إلى طريق من الطرق التي قيل أنه سيعبرها إلى مقره أو إلى البلاط ، وأقيل « الدكتور » في قبته الفرو المهمودة والكساء الساذج بصيغ المستقبلين على جانبي الطريق باتسامته الطيبة ونظرته الوديعة في غير أكثار من الآباء والحركة ، وغزا المجتمع البارسي من اللحظة الأولى ولا سيما مجتمع العلية وذوى الثقافة من أقطاب الآداب والفنون وكان العصر عصر التنافس بالأندية أو الصالونات فكانت السعيدة من عقيلات النساء من تقدّر بزيارة من « الدكتور » ومن تضمن دعوة الضيوف الكبار لمحادثته عندها حين شاء ، وساعدته الشهرة السابقة والقدرة السهلة على كسب الأنصار والأصدقاء من ذوى الجاه وال منزلة العالية بين قادة الآراء ، وعلم أن هذا النجاح الأدبي غنية لا يستهان بها كائناً ما كان موقف البلاد والدوافع الرسمية ، ولكنه كان يعلم من باطن هذا الموقف أنه يناصره ويتمني له التوفيق وانه — مع التحفظ الشديد في الظاهر — يملى له ويعيشه في البساطة ويستعمله فترة من الزمن ريثما تسنح الفرصة التي يرتقبها الساسة المسؤولون ، فيعلنون الاعتراف بالدولة الجديدة آمنين عاقبة العداء الصریح للدولة البريطانية ، فإن هذه الدولة نفسها ستعرف لا محالة بالحكومة الثورية متى يثبتت من قيمها وأكرامها على الخصوص .

ولم يأت هذا الأمل المرتقب بغير عناء وبغير شัก وبحير تردد مخيف بين الأمل الصعب في النصر والخوف القوى من الهزيمة . الا أن السفير المتأمل لم يتقطع قط عن الرجاء وعن بث الرجاء في قلوب المشائين ، ولم يتخد له السواب السريع في حالة من حالات الشك والعيرة أو حالة من حالات الهزيمة الظاهرة التي تلجم الألسنة وتبليل الأذهان . فلما قيل له يوما : ما الخبر يا دكتور ! ان هاو Howe قد أخذ فلادلفيا ... لم يلبث أن أجاب على الأثر : غفوا يا سيدى ! ان فلادلفيا هي التي أخذت هاو ..

ثم وصل الخبر المرتقب بعد عام وأهزم الجنرال برجون في ساراتوجا تلك الهزيمة المنكرة التي تقرر بعدها مكان الدولة الجديدة ، وكان وصول الخبر إلى باريس في الرابع من شهر ديسمبر ودعاوه الوزير فرجين Vergenne وزير الخارجية الفرنسية لسفير الثورة الناجحة بعد يوم واحد من وصول الخبر ، وطلب الوزير في هذه المرة فتح باب الكلام في المعاهدة فأرسل فرنكلين نصوصها إليه بعد يوم ، ولم يأت شهر فبراير حتى كانت المفاوضة كلها مفروغا منها وكانت المعاهدة معبدة للتوقيع ، فسميت معاهدة التجارة والتحالف ، واشتملت على الاعتراف باستقلال الولايات وعلى التعهد بالاتفاق على مقالة بريطانيا العظمى والاستمرار في القتال إلى أن يتفاهم الفريقان على قبول الصلح ، ولا يعقد أحدهما صلحًا مع بريطانيا على أفراد .

وأقام فرنكلين أيامه بفرنسا خلال الحرب محفوفا بالأصدقاء والمعجبين من صفوه السادة والسيدات ، وكان قصر « باسي » الذي أقام فيه قبلة القсад من الأدباء والساسة المقيمين بالعاصمة الفرنسية والوافدين إليها من الأقاليم أو الأقطار الأوربية ، وأقل من هذه الحفاوة الشاملة يشير حسد الحسد ويوجر صدور النظرة والأنداد ، ولكنك نجح هنا بمحاجه الذى لم يسعد به قط عظيم ناجح مشهور ، فكان نصيه من حسد الحسد أقل نصيب ، وكانت سقطاته التى عدوها عليه أهون السقطات .

من هذه السقطات أنه لم يحترس كما ينبغي أن يحترس من الجواسيس والعيون ، وأفقرت هنا في سجية السماحة وكراهية التضييق وأخذ الأمور كلها على هينة وميل إلى المغفرة والاعتذار ، وتفلسف بهذا التوازن كأنه يقصده ولا يقع فيه على غير علم واتساع . فكتب إلى صديقه جوليانا ريشي يقول : أتراني لو تتحقق من تجسس خادمي أستغنى عنه لهذا السبب اذا كنت راضيا عن خدماته الأخرى ؟ ولا جرم تسرب الجاسوسية إليه من هذه الثغرة ويشتبث بعد ذلك أن مساعدته المقيم معه في الدار — ادوارد بنكريوفت — كان في خدمة الحكومة البريطانية لنقل أخباره ومراسلاتة ولو لم تكن على صلة بالسياسة والفاوضات الحكومية ، ويشاء الحظ الحسن لهذا الرجل المجدود أن تكون معاذيره على الدوام راجحة على سيناته في أظهر السقطات . فكم له من مقدرة ظاهرة في هذه السقطة التي لا مراء فيها ؟ ... لقد كان من معاذيره أن الجاسوسية لم تضره ولم تضر دولته في كثير ولا قليل ، وكان من معاذيره أنه يريد أن يعرف العالم أجمع أن قضيته بينة جلية كالشمس في رائعة النهار فلا حاجة بها إلى تهية أو مداراة ، وكان من معاذيره أنه عامل نفسه كما عامل دولته في هذه السماحة التي جلوزت حدودها بغير مراء ، لأنه لم يكن يأمن على حياته ولم يكن ثمة خطر على مصالح دولته أعظم من الخطر الكبير الذي كان يتربص به حيث أقام وحيث سار أيام تلك السفاراة ، ومن الحظ الحسن ولا ريب أن تحسب للإنسان المعاذير كلما حسبت عليه أمثال تلك السقطات .

ويستوفى هذا السياسي الزعيم والسياسي المقاوض وظائف السياسة العامة بآرائه في شئون الحكم وقضايا الاجتماع ، وهي آراء لا تحبط بالسائل والقضايا احاطة المذهب الجامع للقواعد والقصول ، ولكنها تعرض علينا حلاً عملياً لكل مشكلة أو فكرة تجريبية عن كل واقعة ، ويؤلف منها الباحث مذهباً مجعلاً اذا أراد أن يعرضها معرض الترتيب والتبويب .

ولا حاجة الى القول بغلبة الفكرة الديمocrطية على كل رأى من آرائه في الحكم وفلسفة الاجتماع والسياسة ، فربما كانت الديمocrطية شعوراً عنده قبل أن تكون تفكيراً ودراسة ، وقد كان أخوه – صاحب الصحيفة التي نشر فيها كتابه الأولى – ثائراً متطرفاً وأوشك أن يعاقب بالسجن الطويل على جملة العنيفة ، وكانت السخرية بالألفاظ من أوائل الآراء التي نشرها الصبي فرنكلين باسمه المستعار بين الخامسة عشرة والعشرين ، وكان من سخراته في مسألة الألقاب أن يتخيّل أسماء التوراة مصحوبة بألقاب البلاء كاللورد آدم ، واللادي حواء ، والبارون أرميا ، والكونت حزقيال ، وكان يقول بعد نضجه وقدمه في تجربة الحياة أن الحسب الموروث لا يورث الخير ولا الانصاف ، وقد كره ازدواج المجالس التشريعية لأن المجلس الأعلى في رأيه إنما يختار لتغليب سلطان الأغنياء على المجتمع ، وهو لا يكره الثورة ولا يعارض حقوق الملكية ولكنه يكره سيادة الطبقة الغنية على سائر الطبقات ، ويؤمن كل الإيمان بوجوب حرية التجارة واطلاق القيد للمعاملات لأنها لازمة للحضارة الإنسانية لزوم حرية الفكر أو هي ألم لها في جملة أحوالها ، ولكنه على هذا الإيمان القوى يصرح المعاملة كان يرى من حق المجتمع أن يشرف على تنظيم الملكية واقتداء الثروة لأنها كلها من صنع يديه ، فليس في طاقة الفرد إذا افرد بنفسه أن يحرز ملكاً مصوناً يزيد على ضرورات المعيشة الموقوتة ، فإذا أحرز شيئاً يزيد على ذلك فانياً يحرزه بفضل المجتمع وضاربه الطبيعية أو الموضوعة ، فلا يحق له أن يذكر على المجتمع سلطان الاشراف على التنظيم والتشريع في هذه الأمور ، وإنما يشترط لذلك أن يكون كل حامل عبء من الأعباء الاجتماعية شريكاً مسحواً الرأي في شرائع التنظيم .

وليس انكاره لسيادة العلية العلية انكاراً لريادة العلية التي ترفعها إلى مكان الرعامة فضائل المقل والأخلاق ، بل هو يذهب في الاصلاح الاجتماعي مذهب كنفسيوس الذي يقول باصلاح الرؤساء وهم قدوة

طبيعة للاتباع والمرؤوسين ، وقد وقفهم هذه هي التي تخلق العرف وتفرض السواد على اتباعه وتجعلهم على حسب المحسود من عاداتهم يحدرون الغرور على العرف أشد من يحدرون دخول الجحيم حيث يلقون العقاب على الخطايا والذنوب :

وتکاد عقيدة المساواة الديمقراطية أن تكون عنده انسانية عامة لا يخصها بوطن ولا قوم ولا قبل ، فلما لاحظ أن العبيد المحررين ظلوا في حياة العرق فقراء يحترفون الحرف الوضيعة عقب على ذلك قائلاً إنه لا يعتقد أن العيب أصيل في الطبيعة أو دائم لا يتغير بتغير الأحوال ، وإنما يرجع أنه من هضم التعليم والمرانة ، وأن الزنجي ذو ملكات حسنة واستعداد كامن للفنون ، ولذلك يتحقق الموسيقى وينبرع فيها ، ولو تعلم فنا غيرها لما قصر فيه .

ومن رأيه – بل من آرائه الكثيرة – أن الرق مفسدة للمجتمع الذي يشيع فيه ، لأنه يرکن بالسادة إلى الكسل وينهى الأطفال بالكرباء والتجبر في الأسر التي تملك الرقيق ، وقد أوصى بالاعتماد على العمل المأجور وتبناً بشيوع ارتفاع الأجور في العالم بما لا يقمعها في الولايات الأمريكية بعد القاء الرقيق .

وكان من رأيه أن العمل هو معيار الثروة ، فليس الذهب والفضة معيارا ثابتا لها لأنهما سلعة تتقلب بها الأسعار كما تتقلب بسائر السلع ، وإنما تفاصي ثروة الأمة بقياس الأعمال التي تحصل عليها ، وليست هذه الأعمال وقعا على الصناعات البدنية وما إليها ، بل هي تشمل أعمال الحضارة بأجمعها ، وكلما اقتدر المجتمع على توفير تلك الأعمال كانت قدرته هذه مقياسا لقوتها .

ولهذا كان يشجع اصدار عملة الورق ويقول إنها رمز للعمل وإن الأغنياء يعارضونها لأنهم يملكون الذهب والفضة ويحبون أن يقيسوا الثروة بقياس ما يملكون .

ولا يعادى فرنكلين صناعات الترف لأنها على اعتقاده حافز للهم وسبيل الى دوران الثروة بين العاملين والمترفين ، ورب شلن يخرج من يد أحمق يذهب الى يد عاقل أحق منه باقتائه ، فيستفاد منه في الحالتين ، وأفضل من الصناعة في قياس القاعدة على العمل أن تقسم الثروة في أساسها على المحصولات الزراعية والعمال الزراعيين .

وكان ايمانه بحق الحكم يقوم على قاعدة واحدة وهي التي نسميها اليوم قاعدة تقرير المصير . فإذا تعرت الأمة من حكومة وطالبت بحكومة غيرها فلا حاجة لها الى سند غير هذا الطلب ، ومن ثم سخرته بدعوى الدولة البريطانية أنها صاحبة الحق الذي لا ينزع في حكم الولايات المتحدة ، لأن الأكثرين من أبنائها رعايا بريطانيون يتسلون الى تلك الولايات ، ولأن الدولة البريطانية توفر حماية الولايات من عدوان فرنسا المجاورة لها ، فكتب رسالته الساخرة بسان ملك بروسيا وجعل ذلك الملك يدعى مثل ذلك الحق على الجزر البريطانية لأن سكانها رعايا جرمانيون اتقنوا إليها وحكمهم فيها أمراء من البرمان ، وتولت بروسيا حمايتهم بقمع فرنسا ومحاربتها حين بعد العين !

وقد كانت مبادئه الدستورية والقانونية ترسم بسمة يستطيع القاريء أن يقدرها بغير اطلاع عليها لأنها سمة الاعتدال والسماعة واجتناب الشطط في الأحكام والبقاء المفروض والتکاليف على عوائق الناس ، فكان يذكر العقوبة التي تجاوز قدر الجريمة في الضرر أو قدرها في الفسالة وسوء الخلقة ، وكان يؤثر في الدستور كلة القيود والموازنات ، ولكنه لم يعلن مخالفته للمبادئ التي عارضها لأنه وازن بين دستور يصدر بالاجماع ودستور يؤيده فريق ويختلفه فريق ولو في سبيل التصحح والتبيح ، فرجح عنده أن الاجماع على الدستور أجدى وأثبت لدعائمه من اعلان المخالفة له في خطواته الأولى على الخصوص .

وإذا كان هذا رأيه في حسم الخلاف على الرأى فجسم الخلاف الذى يريق الدماء أحق منه بالجهد والعمل ، لأنه كان يسمى العرب لصوصية

وغلبة ، وهكذا كان برنامج الداخلي في سياسة الولايات ، وعلى هذا البرنامج استقامت أعماله في كل سياسة داخلية أو خارجية ترتبط بالأمم الأخرى ، ومن عجائب دقته في تقدير الأمور بأحوالها وأزمانها أنه تنبأ عن عصبة الأمم وأن العالم ربما شهد بعد مائة وخمسين أو مائتي سنة هيئة يجتمع فيها المتذوبون عن دول أوربة جميعا لفض المشكلات وتوطيد السلام ، وكان باينز Baynes ، ورومنلي Romilly في شبابهما قد زاراه سنة ١٧٨٣ وتحدثوا في مساوىء الحرب العالمية فقال فرنكلين أنه يظن أن اقتحام الملك بارسال مندوبيهم إلى مكان واحد لا يزال عسيرا ، وانهم مع الصبر قد يتقد بعضهم على منع العدوان ويرى الآخرون قمع هذا الاتفاق فينضوون إلى الهيئة شيئا فشيئا ولا يبعد أن تضمهم الهيئة الواحدة أجمعين بعد مائة وخمسين سنة أو مائتين<sup>(١)</sup> .

وله غير هذه الآراء في مذاهب السياسة والاجتماع خطارات متفرقة بين الرسائل والأحاديث . أما أكثرها فقد ورد مشروها أو مقتضاها في رسالته عن العملة الورقية ورسالته عن زيادة السكان وتعمر البلاد : *Observations Concerning the Increase of Mankind and the Peopling of Countries.*

ومساحتها الفالية عليها هذه النظرية العملية التي تتقبل التطبيق والتنفيذ في حينها أو بعد حين ، اللهم إلا خاطرة واحدة أو شرارة أشعلت أن تسلكه في عداد الطوبين الأفلاطونيين ، وتلك هي استثناؤه عن الأحزاب السياسية بتأليف حزب واحد من الشبان العزاب يسميه حزب القضية ويديرهم على نظام خاص يشبه نظام الماسونيين واليسوعيين ، ويرجو منهم لغير المجتمع ما لا يرجي من سائر الأحزاب .

والأدلة التامة في الوظائف السياسية إنما هي أداته في أعمال التنفيذ والتطبيق ، وهي التي تعرف الآن باسم الوظائف الديوانية ويفرق المعاصرون بينها وبين السياسة فيسمونها بالادارة Statesmanship أو بولاية

(١) الجزء الأول من كتاب علماء أميريكا المشاهير لمؤلفه كروث .

الحكم Administration ولا يسترونها من وظائف السياسة في الصناع  
 فهي على الأقل شئ غير الدبلوماسية ، وغير البوليطيقا ، وغير عمل  
 السفير وعمل الوزير وعمل الزعيم المطالب بقيادة الجماهير .

وحيثما كان هنالك تدبير للتنفيذ العملي فصاحبنا في عنصره على  
 تغيير الغربيين ، أو في مجاله ومعداته كما تقول نحن الشرقيين .

وليكن ذلك التدبير من صناعته أو غير صناعته ، ومن مأموراته قبل  
 ذلك أو غير مأموراته ، فما دام في وسعه أن يعرف ما هو العمل المطلوب  
 ففي وسعه أن يعرف ما هي وسائل التنفيذ وأن يدبر هذه الوسائل أصلح  
 تدبير .

والادارة خطة وتنفيذ ، وليس أطبع من ذهنه على وضع الخطط  
 وترتيب الأعمال ، ثم على تنفيذها بالأدوات اللازمة لها بغیر اسراف  
 وبغیر اهمال .

وأكثر ما يصاب المديرون بالفشل من عجزهم عن الاتقان بأدوات  
 التنفيذ حين تكون هذه الأدوات من الآدميين !

فليس أكثر من المديرين الذين يستخدمون الوسائل الآلية ويحاولون  
 أن يعاملوا المشتغلين معهم من الآدميين معاملة الآلات .

ولكن فرنكلين كان يحفظ هذه الأدوات الحية جيدا ويرى كيف  
 يسلك معها وكيف يسلك بها في طريقه ، ولهذا كان يفلح في كل ادارة  
 تحتاج إلى التنفيذ بالأدوات الآدمية ، ولو لم تكن من صناعته ولا من  
 سوابق عمله كادارة معارك القتال .

أراد الجنرال برادوك Braddock قبل كارته الحربية في مونتجهيلا  
 Monongahela أن ينقل معداته في مائة وخمسين مركبة وظن أن المسألة  
 كلها مسألة أمر للفلاحين وسوق للمركبات بالخيل ، وعندما الأمر وعند  
 من يسوق . فلم يحصل بعد الجهد البجهيد على أكثر من خمس وعشرين

مركبة ، وفرغ الى فرنكلين فحصل له على المركبات المطلوبة كلها بخيولها قبل اقتساء أسبوعين .

وتحدث الجنرال وفرنكلين في « الخطة » الحرية فحضره فرنكلين من مفاجآت الكمامي وتبه الى قلة جدوى الخطط النظامية في ابقاء هذه المفاجآت مع امتداد خط القتال ، فسخر منه الجنرال وقال له ان هذا الحذر ضروري لكتائب التي تعودونها من الجنود المرابطة « ولكن هؤلاء المحج لا ضير منهم على جنود الملك المنظمين » .

ووقعت الكارثة فبادت الفرق التي كان يقودها وقتل ثلاثة وستون خابطا من تسعه وثمانين ، وأدرك فرنكلين الخطر الداهم فجند من السكان نحو مائة للدفاع عن الجنود واقامة الملاجئ وأصاب في القيادة حيث أخطأ القائد المغرور ، ولم يغفل عن عمل لازم في أشد أيام الشتاء وقد ناهز الخمسين ، وكان الجنود والسكان يسمونه الجنرال فرنكلين ، ثم أبى جنوده بعد عودته الى فلاديفيا أن يفارقوه حتى يؤدوا له التحية عند منزله ، وصحبوا ، كما قال في ترجمته ، الى الباب ثم أعلنوا تحبّهم بالطلقات النارية في الهواء .. فهزت الدار وحطمت أجهزة الكهرباء وهي من زجاج !

وإذا كان مقام الكلام عن الخبرة باستخدام الأدوات حين تكون هذه الأدوات من الأدمين — فليس ما ينسى في هذه الحملة نفسها مشورته على الوعاظ الذي شكا اليه أعراض الجنود عن حضور الصلاة والاجتماع للدعاء ، وكان من جرأة الجنود أقداح من شراب الروم للتدافئة في الشتاء القارس ، فلما سمع شكوى الوعاظ المكروب وأشار علىه من خوفه للهزيمة بعد هذا الاعراض — تبسم مطمئنا للوعاظ الخائف وقال له : لا عليك من اعراضهم . خذ على عاتقك توزيع جرأة الشراب ولا توزعها الا بعد أداء الصلاة ... فلم يتختلف بعدها جندي واحد عن موعد الصلاة !

وهذه الخبرة بالادارة في الشئون التي لم يتدرب عليها تغنى عن الافاضة في دقائق التنظيمات التي كان يتبعها باجتهاده كلما ادار عملاء من الاعمال التي يتصدى لها أمثاله ولا تستغرب من مدير مطبعة أو مدير صحفة . لأنها جميعاً أعمال من نمط واحد ، ومنها تنظيم البريد وتنظيم الاضاءة في المدينة وتنظيم فرق المطافئ وتنظيم مكاتب الهيئات النيابية والهيئات العلمية التي أسمم في أعمالها ، فكل أداة لازمة لهذه التنظيمات فهي على متناول اليد من تفكيره وسجايده : فهم صحيح ، وتقسيم متقن ، وتنفيذ مرتب ، وخبرة باستخدام الأدوات الحية والأدوات الصناعية على الماء .

« سياسي بالطبع » اذا صح هذا التعبير . والسياسي بالطبع يصنع السياسة على يديه ويصنع لكل ساعة سياستها التي تعلوها الصوادث عليه .

ولا يختتم الكلام عن فرنكلين السياسي قبل أن يقال ان بلاده قد أصبحت أمة متحدة بفكرة جريئة واسعة هي فكرة الاتحاد ، وقد كان فرنكلين صاحب الدعوة الأولى الى هذا الاتحاد .

## الفيلسوف

كان دافيد هيوم يسمى فرنكلين الفيلسوف الأول ، ويشفع ذلك أحياناً بقوله عنه انه أول فيلسوف وجه أنظار القارة الأمريكية الى عالم الفكر في الديار الأمريكية .

وكانت الأندية الأدبية في باريس تسميه الفيلسوف أو الدكتور ولا تردهه بالاسم فيفهم السامع أنهم يعنون فرنكلين .

وكانت كلمة « الفيلسوف » كالاسم الغائب عليه بعد عودته الى بلاده في أخريات أيامه .

ولم يكن ملقبوه بهذا اللقب مخطئين من وجهاً العرف ولا من الوجهة العلمية في عصره . فقد كان فرنكلين فيلسوفاً بكل معانٍ الكلمة الا هذا المعنى الحديث الذي غلب على الفلسفة بعد عصره وبعد شيوخ الترقة بين المعرف الإنسانية ثم شيوخ التخصص في كل معرفة منها . وغريد به الفلسفة التي غلت على بحوث « ما بعد الطبيعة » وقضايا المطلق النظري وكانت تحصر فيها . وهذا هو مجال الفلسفة الذي لم يكن فيه فرنكلين من زمرة الفلاسفة ، ولم يرد أن يكون منها ، ولا نفاله كان مستطيناً أن يكونه لو أراد . لأنَّه مجال لا تألفه طبيعته ولا يأنسُه تفكيره ولا يرجي منه أن يأتي فيه بما يفيد .

كان فرنكلين فيلسوفاً بمعنى الكلمة القديم ، وهو محبة الحكمة ورياضة النفس على اتباعها في أحوال الحياة اليومية ، ولعله عرف هذه الفلسفة عملاً قبل أن يمر بها علماً واطلاعاً . لأنَّه نشأ في بيته المتظرين وعرف بالقصدوة والبداهة أن الأخلاق المثلث نظام من نظم الحياة الدينية .

وكان فرنكلين فيلسوفاً بمعنى يوافق معنى الكلمة الحديث ، وهو

استخراج العلل والنظريات الفكرية لكل مبحث من مباحث العلم والاختراع التي اشتعل بها منذ شبابه ، فكان يقدر الرأى والعملة ثم يبني عليهما الاختراع ، أو كان يختبر ما يقترح ثم يعم الرأى والعملة على المشابهات من الظواهر الطبيعية ، ولو لا هذه الفلسفة العلمية لما جمع بين البرق والشرارة الزجاجية في نظرية واحدة .

وكان فيلسوفاً يُعنى الكلمة الذي شاع في كل زمان وجعل الفلسفة ضرباً من التصوف العقلي يوحى إلى صاحبه التشفّف والزهد في المظاهر الفارغة التي يفتّن بها التكالبون على الحياة ، ولم يكن فرنكلين متنقلاً أو زاهداً في دنياه ، ولكنه كان يتطلّب الشيء لمعناه لا لظاهره ، ولأنه هو يستثنّه لأن الناس يستغوه بالمحاكاة والتقليد .

أما الفلسفة التي تستغرق صاحبها فيما وراء الطبيعة وفي الجدل حول مباحثها فلم تكن من فلسفات فرنكلين ، لأنّه كان ينفر من النظريات التي لا يحسها ولا يدركها ، وكان ينفر من الجدل كما قال في مذكراته ، وإن كانت مطالعاته لسريرات قد أكسته قدرة عظيمة في فنون الحوار ، وكادت أن تتحف به إلى شقاشق الجدل في بوأكير حياته الفكرية .

وقد اطلع فرنكلين على كتب الفلسفة التي وصلت الى يديه في بوستون وفلافلينا ، وقرأ منها كتاب كولنز Collins محاضرة في التفكير الحر Discourse of Free thinking وكتاب شافتسبرى Shafesbury بحث في الفضائل أو الحمارة Inquiry Concerning Virtue of Merit وكتاب درهام Derham في اللاهوت الطبيعي Physico-Theology<sup>(١)</sup> وغيرها من الكتب التي من قبيلها ، واطلع على أطراف من مذاهب الفلسفة الاغريقية ولا سيما مذهب أفلاطون ومذهب فيثاغوراس ، واطلع على كتب الجدل الديني التي وجدها عند أبيه فخلص منها جميعا الى عقيدة كعقيقة أمر العلاء في التفرقة بين الظن والعقل اذ يقول :

كتب الظن لا امام سوى العق  
يل مقاما في صبحه والمساء

وارتاي أن قبول العقل للعقيدة هو السند الوحيد الذي يكتسبها حق الایمان بها ، وأنه لا حق للاعتقاد حيث يكون العقل بلا عمل وينبغي مشاركة فيه .

ودان زمانا بمذهب النباتيين ، ثم مال من مذهب النباتيين الى بقية مذهبهم في وصايا فيثاغوراس المعروفة ، ومنها تناسخ الأرواح وتسلسل الأدوار ... وراقه أن يشبه الأدوار المتلاحقة بعمل من أعمال الطباعة التي كان يزاولها ، فقال إن الإنسان طبعات متعددة تظهر تباعاً في كل جيل من الأجيال الأبدية بعد التصحح والتتحقق<sup>(١)</sup> وأنه يرجو أن تظهر منه طبعة مصححة منقحة بعد موته ، ويود أن يذكر ما كان حيث يكون في مستقبل الأجيال !

وابتدأ في الثانية والعشرين من عمره بعقيدة في الدين لم تزل تترى معه إلى أن جاوز الثمانين ، ولشخص هذه العقيدة في رسالة من جزئين سعاهما أصول العقيدة وشعائر الديانة *Articles of Belief and Acts of Religion* لم يوجد منها غير جزء واحد هو الذي ترجم منه ما يلى تقلا عن كتاب أقطاب الأدب الأمريكي الذي سبقت الاشارة اليه ، وهذا بعض ما جاء فيها :

« وانى لأرتقى بخيالى وراء نظم السيارات ، ووراء الشموس الثوابت ، وأسبح في هذا القضاء الذى لا نهاية له وهذه الشموس التى يدور حول كل منها أسراب من السيارات كسياراتنا الأرضية الى غير نهاية ، فتلوح لي هذه الكرة الصغيرة التى نعيش عليها كأنها العدم حتى في خيالى الكليل ، وأرى نفسى الى جانبها أقل من العدم فأحسن أنتى شيئاً ضئيلاً لا شأن له ولا خطير ، وأحسن كذلك أنه من الفرور البالغ أن آتوهم أن ذلك الخالق الكامل يحصل بهذا (اللاشى) الذى يسمى

(١) كتاب مشاهير رجال العلم في أمريكا تأليف كروفورد  
Famous American Men of Science.

الإنسان ، وله تحق له من الإنسان العبادة ، ولكنه هو جل وعلا فوق ذلك بما لا تحصره العقول .

غير أن الناس جميعا ينطون على شعور طبيعي يميل بهم إلى القداسة أو إلى التبعد لقوة عظيمة وراء الأ بصار ، وقد وهب القلب للإنسان بين الأحياء فارتفع به فوق سائر الحيوان الذي نعرفه في دنيانا ، ومن ثم يبدو لي أني مطالب بالواجب على — كأنسان — أذ أتوجه بالصلة والتعظيم إلى ذلك الكائن العظيم .

« وأدرك على هذا أن الإله الصمد قد خلق أريابا لا عداد لها تعلو على الإنسان علوا كبيرا وتفهم من أسباب كماله ما لا يفهم ، وتعيد إليه الثناء والجزاء على النحو المعمول .

« كما أنه بين الناس لا يالي المصور القدير ما يلقاه من ثناء الجمال والأطفال مبالاته بثناء العارفين وذوى الدراسة بالتصوير — كذلك الأرباب التي يخلقها الإله الأعظم قد تبقى ولا تهنى ، وقد ترتفع من مقام إلى مقام ، ويختصر لي أن كل رب منها له الحظ الأوفر من الحكمة والقدرة ، وأن كل منها جعل له منظومة شمية تدور عليها أسراب من السيارات ، وإلى هذا رب الذي أبدع منظومتنا أتجه بالثناء والتقدير . لأنه خليق أن يستعمل على شيء من الطبائع التي أودعنا إياها ، ولأنه منحنا العقل الذي تدرك به حكمته في خلقه فهو لا يزهد في ثناء عباده ولا يرضى عن الجهل بفضله والاستهانة بمجدده .

« وأفهم لأسباب كثيرة أنه صالح ، ويسعدني أن أظفر بالولد من كائن على هذه الصفة من الحكمة والخير والصلاح ، فعلى» أذن أن أنظر فيما يرضيه وأبحث عما يولياني منه العون والرعاية .

« وأفهم أنه يرضي عن اسعد خالقه كما يرضي عن الاقرار بفضله والتوجه بالدعاء اليه ، ولا سعادة في الحياة بغير فضيلة ، فبما يرضيه أذن أن أتحلى بالفضيلة فيسعد بمخلوقه السعيد .

« ولما كان قد خلق في هذه الدنيا كثيراً من الأشياء التي لا غرض لها فيما يبدو منها غير اسعاد الناس ، فاني لأؤمن أنه لن ينضب على أبنائه الذين ينعمون بتلك الأشياء ويعمدون أنفسهم بالرياضات الحسنة والسرات البريئة ، وأنه لن يكون من المسرات البريئة ما فيه ضرر لانسان.

« انتي أحبه اذن لصلاحه ، وأعبده اذن لحكمته ، وعلى " إلا أغلل عن حمد هذا الرب لأنّه حقه الذي لا أملك جزء له غيره ، وعلى أن أصحح العزم على التخلص بالفضيلة واغتنام السعادة لأرضيه بما فيه رضى » .

هذه العقيدة الساذجة مستمدّة على ما يظهر من فلسفة أفلاطون الذي كان يفترض وجود الأرباب الصغار للتوسط بين الله الكون والانسان وتعليق ما يحدث في العالم من الشر والأذى ، وقد أعجبت فرنكلين في سذاجة الشباب فدان بها واصطبغها في أطوار حياته بعد لها ويكملاها ، ويرضىها على مقاييسه العلمية كلما تقدم فيها خطوة من الزمن والخبرة ، فآمن بخلود الروح وحسابها بعد الموت لأنّه قاسها على خلق المادة فرأى أن الأرواح أحق بالصيانة والبقاء من المصنوعات المادية ، وأن الله علمنا من حكمته أنه قادر على خلق مادة جديدة لكل جسم وكل شيء ولكنه يتوجب الشتان والبعثة ولا يصنع شيئاً ليزيده ويفنيه ، فليس من حكمة القصد في الخلق أن توجد الأرواح لتؤول إلى الزوال والفناء .

وقد بقى معه من هذه العقيدة إيمانه بالله وبالروح وبالحساب وكتب خلاصة عقيدته إلى عزرا ستايل في الرابع والعشرين من شهر مارس سنة ١٧٩٠ أي قبل وفاته بأيام ، فقال :

« هذه عقidi :

« أؤمن بالله واحد خالق للكون كله ، وأؤمن بأنه يديره بحكمته ، وأنه حقيق بالعبادة ولا شيء أرضي له من صنع الخير لخليوقاته الأخرى .  
« وأؤمن بخلود الروح ، وأن الإنسان يحاسب بالعدل بعد موته على

ما صنع في هذه الدنيا . وهذه عندي هي أصول الإيمان في الدين الصحيح وهي في موضع الإجلال عندي حيث وجدتها في كل نحلة وملة .

« أما عيسى الناصري الذي يهمك أمر الاعتقاد به خاصة فاعتقدت فيه أن وصاياه الأخلاقية وديانته كما تركها لا خير ما شهدته الدنيا أو عساها تشهد ، ولكنني أرى أنها تضررت لختلف التغييرات والتعريفات ، وأناك في الأهيته كما يشك معظم المخالفين الآن في انجلترا وإن كنت لا أقر في ذلك عقيدة محتومة لأنني لم أدرس المسألة ولم أر ضرورة لهذا الدرس وأنا مقبل على الحقيقة أعرفها بأهون من هذا العناء . ولست أرى ضررا في اعتقاد من يعتقدوا إذا كان لها كما هو الراجح آثر في زيادة الاحترام لوصاياته وزيادة العمل بها ، وبخاصة حين أنظر فلا أرى أن العلى الأعلى يناسب لها ويميز بين من يعتقدونها ومن لا يعتقدونها في سياساته لكونه أقل تسيير . وأضيف إلى هذا فيما يخصني أنت — بعد ما اختبرته من كرم الله خلال حياتي هذه — لا يظمنني الشك أنه سيتولانى بمثله في الحياة الآتية ، وإن لم أكن أهلا له بعمل .. » (١) .

هذه الفلسفة الدينية ، أو هذه الديانة الفلسفية ، وافقت فرنكلين فثبتت على أصولها من الثانية والعشرين إلى الرابعة والستين ، وحرى أن توافقه كل المواقف وأن يطعن إليها غاية ما يتاح له الاطمئنان في هذه الفوائض والتشابهات . لأنها فلسفة ثبتت من عقله وسليقته وأوشكت أن تثبت من كيان أعمق فيه من العقل والمسلية . فإن هذا الكيان المترن قد تمثل في بداعه حيوية عنده توحى إليه بخطبة القصد في جميع الأمور . فهنا فرنكلين العالم الذي يعقل بداعه أن الطبيعة تأخذ بسنة « الجهد الأقل » The Least Action فلا تحيد المادة عن القريب وتتخطاه إلى بعيد ولا تدع الطاقة موضعا لا مقاومة فيه لتمضي إلى موضع تجد فيه المقاومة

(١) من كتاب الكتابات الترجمية جمع واختيار كارل فان دورن .  
Benjamin Franklin Autobiographical Writings

وتتشر فيه بالعوارض والموانع ، وهذا فرنكلين العادي ، الرصين الذى لا يكلف نفسه ولا يكلف أحدا في عمل من الأعمال فوق حقه من العناء وشغاف البال ، وهذا فرنكلين الفيلسوف المؤمن الذى يبنى على هذه السنة — سنة القصد — حكمة القصد الالهى التي لا تخلق الأرواح لترثيلها وتفتيتها ولا تخلقها عبثا ليتساوى عندها بقاؤها وفناها بعد ظهورها في عالم الحياة . ومن عجائب النسخ البشرية أن المطوعين على التحكم الذين يتمكرون على كل غلو في التفكير والاحساس هم أقرب الناس إلى الواقع في هذا الغلو الذي يعرضهم للتحكم من آناس دونهم في الذكاء وأصلة التفكير ، ولو لا ذلك لما غلا فرنكلين في عقيدة « الجهد الأقل » حتى طبقها على الموازنة بين الدراسة والمشاهدة بغير عناء ، ففي خطابه المتقدم يقول انه لم يجشم نفسه مشقة الدراسة في تحقيق طبيعة السيد المسيح لأنه اذا كان سيرى الحقيقة عيانا في العالم الآخر فالرؤية أيسر عليه من الدراسة !

وكفى بهذا حجة لمن ينفع عن فرنكلين شبه المغالطة في العقيدة التي استقر عليها ، فإن المرء ليغالط في كل شيء الا في الطبع الذي يتصل منه وراء الوعي والمشينة .

ويديهي أن عقيدة فرنكلين هذه لم تكن عقيدة الأكثرين من الخاصة وال العامة بين قومه وغير قومه ، وأنه ليعلم ذلك ولا يخطر له أن يزعج ضمائر الناس بالعدل والتقايش ليقنעם بصواب رأيه ، وليس سكرته لهذا جب للسلامة أو مراءة لمخالفته ، بل هو الصواب في رأيه حين تمنيه السلامة وحين لا تمنيه ، وقد كان ينصح به آناسا لم يكن لهم عنده حق الصدقة والنصيحة ، ومنهم من تحول عن صداقته وجافاه بعض المجاداة كما حدث في العلاقة بينه وبين الكاتب المفكر الكبير توماس بين Paine فإنه قرأ كتابه المخطوط الذى سماه عمر العقل وأرسله إليه لاستطلاع رأيه ، فكتب إليه في الثالث من شهر يوليو سنة ١٧٨٦ يقول : « ان الحجج التى اعتمدت عليها فى انتقاد الحكمـة الخاتمة — وان لم تذكر

الحركة الإلهية العامة — لتضرب المغول في أساس كل دين . اذلا باعث  
 للعبادة والخوف من الجزاء أو التوسل بطلب الوقاية اذا زال الإيمان بالله  
 يحرس ويهدى ويخص بالرضا عن بعض الناس ، ولست أريد أن أناقشك  
 في تلك الحجج وإن كنت أحسب أنك تطلب هذه المناقشة ، وحسبي  
 في الوقت الحاضر أن أقول لك أن حججك قد تبلغ من المهارة أن تخون  
 طائفة من القراء ، ولكنك لن تخلع في تغيير الاجماع الانساني على الشعور  
 المتلق في هذه الأمور ، وكل ما تجنيه من نشر هذه الرسالة أن تجلب  
 على نفسك الكراهية ، وأن يصيبك الضرر بفعلك ولا يتぬ به أحد .  
 وأعلم أن من يصدق في وجه الربيع فاما يصدق على وجهه . وهب أنك قد  
 نجحت فيما قصدت اليه فهل تخلع في ذلك تماماً كائناً ما كاذباً ؟ .. إنك قد  
 يسهل عليك أن تعيش عيشة فاضلة بغير معاونة الدين ، وأن يكون فهمك  
 الجلي لمحاسن الفضيلة ومساويه الرذيلة مع قوة عزيمتك كفيلاً بتمكنك  
 من مقاومة الأغراء والقواية . ولكنك قمين أن تعلم كم من ذوى الجهة  
 والضعف بين الرجال والنساء وكم من الأغوار والطائشين بين الناشئين  
 تتعمقهم بواعث الدين في اجتناب الرذيلة والثبات على الفضيلة والصبر  
 على هذا الثبات حتى يصبح في حكم العادة التي تهم جداً في صيانتها  
 ومناعتتها ، ولعلك أنت نفسك مدین بتربيتك الدينية لهذه العادات التي  
 ترافقك بحق في نظر نفسك . وإنك ل تستطيع أن تستخدم ملكاتك البارعة  
 وقدرتك على الاستدلال في علاج موضوع دون هذا الموضوع في مزاولة  
 الخطر فتحتل مكانك بين المؤلفين النابهين منا ، اذ ليس من اللازم بينما  
 — كما هو لازم بين آكلى البشر من الهوتنوت — أن يبرهن الشاب  
 على بلوغه مبلغ الرجال واستحقاقه للحساب منهم باقدامه على ضرب  
 أنه .. » (١) .

ومن الواجب في مقام التعريف بحقائق النفس الإنسانية أن تفرق  
 بين هذا الخلق وبين خلق الرياء الضعيف أو الكذب المذول ، فليس

أبعد من الفارق بين الرياء الذي يخدم به المرء نفسه ولا يبالى منفعة الناس والإيمان بالصواب الذي ينفعهم ويحق له أن يحرض عليه . ولم يعرف عن فرنكلين قط أنه كان يرائي أحدا في عقيدة من عقائده التي يحفظها لنفسه ولا يرى من الواجب عليه أن يعلنها لغيره ، فاذا سأله سائل ذو مكانة عنه ولم يكن من الأدب في رأيه أن يهمله ويسكت عن جوابه صارحه بما يعتقد وأبلغه عقيدته على حقيقتها ، ولو أنه كان يستبيح الرياء مع أحد لاستباحه مع أبوه وهو العريض على ارضاه الناس عامة خضلا عن حرمه على مرضاته الوالدين . فقد أبلغه أبوه أن أمه تشكو إليه أن ولدا لها يدين بمذهب الآرين وأن آخاه يدين بمذهب الكنيسة الشرقية ، وكان فرنكلين يومئذ في الثانية والثلاثين فأجاب أبيه ولم يكتم معتقده ، بل قال له ولأمها بأسلوب صراح : « ما هو الآري وما هو تابع الكنيسة الشرقية ؟ لا أستطيع أن أقول إننى أعرف الفرق بينهما حق المعرفة ، والواقع أتفى قليلا ما أشغل عقلى بالبحث في هذه الفروق والخلافات ، وأرى أن الدين الصحيح يبنى بالغسار كلما غلت المراسم على الفضيلة ، وأن الكتب المقدسة تؤكد لي أننا نحاسب في اليوم الآخر على ما عملنا لا على تفكيرنا في المذهب ، ولن تكون شفاعتنا أننا طهقنا نصيبح : يا رب يا رب ! بل يشفع لنا ما صنعته من الخير لخلائق الله » <sup>(١)</sup> .

بمذهب فرنكلين في كتمان عقیدته أشبه شيء بمذهب الجلة من الحكماء الأقدمين الذين كانوا ينصحون بكتمان الحقائق الغامضة عن لا يدركونها ، ولم تمنعه مخالفة السواد أن يحبب اليهم التدين والاجتماع لسماع العظات وأداء المرائض التي يعتقدونها ، وساهم زمانه أن يرى سواد الناس معرضين عن الصلاة لأنهم رأى منهم يواذر الإباحة والتهاافت على المنكرات فشرع في تنقيح كتب الصلوات ومذكرة المصلحين من رجال الدين حتى أن يهتدوا إلى أسلوب من أساليب الارشاد أجدى في اقتناع

Franklin. His contribution to the American tradition by Bernard Cohen (١)

شعبهم من أساليبهم العتيبة التي درجوا عليها ، وسوى بين الملل والأديان في وجوب الاحترام فساعد أنساً من غير المسلمين على احياء شعائرهم في جواره ، وقال انه لو علم أن الفتى الأعظم بالقسطنطينية يوفد الى الديار الأمريكية رسولاً من دعاة الاسلام لتلقاه بالترحاب <sup>(١)</sup> .

ومن تناقض هذه الشخصية البسيطة أنها تطرد في آرائها وخلافتها ، فما بدا منها دليلاً على ما استر ، ومن عرف رأياً لها في مسألة خطيرة أوشك أن يعرف سائر آرائها في المسائل الأخرى ، وهذه الفلسفة الدينية التي آمن بها فرنكلين تغيبنا عن الاسهام في تفصيل فلسفته الأخلاقية ، بل ربما كان الأصح أن تقول إن فلسفته الدينية قائمة على قواعده الأخلاقية ، لأنها يقييم الفضيلة على قواعده المصلحة العليا : مصلحة الفرد ومصلحة النوع بأسره ، فهي مطلوبة لأنها صالحة باقية ، والرذيلة مكرورة لأنها فاسدة زائدة ، ومن وازن بين مرات الفضيلة وألامها خرج من الموزنة بايثارها على الرذيلة ، لأن آلام الرذيلة أكثر من مراتها ، وكثير من مراتها زائف مدخول يعني الضرر على صاحبه أو على غيره ، خلافاً لمرات الفضيلة التي تصح في جوهرها ولا يخشى منها الضرر على أحد .

ولم يكن فرنكلين مثالياً حتماً في رأي من آرائه ، ولكنه لم يكن كذلك من الاباحين المستهرين بالمبادئ « والقيم الأدبية » ، بل كانت له خطة يروض نفسه على اتباعها ويحاسب نفسه على التقصير فيها ، وقد يبلغ بهذه الخطة مرتبة الاعتدال ولم يبلغ بها مرتبة العصمة بطبيعة الحال ، فهي في شئون الآدميين ضرب من الحال .

كان خاطئاً ولم يكن اباً حياً ، وكان من خطایاه ما عرفه الناس بغير اختياره ومنها ما عرفوه من كلامه . اذ اعترف باقياده للشهوات في شبابه وعاب على نفسه أنه أهداه لهذه الشهوات حتى اندفع إلى عشرة بعض

(١) كتاب برنارد المتقدم ذكره .

النساء من لا أخلاق لهن ولا كرامة ، وجملة ما يفهم من وصاياته ومن معاذيره في شئون الأخلاق الاجتماعية انه يحارب الفساد ويحسب منه زراء المجتمع في التمييز بين المتسدين ، فإنه يأخذ المرأة بالذنب ويعفى شريكها منه ، وقد ينسى الحقائق في سبيل المراسم والتقاليد ، وعليه اللوم اذا فسد من بنية وبناته من هو مستعد للصلاح ومن هو صالح لأن يكون عضوا من اعضاء المجتمع كالعضو السليم في البنية الحية .

وقد نشر — وهو في العادية والأربعين — نبذة في مجلة الجنتلمن عن امرأة سبقت الى ماحة القضاء ليعاقبها على الولادة بغير زواج ، وزرها في سوء العظ أكبر من وزرها في سوء النية كما يؤخذ من كلامها الذي القاه فرنكلين على لسانها ، وهذه فقرات منه بعد مقدمته القصيرة :

« كل ما أرجوه في ضعة وانكسار أن تشفعوا لي لدى المحاكم أذ يعفيني من الغرامة التي تحكمون بها على ». فهذه خامس مرة — أيها القضاة الأجلاء — أساق فيها أمامكم لتهمة واحدة . وقد عوقبت مرتين لأنني عجزت في المرتين عن سداد الغرامة المقررة . وربما كان هذا موافقاً لحكم القانون فلا أناقض فيه ، ولكن القوانين أحياناً تخطئ ، فيتقرر الفتاوى من أجل ذلك ، وغيرها يجثم ثقيلاً على كواهل الرعية في بعض الأمور فيجعل من حق السلطان أن يرفع أحكامها أو يخففها .

« فاسمحوا لي أن أقول إن هذا القانون الذي أدان به مناقض للعقل في ذاته وقاس بالنسبة إلى خاصة من جهة أخرى — أنا التي قضيت ما قضيت من حياتي في جيرتي غير عادلة ولا باغية على أحد ، وأنحدري عدائي — إن كان لي عداة — أن يذكروا اسم رجل أو امرأة أو طفل أساءت إلى أحد منهم ، فإذا تركنا قضاء هذا القانون جانبًا فلست أفهم ما هي الجنائية التي أعقّب عليها .

« لقد ولدت خمسة أولاد أصحاء مخاطرة بحياتي ، وقد ربيتهم بجهدي وكسبى دون أن أ承ّل على المدينة بمنحة أو معاونة ، وكانت خليقة أن

أحسن ترسيهم فوق ما أحسنت لو لم تؤخذ مني تلك الغرامات الثقيلة  
التي فرضت علىّ . أفيحسب من الاجرام في طبائع الأشياء أن أزيد عدد  
السكان في وطن لا يزال في حاجة اليهم ؟ أخال أتنى أحمد على هذا  
ولا ألام ، وما حدث مني أتنى أغverts زوج امرأة أو أغverts أحدا  
من الفتياـن ، وما عوقبت قط على جريمة من هذا القبيل ولا اقترفت  
ما يشكوه أحد قط اللهم الا أن يكون مكتب العقود قد خسر الرسوم  
التي يتلقاها على الزواج .

«على أنتي أسأل : هل يحسب هذا من خطئي وقصيري ؟ أنتي الجا  
إلى عد التكتم وقد تقضيتم فقلتم أنتي مالكة لقوابي العقلية ولا تعوزني  
سلامة الفكر والأدراك ، وأنتي لا تكونين على غایة من الغباء لو رفضت  
الزواج وأكثرت الحالة التي أنا عليها الآن على الحياة الزوجية ، وقد كنت  
ولا أزال راغبة في تلك الحياة ولا أشك في صلاحى لها وحسن قيامى  
بمطاليها ، اذ كنت على نصيب من النشاط والقصد ولست بالعقبية  
ولا بالقاصرة في تدبیر شؤون الدار ، وأعود فأتحدى كائنا من كان أن  
يزعم أنتي رفضت طلبا للزواج . بل حلت على هيچش ذلك أنتي قبلت  
الطلب الوحيد الذي تقدم به أول خطاب لي وأنا بعد عذراء ، ووافقت به  
وباختلاصه فبعث بى وهرجنى وفي جوفى جين .

«وأرجو أن تعلموا جميعاً أن هذا الخطاب قد أصبح فاضياً في هذا الأقلين»، ولكنكم وددت لو كان جالساً اليوم بينكم على منصة القضاء عسى أن يوصيكم بالرفق في توقيع الجزاء على»، وكانت أذن لا أبابلي لأن ذكر ما ذكرت من أمره، ولكننى أقول الآن مضطراً أنه ليس بالعدل ولا بالمساواة في الجزاء، وأنه ليس من الانصاف أن يكون المسئء إلى المتخللى عنى والسبب الذى أوقعني فى كل جريمة — آمنا مترياً إلى مناصب الشرف في الدولة التي تدربتى بوصمة العار والمسنة».

« ولقد يقال لي إن الخطية خطيئة الدين إن لم يكن لهيئة التشريع

حكم فيها . فان تكون خطيئة دين قد عرها اذن لرب الدين ، وقد حظرتم على « ان أدخل كنيستكم . فما بالكم لا تقنعون بهذا العرمان .. »

هذه فقرات من مقاله الذى نشره في صحيفة الجتلمان ( عدد ابريل سنة ١٧٤٧ ) وسماه دفاع مز بولى بيكر ، وأراد أن يعرض فيه مظلمة من مظالم المجتمع تلام عليها المجتمعات قبل ملامة الأفراد ، وأذ يقدم الاهتمام بالحقائق ودواعى القطرة على الاهتمام بالمراسيم والتقاليد ، ومن كان يحاسب نفسه بسجل يومي مكتوب عما زاد أو نقص من الفضائل المطلوبة لا يظن به أن يبيع الجماح والانطلاق من نظام الحياة الاجتماعية ، وإنما هو عارف بالمعاذير حيث ينبغي أن تعرف ، وعارف بمواطن اللوم على المجتمع حيث ينبغي أن يلام .

كان خاطئاً يقع في الخطية ولكنه لا يبيحها ولا يمكى نفسه من الملامة عليها والعمل على استدراك جرائرها كما سيأتى في الكلام على فرنكلين الإنسان ، وكأن يحب السرور ولا يرى فيه حرجاً من الدين ولا من الأخلاق ، بل يراه واجباً من الواجبات التي ترضى عنه خالق الكون وما فيه من مسرة وجمال ، وشرطه في السرور ألا يضر أحداً ولا يسف بالكرامة إلى مبادل الشهوات ، فان لم يكن فيه ضرر ولا اسفاف ولا ابتذال فهو حق للإنسان بل واجب عليه .

ومما عرف عنه أنه قضى زماناً لا يذوق الخبر خيفتها ولا تقيتها ، وكان رفقاء في مطبعة العاصمة الانجليزية يدعونه إلى شرب الجمعة معهم فيأبى معتذراً ويسموه من أجل ذلك بالأمرىكي شارب الماء .. وقد نظم في شبابه شيئاً لمجلس الشراب يشترك مع المجلس في غناهه ولا يشترك معه في شرابه ، وما حرمتها على نفسه لأنها حرمت عليه بحكم الدين أو القانون ، ولكنه حرمتها لأن سرورها مشوّب غير خالص من العقبات وغير مأمون فيه أن يسترسل مع الشراب إلى الاقساط والأدمان .

لقد كان فرنكلين فيلسوفاً يكتبه من معانى هذه الكلمة في وضعها الأولى ووضعها الحديث :

كانت له عقيدة مفكر في الدين ، وكانت له نظريات باحث في العلم ، وكانت له مبادئ مبدعة في السياسة ، وكانت له آداب مرعية في نظام المعيشة ، وكانت حياته الخاصة وال العامة مدروسة من الوجهة المكررة مروضة من الوجهة النفسية ، وبعض أولئك كفيل بحسبانه في زمرة فلاسفة المعدودين . الا أنه فيلسوف يصعب على مؤرخي الفلسفة أن يضعوه تحت عنوان واحد من عناوين المدارس الفلسفية غير مستثنى منها مدرسة البرجمية التي ظهرت في وطنه بعد وفاته بأكثر من مائة سنة وقيل عنها أنها المدرسة النموذجية للأمريكيين ، وقيل عنه انه رائدأها الأول من العلماء المفكرين .

نعم لا استثناء للبرجمية من مدارس الفلسفة التي يحاول المؤرخ الفلسفي أن يضع فيها فرنكلين . لأن ميزان الحقيقة عنده غير ميزان الحقيقة في المدرسة البرجمية ، ولأنه قد يحتوى البرجمية ولا تحيط به . وإنما تزول هذه الصعوبة اذا أردنا أن نضع الفاصل بين فرنكلين وبين كل مدرسة فلسفية أو دعوة فكرية . فحيث لا عمل لا فلسفة لفرنكلين ، وحيث لا توجد الفكرة المفهومة فلا عمل كذلك لفرنكلين . وبهذا ينفصل أحيانا عن الواقعين كما ينفصل عن المثالين ، وأصدق ما يمكن تعرفه الفيلسوف هنا تعریف الانسان في مذهب أرسطو ، وهو العیوان الناطق المدنی بالطبع ، فهو حی یفكرا لا ینسى وشائعی القریب بینه وبين أبناء نوعه ، وذلك هو فرنكلین الفیلسوف .

وذلك أيضا هو فرنكلین الانسان .

# الإنسان

دنيري .. عصري .. إنساني .. تفهي .. ساخر .. طبيته عادية ..  
مستر أمريكان !

هذه كلمات وصف بها فرنكلين ، وأرادوا واصفوه بها أن يحصروه في قشرة بندقة كما يقولون في اصطلاحات الغرب ، فأصاب كل منهم أصابة لا خلاف عليها ، وأخطأ كل منهم خطأ لابد أن يستدرك عند الاحتاطة بصفات فرنكلين .

كل صفة من هذه الصفات لا تبتدأ مرة واحدة ولا تؤخذ مرة واحدة .  
 فهو في الحق دنيري ، وعصري ، وإنساني ، وتفهي ، وساخر ، وطبيته  
عادية ، ومستر أمريكان .. وهو غير ذلك استدركاكا على جميع تلك  
الصفات .

إن الذين وصفوه بأنه دنيري أرادوا كلمة Secular ، وهي تعني أنه  
رجل واقعي عمل يقيس الأمور بما يحسه ويختبره ، وأنه في خلاقه غير  
الرجل الصوفي الذي يعيش بين الشهود والغيب ويخوض في أعمال  
الخفايا والأسرار ، وغير الرجل الذي يطيل النظر فيما وراء الطبيعة  
وما وراء هذه الآفاق المدركة بالحواس والعقول .

وكذلك كان فرنكلين في رأي جميع عارفيه ومترجميه ، ولكنهم عند  
اطلاق هذه الصفة على فرنكلين يتبعون أن يوسعوا آفاق الدنيا حتى تسع  
لكل شواغله العقلية والعلمية وترجع بحدودها أفقاً وراء أفق حتى تصير  
أوسع وأكبر من آفاق كثير من الحالمين المحسوبين من الخياليين . فلم يكن  
هذا كذلك شيء دنيري لم يكن دنيري فيه ولم يكن حاضراً بين أعماقه  
وآفاقه ... وليس كذلك كل الدنيريين .

وقد كان فرنكلين عصرياً في نظرته إلى أحوال زمانه ، وهذا وصف

صحيح ينطبق عليه كل الانطباق ، فلم يكن في عقله بقية من بقايا الزمن السالف تحول بينه وبين النظر المستقيم الى أحوال عصره ، ولم يكن في عقله هوى من الأهواء الغالبة يشط به الى المستقبل البعيد فيفهم الواقع معلقة على شيء في الغيب المجهول : كان ينظر الى عصره ويراه بغير حجاب من بقايا الماضي ولا أحلام المستقبل ، وعلى هذه السنة بعينها يصبح عصرنا يبنتنا لو عاد الى القرن العشرين .. وقد كان هو يتمنى لو يتأتى للمرء أن يعاود الدنيا بعد الموت فيراها عصرا بعد عصرا أو عصورا بعد عصور . ونخاله لو عاد الى الدنيا كما تمنى لما أدهشه شيء ما وقع فيها خلال هذه الأجيال ، الا أذ تكون دهشته للسرعة والكثرة لا للجوهر واللباب . فما من شيء حدث لم يكن عنده محتمل الحدوث ، وما من تقىصة انسانية كان في ظنه أنها ستزول خلال هذه الأجيال ، ولا استثناء في ذلك للشعوب العالمية ، لأنه قدر لاتفاق الدول على اتفاقها مائة وخمسين سنة أو مائتين . ولا يخفى أن الاتفاق على الاتقاء غير الاتقاء الناجح وغير النجاح في الواقع . فليس في العصر الحاضر ما لا يكون فرنكلين «عصريا» فيه بعد بضعة أيام ، لو عاد .

وكان انسانيا ، أو كان انسانا من فروعه الى قدمه ، فلا همجية ولا وحشية ولا ادعاء للكمال والتزامه « الملائكة » .

انسان معتدل ، لا ملك ولا شيطان ، ولا همجية تتبور عنها الانسانية المهدبة المتحضرة ، ولا وحشية تتم على النكسة في خلائق الانسان .

انسان بفضائله وانسان بعيوبه ، ولكن الصفة هنا لا تكفى وحدتها ولا تزال كغيرها من الصفات بحاجة الى استدراك . فإذا كان الرجل انسانا بفضائله وعيوبه فليس معنى ذلك انه انسان كسائر الناس أصحاب الفضائل والعيوب ، لأنه كان يصل مع القطرة في تكون فضائله وتبيتها ، وكان يتيقظ لعيوبه ويواجه ما استطاع في اصلاحها ، وكانت الأعذار الى جانب عيوبه أرجح وأقوى من دواعي اللوم والرذيل ، ويصدق هذا على أكبر السقطات كما يصدق على التفوات الصغار .

فمن سقطاته المميتة تلك العلاقات المزمرة بينه وبين بعض النساء في شبابه ، ومنهم « دبورا » التي تزوج بها بعد معاشرته لها بغير عقد ديني أو عرف وبغير تسجيل معترف به على نحو من الأنجاء .

وقد لقى جزاءه على هذه السقطات ، لأن ابنه من احدهما — وليام — خذله وخذر قومه وانقلب على قضية الاستقلال ولاذ بالبلاد الانجليزية بعيداً من أبويه وذويه ، وعاشت « دبورا » مهملاً من جانب المجتمع بعد نهاية فرنكلين وارتفاع شأنه ، فكانت كل دعوة إلى محفل من محفل الدولة أو الأمة تذكره بتلك السقطة وتتفصل عليه حياته وحياة زوجته .

ولا يهم المؤرخ هنا هذا التفكير الذي لا يدخله فيه ، ولكنه يهمه أن يثبت ما له وما عليه في هذه السقطات . فقد كانت هذه السقطات كأمثالها من سقطات الناس في الضعف والفساد ، ولكنها لم تكون سقطات الناس في المعاذير وجهود الاصلاح ، ولم يكن كل ذي سقطة قادراً على أن يتضمن أمام عدالة الضمير بأعذار كأعذار فرنكلين ، وجهود كجهوده في اصلاح الخطأ والصبر على تعاته مختاراً بغير اكراء .

لقد كان من معاذيره شدة التفور في عصره من سلطانه الكهنوت على جميع المذاهب ، وكان من أسباب ذلك التفور الشديد بين المتحررين خاصة أفراد المتعصبين في الخرافات وتصدى الجهلاء من رجال الدين للحكم فيما يجهلوه والاستهانة بالأرواح البريئة في سبيل العصبية التي كانوا يسمونها غيره دينية أو حماسة روحية ، وقد كانوا يتوهرون بالسحر في كل مشتعل بالعلم ويحرقون الساحر والساحرة لأنهما من حلفاء الشيطان « محتكر » العلوم السوداء ، على ما توهموه وتوارثوه بالتقاليد .

ومن السهل أن تخيل شعور الرجل المطبوع على البحث العلمي نحو هذه السلطة ، فأن « رد الفعل » أمامها خليق أن يذهب من النقيض إلى النقيض ، فيفرق من سلطانها مروق التحدى والاصرار .

وما يشفع لفرنكلين في سقطته أن « دبورا » لم تكون من النساء

المبدلات ، وأنها لما تركها فرنكلين ليسافر الى لندن تزوجت من رجل آخر وليشت على ذمته الى أن عاد فرنكلين من رحلته ، ولا أراد أن يصحح خطأه ليتزوج منها حال العقد القائم بينه وبين اتمام عقد الزواج حتى ثبت وفاة الزوج الأول ، وكان في وسع فرنكلين — وقد اشتهر وارتفع في سلم المجتمع — أن يتخلّى عن هذه المرأة الباهلة الفقيرة المهملة في حساب الطبقة العالية وفي حساب المدينين من جميع الطبقات ، ولم يكن عسيراً عليه أن يختار له زوجاً تساعديه بجهة الأسرة الاجتماعية ولا تقف في سبيله عقبة دون المناصب العليا بقية حياته ، ولكنه صنع الواجب الذي أوحاه اليه ضميره وأثر وحي الضمير على المصلحة وحب الوصول .

وستدرك صفة الإنسانية اذا نسبت الى فرنكلين على غير الوجه المتقدم في معانها الكثيرة .

فقد كان من معاني الإنسانية إيمان المرء بخير الإنسانية ورفضه كل عقيدة دينية غير العقيدة الموضوعة ، وكلذ فرنكلين يؤمن بخير الإنسانية ويعمل له ويسوئ بين الناس جميعاً في الآخرة البشرية ، ولكنه لم ينكر وجود الله ولا وجوب الاقتداء بفضائل السيد المسيح .

وكان من معاني الإنسانية حب المسالمة وطيبة القلب ووداعة الأخلاق وفرنكلين كان ولا ريب مثالاً طيباً ودبيعاً للأخلاق ، ولكننا نجهله اذا فهمنا من المسالمة انه كان يفرق من المداوة ويتجنبها بكل ثمن وكل وسيلة .

لقد كان حقاً يكره المعاادة ولا يستثيرها ، ولكنه كان اذا جاءته المداوة الى باب داره بغير داع ولغير مساعدة منه لم يفضل منها وأهملها ذلك الاهتمام الذي يلهب الغضب ويؤجج سعير الحسد ويغشه عن الاتقام ، ولم يمزح حين قال ان الاتقام الحسن من حсадه وأعدائه العا هو الاستزاده من أسباب حسدهم وعداوتهم ، وانه في غنى عن مقابلة الحسد بالاتقام لأن حсадه ينتقمون له من أفسسم ، فقد كان حقاً يؤمن بهذه الفكرة كأنها فكرة علمية مقدرة بنتائجها موزونة بميزانها ،

فهو الراوح اذا تقدم ونجح وحساده هم الغاسرون اذا حسدوه على التقدم والنجاح .

والذين قالوا عنه انه «تفعى» لم يظلموه فتيلا بالمعنى العرف أو بالمعنى الفلسفى الذى يطلق على مذهب التفعين Utilitarianism . ولم يقولوا عنه ما ينكره لو سمعه ، ولا ما يستنكره الناقد الأخلاقى على اطلاقه ، الا أن تكون التفعية على حالتين : احدهما أن يستهين المرء من أجلها بكل قيمة أخلاقية ، والأخرى أن يقدم مفهومه الشخصية على المنفعة العامة أو على المنافع التى اصطلح عليها نوع الإنسان ، كائنا ما كان موضوع الفعم الانسانى من المأديبات أو الروحيات .

وليس في مقدور عدو من أعداء فرنكلين أن ينسب اليه حب المنفعة على حالة من هاتين الحالتين . ولا نريد هنا ما ذكرناه — في الكلام على فرنكلين العالم — عن زهده في جميع المنافع التي تعود عليه من تسجيل اختراع الوقود المعروف باسمه ، ولا عن زهده في مكاسب المخترعات الأخرى ، ومنها الشائع المتداول كالنظارات وأعديدة الصواعق ، ولكننا نذكر مواقفه في الأعمال الوطنية التي لا تخفي عليه عواقبها وهو من هو في كياسته وبعد نظره واختباره للطبائع البشرية وتجاربه لحظوظ العاملين من العرقان بالجحيل . فقد كان ينوب عن بعض الولايات في لندن ليعرض على حكومة الدولة وجهة نظر الولايات ويقضى لها مصالحها في دوائر الرئاسة ، وكان يعلم أن أغضاب رؤساء تلك الدوائر يزعزع مركزه عند الولاية التي ينوب عنها لأنها لا ترجو تفعما من وكيل ينفر منه الرئيس ويوصدون في وجهه أبواب الشفاعة والواسطة ، فلم يمنعه علمه بذلك أن يغضب الرئيس كلما وجد أن يخاطبهم بالحق الصراح الذى لا يقبلوه وأغضبهم فعلا مع اشتهره بالمسالمة والقدرة على القول اللين والعبارة السائعة ، ولما حافظت الولايات على وكالته واستහيت من جزائه بالفصل على أماته وحسن خدمته أعنفها هو من ذلك الموقف العرج واستعنفها باختياره ليفتح أمامها باب الاتساع بوساطة وكيل غيره ، وقد ظهر في

آخريات حياته وبعد مماته أنه كان يحتاج إلى اتفاق المال لخدمة المصلحة الوطنية ويستطيء الاجراءات التي لا بد منها لاقناع المراجع المعتمدة بضرورة اتفاقه وارساله ، فيتفقه من ماله الخاص وتتفقى السنون ولا يتمكن من استرداده وهو خارج بلاده . ثم يعود إلى بلاده وقد تغير الحكم والنواب وتتابعت الشواغل المستحدثة كل يوم من أيام الاستقلال الأولى ، فيلوذ بالصمت ويترك ما أتفقاً عليه غير مقتصر في المصالح الوطنية الجديدة التي توكل إليه .

والسخرية التي ألفها الأصدقاء والشعراء من كلام فرنكلين وكتاباته سمة أدبية وقصصية في وقت واحد ، وقد تلحق بطبيعته الواقعية الفنية التي تعرف الناس حقيقتهم وتعرف الرباء والمصدق من دعاويمه ولا تتضرر منهم في الدين والدنيا فوق طاقتهم ، وهي أشبه بابتسامة الأب لطفله الذي يريد أن يراوغه ويحتال على خداعه وهو لا يحتاج منه إلى الخديعة لاستجابة رجائه أو قبول معاذرته . وقد أثرت لفرنكلين سخريات تضارع سخريات فولتير الفرنسي وسويفت الإيرلندي وهما علمان من أكبر أعلام النقد الساخر في الأدب الغربي ، ولكنها سخريات سليمة من طعنات فولتير المناضل ووخزات سويفت السوداوي الناقد ، وليس لها سخرية يفارقها المطاف على المعارضين والموافقين كذلك السخريات المسومة التي تخلل كتابات سويفت كثيراً وتتخلل كتابات فولتير من حين إلى حين . .

والطينة العادية من الصفات التي تكررت في ترجم تقاده ومؤرخيه .

ولا كذب في وصف النقاد والمؤرخين ، وإنما الكذب — أو الخطأ — في تقدير هذه الطينة العادية التي خلق منها هذا الرجل العظيم .

إن اللبنة طينة عادية ، والقصر الذي يبني باللبن طينة عادية ، ولكن القصر واللبن شيئاً مختلفان .

إن الرجل الذي يكون « عادياً » في مملكة واحدة يقال بحق أنه من طينة عادية .

ولكن الرجل الذي يكون عاديا في عشرين ملكرة وفي كل ما تصدى له من الأعمال والأفكار لا يحسب انسانا عاديا تراه يبتنا كل يوم .

ان الوسط في القوة البدنية وسط .

ولكن الوسط في القوة البدنية وفي القوة الفكرية ، وفي القسوة الخلقية ، وفي قوة التفكير حين تتجه الى العلم وحين تتجه الى الأدب وحين تتجه الى السياسة وحين تتجه الى الحياة العامة ، لا يقال عنه انه وسط ولا انه في مرتبة من العظمة الإنسانية دون مرتبة العظام المرتدين الملحقين في جو واحد من أجواء القدرة والكفاية .

وهذه عظمة أحب الى الناس ، وينبغي أن تكون أحب اليهم وأفع لهم وأولى بالكتابة عنها لطلاب القدوة والمحواز النفسية ، فان الاقداء بالعظمة المخلقة في السماوات يئس من يلمس جنبيه فلا يجد فيما الجناحين القادرين على التعليق ، ولكنه اذا رأى أمامه عظيما يعشى على القدمين في كل طريق يعبره أمثاله لم يتأس من الاقداء والمشابهة ، وان لم يكن مثله وسطا في عشرات من الكفاءات والملكات .

طينة عادية نعم .. وهذه هي العظمة التي يفهمها العاديون في جميع نواحيها ، وتنعمت حولها الصلة المحكمة بين العظاماء من بنى الإنسان وغير العظاماء .

«المستر أمريكان» أحدث ما وصف به فرنكلين الانسان في كتابات المعاصرن .

والذين وصفوه بهذه الصفة يعنون أنه أول نموذج للأمريكي من الأمريكان ، وأنه لو عاد الى الحياة اليوم مع رهط من زملائه آباء الاستقلال لم يستغرب أحد ولم يستغرب هو أحدا من حوله ، وقد تحيط الفراقة بين الأمريكان المعاصرن بواشطنطن وآدمز وهاملتون وجفرسون وسائر القادة المدنيين والعسكريين .

وهذه الصورة صحيحة في مجموعها في انتظار التكملة اللاحقة بها  
كجميع تلك الصور التي أريده بها حصر الرجل في قشرة البنادق .

والتكملة التي تلعق بهذه الصورة أنه اذا عاد الى الحياة عاد كما  
كان في أيام الحياة : مстер أمريكان في الجلترا ومستر أمريكان في فرنسا  
ومستر أمريكان في أمريكا .. ومستر آدم مع هذا حيث كان ، لا يحس  
القلق والغرابة في بيته ينتقل اليها ويقيم فيها ، فهو أمريكي مستريح بين  
الأمريكيين وأمريكي مستريح بين الفرنسيين وبين الانجليز وبين من شاء  
من العالمين . فإذا أراد أحد بقوله عنه انه « مستر أمريكان » أن يصيغه  
بصيغة خاصة تلائم هذه البيئة ولا تلائم تلك فهذا هو موضع التفص  
في التصوير .

كان دنديويا عصرها انسانيا فعملا ساخرا من طينة عادية ، ولم تكن فيه  
صفة من هذه الصفات تناقض الأخرى أو توضع لاستثنائها واقصائها .

وكأن انسانا لا تتضرر منه الخوارق ، ولكن الخوارق التي جاءت منه  
أنه كان وسطا في أشياء كثيرة ، فكان عظيما لهذا التوسط القليل النظير .

وكانت ملكة العالم هي الملكة العالية عليه كما تقدم في الكلام على  
أعماله العلمية .

الآن نستطيع أن نقول عنه انه « انسان على » بمعنى غير ذلك  
المعنى ، وهو تفسير كل خلق من أخلاقه تفسيرا علميا لا يغير الباحث  
ولا يدفع به في معركه التفاصيل والشكوك .

كل صفة فيه واقعة خاصة للبحث العلمي والتفسير بالمبادئ ، العلمية  
حتى الطيبة والسماحة والاعتدال .

فمن مبادئ العلم ان الطاقة تأخذ بمبدأ المجهود الأقل ، وإن الأداة  
المحكمة هي الأداة التي تصرف كل طاقة الى موضعها ولا تبددها .

فرنكلين كان « طيبا » علميا ، وسمحا علميا ، ومتعدلا في أخلاقه  
علميا على جميع الأحوال .

كان لا يتهم من أعدائه ولا يضيع جهوده في الاتقام منهم ، لأنَّه عمل  
لا حاجة به إليه .

وكان يفضل الفضيلة ويقول بعد البحث أنَّ الخبائث لو عرفوا فضلها  
لأصبحوا فضلاء بوجي من الخبرة ، لأنَّ الخلق الكريم بعد المرازنة بين  
الجهود الصالحة والجهود الضائعة أبقى الجهد وأشبعها وأحقها بالحرص  
عليه .

ول يكن ذلك صحيحاً في عرف الناس أو غير صحيح ، فاما المهم هنا  
انَّه صحيح في التطبيق العلمي كما يطبقه فرنكلين ، وفي الجهد التفصية  
كما يحسها فرنكلين ، وفي هذا الانسان العلمي الذي يطبق العلم ويتطابقه  
باختياره وبغير اختياره .

انسان لا يغير أحداً في أمره ، ولا تخال أحداً حيره في شأن من شئون  
الطبيعة الإنسانية ، فهو لا يفرض على الدنيا لوناً لا يراه فيها ، ولا يزال  
متفتح الذهن لكل غريبة من غرائبها فلا يصل إليها أو تصل إليه حتى  
يرأها في موضعها صالحة لأن تقرن بال موجودات كلها في مواضعها ..  
وانما ثانية الحيرة من المفاجأة ، وثالثى الغرابة من تضييق الحدود التي  
تتفتح لها الأذهان ، فإنَّ بقى الذهن متفتحاً بغير حدود فكلُّ وارد ضيف  
مقبول غير محتاج إلى جواز « أجنبى » أو اذن بالدخول .

ابْحِرْزَالثَّانِي  
مِنْ فَرَانسِكِلِين



يشتمل هذا القسم على متنفرقات من كلام فرنكلين في الموضوعات المختلفة التي تناولها بقلمه ، وهو قسم لا غنى عنه ل تمام التعريف بوجل عالم كاتب مفكر لم يصل في ميدان من ميادينه الكثيرة الا كان لقلمه نصيب واف من ذلك العمل ، وقد كتب فرنكلين في المباحث العلمية والمسائل السياسية والاجتماعية كما كتب في شئونه الخاصة التي تعنيه وتعنى ذوى قرباه ، وكان له طابعه الذى ينبع على مزاياه النضالية وللامموج الشخصية في كل باب من أبواب الكتابة ، ونحن نود أن نلم بهذه الجوانب جميعا فيما نختاره من كل باب .

ومنقبس فيما يلى نماذج من كتاباته العلمية والاجتماعية ، ولكن الاستقصاء في هذه الناحية غير مطلوب في ترجمة عامة ، وإنما المطلوب هنا أن نلم بما يعرفنا بطريقته في البحث العلمي والتفكير الاجتماعي ، وما عدا ذلك فمكانه المطلوبات المخصصة لتاريخ النظريات العلمية والمخترعات التي تولدت منها ، أو الدراسات التي تشرح أطوار المجتمع ومشكلاته وآراء المفكرين فيها على التتابع أو للمقابلة بينها في أوانها ، فإذا استطعنا فيما نختاره هنا من كتاباته العلمية أن نعرف طريقة بحثه ونقرب تفكيره أثناء عمله فذلك حسبنا من التعريف بهذه الشخصية في ميدان من ميادينها المتعددة ، وإذا استطعنا فيما نختاره من كتاباته الاجتماعية أن نعرف ما يهمه من المجتمع وما يتواхمه من النظر في أحواله والحكم على مشكلاته فقد تمت في الصورة العامة ملامحها التي تصور لنا هذه الناحية من ملامحها الكثيرة .

وقد تعمدنا هنا أن نترجم له دراسة علمية في مسألة لم يحسبها من مسائله الناجحة ، أو من المسائل التي وصل فيها إلى مقطع الرأى بين الآراء المحتملة ، وتلك هي المسألة التي ذكرها العالم اللاتيني التقديم وسجل فيها تجربة الملائين في تهدئة هياج البحر بحسب الماء عليه . فإن دراسته لهذه

المقالة — كسائر دراساته العلمية — تستجمع أسلوبه في احصاء العوامل والفرض والموازنة بينها وتجربة كل فرض راجح منها وتحرير النتائج بمقدارها الذي حققه كل التحقيق في غير تزييد ولا انتقاص ، وتمثل فيها طبيعة التردد في قبول النتائج ما لم تكن لجامعة مانعة كما يقول المطبقون ، وتلازمها طبيعة الأمانة التي لا يستهويها حب التجارح والرضا عن النتيجة التي يرضى عنها الكثيرون .

وتفعّلنا في اختيار النبذتين الاجتماعيتين لأن تكونا نموذجاً لما أثر عنه من طلاقة الفكر أمام العرف الذي تفرّزه العادات والخرافات والإيمان الأعمى بظواهر المقيدة الدينية ، وطلاقه الفكر أمام العرف الذي تتبّه في التفوس عصبية الأجناس مع الكراهة المتبادلّة بين الأعداء المتقاطلين .

أما كتابة فرنكلين التي توسعنا في الاختيار منها فهي كتابته في التقويم وكتابته التي يجمعها عنوان الرسائل ، وكلتاها وافية بالدلالة عليه في جمّيع أدوار حياته وفي جميع شواغله الذهنية وخلاقه الفضية .

فتقويم ريتشارد هو الأسلوب الذي يشق به طريقه في الحياة الأدبية والفنكيرية وقرر به مكانته بين أصحاب الأقلام ومكانته بين قومه على التعميم ، واستوى فيه على توجه المختار في الكتابة بعد استقلاله بعمله واختباره لملكاته ومواهبه ومتطلبات قرائه ، واعتماده على ذلك النهج العملي الذي يتّخذ الفكاهة طريقاً إلى الجد ، والتسلية طريقاً إلى الفائدة ، ولم يتغير هذا الأسلوب بقية حياته في تسلق التغيير ولا موضوعات التفكير ، اللهم إلا ما كان من قبيل نضج السن واتساع أفق الاطلاع .

أما رسائله فهي عنوان واحد لكل ما ينطوي على البال من الموضوعات التي شغل بها في حياته العامة وعلاقاته الشخصية ، وقد شملت حياته العامة — كما تقدم — مباحث العلم ومشاكل السياسة والإدارة وجهود الخدمة الوطنية في داخل بلاده وخارجها ، وشملت علاقاته الشخصية أنساناً من الوزراء والشعراء ، وأنساناً من العلماء ورجال الدين ، وأنساناً من الجهلاء والأغمار ، كما شملت الرجال والنساء وذوى قرباه ومن ليست له

قرابة بهم غير قرابة المودة والعاطفة أو قرابة الاشتراك في المصلحة العامة . ورب رسالة في مسألة علمية تتخللها نصيحة إنسانية أو استطراد إلى البراهين على وجود الله ، ورب رسالة في الدعاية تكشف عن أعمق أعمق نفسه من حب الخير للناس والرحمة بالحيوان في زمن لم تعرف فيه كلمة الرفق بالحيوان ، ورب رسالة تكتب إلى أحدى الصحف عن مسألة عارضة وتعتبر اليوم مرجحاً من المراجع الهامة في تحقيق التاريخ والعلاقات الدولية ، وقلما تخلو رسالة من هذه الرسائل على أنواعها من أسلوب الفسحة الساخرة التي تسلكه من الطبقة الأولى بين الكتاب الساخرين في عصره ، وتفرده بين الأكترین منهم ببراءة الطوية من الضغف والإيذاء . وبراءة القلم واللسان من لواذع المجاه .

وليس ما ترجمناه في الصفحات التالية كل ما يترجم لفرنكلين من الرسائل أو الفصول ، ولكنه — فيما نرجو — نماذج كافية للدلالة عليه والإبانة عن مزاياه وملكته ، وقد يزداد عليها الكثير من قبيلها . ولكن الريادة تأتي مكررة لصفات هذه « الشخصية » التي ألمنا بها في حدود الإيجاز والاكتفاء بالميسور .

## تقويم ريتشارد المسكن

جرت عادة التقويمين في أيام فرنكلين على اصدار تقويماتهم خلال شهر أكتوبر من السنة السابقة لتاريخ التقويم ، ولما صحت نية فرنكلين على اصدار تقويمه لم يتيسر له اصداره في ذلك الوعد فتأخر إلى التاسع عشر من شهر ديسمبر ، ولكنه سبق التقاويم التي ظهرت قبله إلى بيوت القراء وجوبهم وعرض ما فاته من مسافة الزمن بالأسلوب المبتكر الذي قربه إلى قلوب قرائه ، فأصبح في صحبة كل قاريء منهم كأنه الصديق المؤمن الذي يرجع إليه للاستشارة في مشكلات العيش كما يرجع إليه للسؤال عن التواريف والمواقيت .

وقد سماه تقويم « ريتشارد المسكن » وصرح فيه بفقره و حاجته إلى حظ من الرزق يرجوه من رواج ذلك التقويم ، فنجح في كسب زمالة القراء كما نجح قبل ذلك في كسب كل زمالة صالحة فيمن يلقاهم ويلقونه من الصحاب والأعوان ، ونظر إليه كل قاريء من طلاب الرزق في القارة الجديدة نظره إلى صاحب يعرف ما يعنيه ويحتاج إلى مثل حاجته من السعي والتدعير والعمل بالتجارب والوصايا من غير من ولا استعلاء ، إذ كان القاريء يتخلل ناصحه في صورة الزميل الذي يتلى بمثل بليته ويعرف الحكمة من ضنك الحياة ولا يدعى عرفانها من شهق في الرأى أو مزية في العلم والدراسة .

قال في فاتحة التقويم الأول : « لقد كان في وسمى هنا أن أحال على كسب الحظوة عندك بدعواي أنت لا أكتب هذه التقويمات إلا رغبة مني في خدمة المصلحة العامة ، ولكنني إذا زعمت هذا لا أخلص القول وهو من زخرف المقال الذي بلغ من يقظة الناس في هذا الزمن أنهم لا يقبلونه ... أما حقيقة الأمر على جليتها فهي أنت فقير جد فقير ، وامرأتى الطيبة ،

كما أقول لها ، جد متكبرة ، وهي تهيب بي قائلة أنها لا تستطيع أن تتمكن  
على مغزلها ولا تراني أعمل شيئاً غير النظر في النجوم ، وتوعدتني غير  
مرة أن تحرق جميع كتبى وكل ما عندي من تلك الفخاخ ، كما تسمى آلات  
الرصد والحساب ، إن لم أستطع أن أصنع بها شيئاً ينفع أهلى ، وقد  
سمح لي الطابع بحصة قيمة من الربح وبدأت من ثم في الاستجابة  
لما أمرت به سيدتي .. » .

ووضحت مزية هذا التقويم من سنته الأولى على سائر التقاويم  
بما احتواه من حشو الفراغ ونواقل الكلمات التي لا شأن لها بالتاريخ  
والتوقيت ولكنها ذات شأن نافع في التوجيه والاتقان بالأوقات ، وعابها  
بعض النظراً والمنافسين على ما يظهر بما فيها من النكات والمضحكات ،  
فأراد فرنكلين أن يقنع قراءه بفضل هذه الزيادة وانها لا تقتطع شيئاً من  
حق القارئ في الراد المقيد بل توسيع له مذاقه وتساعده على هضمه ،  
فقال في مقدمة التقويم لسنة ١٧٣٩ : « لا تقلق أيها القارئ الرصين  
الوقور إذا رأيت بين عبارات الجد الكثيرة في تقويمي هذا تنفسة هنا  
أو هناك من أحاديث الهزل والبطالة . ففي كل صحفة طهورتها لك كفاية  
من اللحم للوفاء بمتقدملك ، وهنا وهناك قدر من مائدة الحكمة تعود مع  
حسن الهضم بالذاء الجيد إلى لبك ، ولكن المعدات المتعلقة لا تطبق  
الأكل خلوا من التوابيل والمشهيات ، ولعلها في الحق لا تنفع بشيء في  
غير هذا الموضوع ، ولكنها تعين على تناول الطعام » .

ولم يكن تقويم ريتشارد المسكين باكوره فرنكلين في عالم الكتابة ،  
لأنه بدأ الكتابة كما تقدم في صحيفة أخيه وهو في نحو السادسة عشرة  
فأتنى فيها بما يفوق م الحصول أمثاله من خبرة العمر ودرجة التعليم ،  
وقد أخذ في كتابة التقويم وهو في نحو السابعة والعشرين بعد أن مضى  
عليه أكثر من عشر سنوات يمارس صناعة القلم ويكتب الرسائل والقصوصل ،  
ولكنه اختار لعبارات التقويم — أو لمعظمها — أسلوب جوامع الكلم ،  
وهو أدق الأساليب وأحوجها إلى الفهم المستقيم والتعمير المحكم والإيجاز

البلين مع البساطة والوضوح ، فكانت جوامع الكلمة في تقويماته خير دلالة على الكتاب بلفظها ومعناها ، ورسمته لمن يريد أن يفهمه رسما لا تزيد عليه كتاباته الأخرى شيئا غير التفصيل والتوكيد .

ففي أسلوبها اللقطى دلالة على ملكة التعبير وقدرة على الفادى إلى الجوهر واجتناب الفضول ، وفي أسلوبها المعنى دلالة على الدراءة العملية والسببية السمححة والعقل الحصيف الذى لم يقف بالمعونة فقط دون التطبيق المفيد ، فإذا صع قول القائلين أن الأسلوب هو الرجل فهو أصح ما يكون على فرنكلين ، وأصح ما يكون على فرنكلين نفسه في « جوامع الكلم » وما شابهها من الحكمة الناجزة والخبرة المركزة . وليس من النافع أن نطيل التساؤل عن مصدر هذه القدرة على البيان الصحيح : هل كان الفضل فيها لملكه التعبير وذخيرة الكاتب من المفردات والأساليب ؟ أو كان الفضل فيها لصواب الفهم وأصالته في استخلاص المعانى الجوهرية من الحواشى والفضول ؟ فمهما يكن من فضل ملكة التعبير فهي لا تغنى عن صواب الفهم ، ومهما يكن من صواب الفهم فهو مقتدر إلى التعبير المبين ، وجماع القول أن الكاتب أحسن تعبيرا لأنه أصاب فهمها وأصاب قبل كل شيء فنا فهم رسالة التعبير وأداته وما يعينه عليه .

ونحن توسع في النقل من تقويمات ريتشارد المسكن لأنه كتبها في عدة سنوات تستند من شبنته إلى كهولته ، ولأنها أدق كتاباته عليه في جوانبه الخلقية والعقلية ، وما من صفة اشتهر بها هذا النابغة المتعدد الجوانب إلا رأيتها بارزة ناطقة في بعض كلماته التي تناولت بين هذه التقويمات ، ويكتفى أن يتصفح القارئ جملة منها لتشتب في روعه صورة رجل معتدل المزاج سمح الطياع متزد العقل بعيد النظر صادق الملاحظة خير بالموازنة بين الاحتمالات المتفرقة والأطراف المتعارضة موفور الحظ من ملكة التعبير في أسلوب يجمع بين الصواب والفكاهة ، وهكذا كان فرنكلين في جميع أنوار حياته وفي جميع ما تولاه من المهام والأعمال .

وستكتفى من أمثاله وتأثيراته في التقويمات بطاقة مما يورده الاستاذ كارل فان دن دورن أكبر المترجمين له والمشغولين بجمع آثاره ، ونزيد عليها قليلاً مما لم يورده ورأينا فيه تتميماً لختاراته ، ثم نختم منتخبات التقويم بفصل عن كسب الثروة يدل على أسلوبه في مطولاًاته وفي سائر المطولات .

وهذه هي مآثراته التي تدخل في جوامع الكلم والأمثال :  
ما تلاقى الطمع والسعادة قط ، فكيف يتعارفان ؟

\* \* \*

القمر يطلب بعض الأشياء ، والترف يطلب كثيراً من الأشياء ، والطعم يطلب جميع الأشياء .

\* \* \*

في الدنيا سكيرون مدمنون أكثر من الأطباء المزمنين .

\* \* \*

ليست الثروة لمن حواها ، وإنما الثروة لمن تمدّها .

\* \* \*

هل لك فضيلة ؟ جملها اذن زينة الفضيلة وسائلها .

\* \* \*

ليس أحلى من الشهاد إلا المال والعتاد .

\* \* \*

الملوك والديبة كثيراً ما تتبع حراسها .

\* \* \*

قلب الأحمق في فمه ، وفم الحكيم في قلبه .

ما من عدو بالملدو الصغير .

\* \* \*

من يسرع في الشراب يبطئ في الحساب .

\* \* \*

اصنع جيلاً لصديقك كي تبقيه ، واصنع جيلاً لمدوك كي تقربه  
وتلديه .

\* \* \*

حيث يوجد الزواج بغير حب يوجد العصب بغير زواج .

\* \* \*

من كان غنياً فلا حاجة به إلى التقتير ، ومن كان مقتراً فلا حاجة به  
إلى الغنى .

\* \* \*

لا تستحسن من يستحسن كل ما تقول .

\* \* \*

أميرة الحمقى عريقة .

\* \* \*

انظر أمام ولا وجدت نفسك وراء .

\* \* \*

تقف الأكذوبة على قدم واحدة ، وتقف الحقيقة على اثنتين .

\* \* \*

البطء والصمت فضيلتان من فضائل الحمقى .

\* \* \*

انكر نفسك في سبيل نفسك .

\* \* \*

الهرم في الشباب يكون شباباً في الهرم .

السلوك والضيوف تفوح لهم رائحة بعد ثلاثة أيام .

\* \* \*

الدهشة وليدة الغباء .

\* \* \*

ليس للمساومة أقارب ولا أصدقاء .

\* \* \*

من يملك الصبر يملك ما يريد .

\* \* \*

ما من واعظ أو عظ من النملة ، وهي لا تنبس بكلمة !

\* \* \*

لا يخطو القاتب من خطيبة ولا الحاضر من معذرة .

\* \* \*

الفقر والشعر واللقب عرضة للساخرين .

\* \* \*

ريشي بين محاميين سمكة بين قطبين .

\* \* \*

الحب والسلطان يكرهان الأقران .

\* \* \*

شر دوايب المركبة أعظمها ضجيجا .

\* \* \*

أكتب مع العلماء وانطق مع الدهماء .

\* \* \*

إذا شئت ألا تنسى في جدثك فاكتب ما يستحق أن يقرأ ، أو اعمل  
ما يستحق أن يكتب .

\* \* \*

لَا تُوْجِلْ مسالكَ الْحُسْنَ وَلَا تَكُنْ كَالْقَدِيسِ جُورَجَ يَمْتَطِي جَوَادَهُ  
أَنْدَأْ وَلَا سَيْرَ .

• • •

كما تناهض على كل كلمة سخيفة تناهض على كل صفت سخيف.

三

دعا المشرفات تبعك .

卷二

الزمن عقّار بـداوى كل داء .

卷二

إذا علمنا القدماء ما هو أفضـل فـيلعلمـنا المـحدثـون ما هو أـفـقـ .

卷八

بیت پنیر امر آه ولا وقاد، چند پنیر روس ولا فقاد.

卷二

لا القلعة ولا الحصناء تشتت طويلاً بعد المفاوضة.

卷六

زوج اپنک حین ترید، وزوج بنتک حین تستطیم۔

• • •

افتح عينك كلها قبل الزواج ، ولا تفتحها كلها بعده .

卷二

الحقى يسطون الموائد والحكماء يأكلونها .

• • •

تبكير في النوم وتبكير في اليقظة صحة وثروة وحكمة .

• • •

احفظ دکانک و دکانک بحفظك .

10

الكيس الفارغ لا يقف مستقيماً .

\* \* \*

التجربة مدرسة غالبة ولكن الحق لا يتلمون في غيرها .

\* \* \*

المفتاح المستعمل لساع .

\* \* \*

لأجل سمار ضاعت الحدوة ، ولأجل حدوة ضاع الحصان ، ولأجل  
حصان ضاع الفارس .

\* \* \*

نكبة الانتقال ثلاثة كنكبة المحرق .

\* \* \*

مطبخ سمين وصبية هزيلة .

\* \* \*

ثلاثة يخظرون السر اذا مات منهم اثنان .

\* \* \*

وهذه نماذج من حكم التقويم قد اجتهد كارل فان دورن آن يوف  
بها التمثيل لما جاء منها في التقويم على مختلف السنين ، ولكن حكم  
التقويم على الخصوص كانت أكثر المأثور من كلام فرنكلين تفرقاً بين  
ترجمة المطولة أو الموجزة ، وإن كان بعضها مقصوراً على دراساته  
العلمية أو مساعيه السياسية ، وهذه طائفة أخرى منها نجعها من هنا  
وهناك لدلل على ملازمتها لذكره في عصره وبعد عصره وعلى اتساع  
 نطاقها في الاعراب عن مختلف الأمزجة والأهواه :

\* \* \*

من لا يقدر على الطاعة لا يقدر على الأمر .

\* \* \*

تدبر طويلاً في اختيار الصديق ، وتدبر أطول من ذلك في تبديله .

حسن يعمل خير من حسن يقال .

\* \* \*

خير لك أن تضاد مرات من أن تضيئ مرة .

\* \* \*

الهمة أم الحظ السعيد .

\* \* \*

الجهل لا يعيي الإنسان كما يعييه إلا قبل التعليم .

\* \* \*

بم تمد الطلاق ؟ بالاحسان الى الخلق .

\* \* \*

اذا كان رأسك من الشمع فلا تمش في الشمس .

\* \* \*

فضيلة وحرفة خير ميراث للوليد .

\* \* \*

القدوة الصالحة أبلغ العطاء .

\* \* \*

لا تحكم على ثروة الإنسان ولا على قواه بسيماه في يوم الأحد .

\* \* \*

من ثام مع الكلاب تيقظ مع البراغيث (١) .

\* \* \*

الأحمق من يجعل طبيبه وريثه .

\* \* \*

الشجاع والحكيم يذرا ان حيث لا يتسع للرحمة قلب المغل والجبان .

---

(١) هذه الأمثال مختارة من كتاب وينشارد المسكين تأليف دويرتن Daugherty

الفرصة أنجح غواية .

\* \* \*

من يعشق نفسه فليس له مزاحم في الفرام .

\* \* \*

عين المعلم أقدر من يعيشه .

\* \* \*

ساعديني يا ذراع فليس عندي ضياع .

\* \* \*

حراث على قدميه أشرف من سيد على ركبتيه .

\* \* \*

ليس الكرم أن تجزل العطاء . الكرم أن تعطى في موضع العطاء .

\* \* \*

أخفي الحماقات حكمة لفربت في الدقة .

\* \* \*

الملاع مع حكماء يونان أجمل طعاما من المسكر مع ندماء الطليان .

\* \* \*

وليست هذه الحكم جميما من ابتكار فرنكلين ، ولكنها خلية كلها  
أن تنسب إليه لأنه يصفها بصفتة ، ويجلسها بعصاه ، ويقولها كما ينبغي  
أن تقال في نظره وإن جاءت قبل ذلك في معناتها على لسان غيره .

وقد أشار « فان دورن » إلى الحكم المستعارة من هذا القبيل فذكر  
منها بعض الشواهد على منهج فرنكلين في تحويل الحكم المستعارة إلى  
أسلوبه وتصحيحها بذلك وفافاً لتفكيره وتعبيره ، ومنها الحكمة الاققوسية  
التي تقول : « الخزنة المسماة عمال عجاف » فإنه يعتبر معناتها فيقول  
« مطبخ سمين وصية هزلة » .. ومنها الحكمة الشائعة التي تقول :  
« ثلاثة يحسنون النصيحة إذا غاب منهم اثنان » ، فإنه يتعمدها بما عندم

من فرط الآنة والحدر فيقول : « ثلاثة يحفظون السر اذا غاب منهم  
الثسان » .

وقد على ذلك سائر الحكم من هذا القبيل وهي ليست بالكثير ،  
فقد حرص في كل ما أثبته من نصائح التقويم أن يتقبلها قرأوه ويشعروا  
بمتفقها وموافقتها لأحوالهم التي هي في الوقت نفسه أحواله من أكثر  
الوجوه ، وقد كان الأغلب الأعم من وصاياه يدور على فضيلة القصد  
والعزم وعما ألزم الصفات لطلاب الرزق من العصاميين والغرباء الذين  
لم يتأصلوا بعد في البلاد ، ولعله لم يكن في معيشته قدوة في القصد  
والحرص على المال ، أو لعله أصحاب حين قال إن القصد الذي حرمه قد  
تعرضه من تدبير امرأته وربة بيته ، ولكنه كتب ما يود أن يتبعه ويؤدي  
كل قاريء مثله لو وفق لاتباعه ، فكان إنساناً ينطق بما يجيئ في كل  
ضمير .

قال الحكمي اللاهوتي هو ثورن Hawthorne الذي خطب في ذكراته  
( سنة ١٨٤٢ ) :

« أشك في أن الكشوف الفلسفية التي كشفها فرنكلين على جلالتها ،  
أو الخدمات السياسية التي قام بها على اتساعها ، كانت تكسبه كل هذا  
الصيت بعيد الذي أحاط باسمه لو لا تقويم ريتشارد المسكين الذي  
أجدى من كل عمل سواه في اذاعة ذكره بين جموعة الناس ، فإنه بكتابته  
تلك الحكم التي كانت تحسب من كلام ريتشارد المسكين قد أصبح  
المستشار الناصح الأمين لكل ييت في أمريكا على التقرير ، ومن ثم  
كان أعظم أعماله وداعمة وتواضعه أعظمها عائلة عليه بالصيت بعيد » .

ويشمل التقويم كما تقدم على نمط آخر من النصائح المعيشية  
التي تشتمل عليها التقاويم عادة ولكنها مطولة بعض التطويل يشغل بها  
مكان القيادة ويتخللها بالملح واللوادع المضحك على أسلوبه في الحكم  
الصغار ، ومن قبيل هذه النصائح المطولة مقالة عن « السبيل الى الثروة »

الذى أضافه الى ترجمته فى طبعاتها الأخيرة ، وقد احتال فيه على اعاده بعض الحكم القصار بلسان الرواية من باب المراجعة والتذكير .

قال فى مقدمة التقويم لسنة ١٧٥٨ وقد سماه فى هذه الفترة تقويم ريتشارد المسكين « في التحسين » :

أيها القارئ المذهب :

سمعت أنه ما من شيء يدخل السرور على قلب المؤلف كأن يرى المؤلفين العلماء يعنون باقتباس كلامه ، ولكنه سرور قلما استمتعت به ، لأننى ، وان كنت — بغير ادعاء أو غرور — قد أصبحت من مؤلفى التقاويم المعدودين منذ زيد فرن لا أجد إخوانى في هذه الصناعة — ولا أدرى لماذا — يجودون على بالشأن والتنمية ، وما من مؤلف آخر عنى بذلك فى بعض كلامها ، أفلولا ما أصيبه من الخير من كتابى لكأن هؤلء النساء خليقاً أن يشطبلى ويفتن فى عضدى .

وآل بين الأمر الى الاعتداد على قضاء الناس وتقديرهم لعملى دون غيره ، لأنهم يشترون كتبى وأسمع منهم من يقول حيث لا يعرفنى أحد خلال طواف بالمدينة : « كذلك قال ريتشارد المسكين » فأشاع ذلك في نفسي مع توالي الأيام شيئاً من الرضا ، لأنه لا يدل على العناية بأرائي وحسب بل يدل مع ذلك على أتقى أقبح أصبحت مرجعاً لهم يستشهدون به ويعتمدون عليه ، واننى لأتفى هنا انتى في سبيل الحض على ذكر تلك الحكم وتكرارها قد طالما استشهدت أنا نفسي بكلامى في جد وتوقيـر .

وعلى هذا تستطيعون أن تهدروا أبلع اغبطةى بالقصة التي سأرويها لكم فيما يلى :

« وقت حصانى أخيراً حيث كانت جميرا من الناس تجتمع في بعض الأسواق ، ولم تكن ساعة النبع قد حانت بعد فأخذوا يتهدرون بينماهم عن سوء الحال وأومأوا أخذهم إلى تهذيب من عامة الجماع نظيف البزة فسألهم : بربك أيها الأب ابراهيم . ما ظنك بهذه الأحوال ؟ أليست هذه الضرائب

الثقيلة وشيكه أن تفهي بالبلد الى الغرب ؟ فكيف ترانا قادرين على أدائها ؟ وبماذا تتصح لنا في أمرها ؟

فقام ابراهيم في مجلسه وأجابهم قائلا : « ان أردتم نصيحتي فها أنا ذا أمحضكم ايها في كلمات وجزة . لأن الكلمة فيها الكفاية للعاقل ، وكثير من المقال لا يسلا المكيال كما يقول ريتشارد المسكين .. فأقبلوا عليه يستمعون اليه ورجوه أن يكاشفهم بخطبة رأيه ، فقال :

« أيها الصحابة ! أيها العبيدان . إن ضرائب ثقيلة حقا ، ولو كانت ضرائب الحكومة وحدها هي التي نطالب بها لكان من الميسور لنا سدادها ، ولكننا نتوء بضرائب شتى يتضاعف ثقلها على بعضنا .

« فنحن متقلون بضعفينا من جراء كسلنا ، ومتقلون بثلاثة أضعافها من جراء كبرياتنا ، ومتقلون بأربعة أضعافها من جراء حماقتنا ، وكلها من الضرائب التي لا يستطيع الجبار أن يخففوها عننا بالتسبيط أو التسيئة ، فعلينا أذن أن نصغي للنصيحة الحسنة وترقب من ثم شيئا ينفعنا ، فإن الله في عون من يعين نفسه كما قال ريتشارد المسكين في تحريم ثلاثة وثلاثين .

« إنها لحكومة قاسية تلك الحكومة التي تسمو رعاياها أن يفرغوا عشر أوقاتهم لخدمتها ، ولكن الكسل يسمو الكثرين منا فوق ذلك لو أتنا أحصينا الساعات التي ذهبت منها هدرا في التوانى والتهانى لا نعمل شيئا أو نعمل ما ليس بشيء من ضروب اللهو والمجانة ، وإن الكسل ليس قم أبدانا مذ كان الركود كالصدا يليل منها ما ليس بيده الجهد والتعب ، وإن يزال المفتاح العامل لاما كما قال ريتشارد المسكين . وكذلك قال إننا ما دمنا نحب الحياة فلا ينبغي أن نهرط في الوقت لأن الوقت هو قوام الحياة ، وكم من الوقت تقضيه في غير ضرورة مستسلمين للرقاد ناسين أن الثعلب النائم لا يصطاد دجاجا وأن تحت التراب نوما طويلا كما قال ريتشارد المسكين .

« وَإِذَا كَانَ الْوَقْتُ أَنفُسَ قَنِيَةً فَتَبْدِيدُ الْوَقْتِ عَلَى رَأْيِ رِيشَارْدِ  
الْمَسْكِينِ أَسْوَأُ ضَرْبَ الْأَسْرَافِ ، وَلَنْ يَعُودَ الْوَقْتُ الضَّائِعُ ثَانِيَةً كَمَا قَالَ  
فِي عِبَارَةٍ أُخْرَى ، وَمَا نَسْمِيهِ الْكَفَايَةَ مِنَ الْوَقْتِ كَثِيرًا مَا تَنْظَرُ فِرَاهُ دُونَ  
الْكَفَايَةِ . فَعَلِيْنَا أَذْنَ أَنْ نَمْضِي قَدْمَا عَامِلِينَ ، وَأَنْ نَعْمَلَ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْمَلَ  
فَتَنْجِزَ الْكَثِيرَ وَلَا نَعْانِي مِنَ التَّلَقُّقِ وَالْعُمُرِ غَيْرِ الْقَلِيلِ ، وَكُلُّ شَيْءٍ صَعِبٌ  
مِنَ التَّهَاوُنِ وَالْكَسْلِ سَهُلٌ مَعَ السُّعُيِّ وَالْاجْتِهَادِ كَمَا جَاءَ فِي كَلَامِ رِيشَارْدِ  
الْمَسْكِينِ ، وَمِنْ فَاتَهُ التَّبَكِيرُ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَنَاءُ سَحَابَةُ النَّهَارِ وَأَتَى عَلَيْهِ اللَّيلُ  
وَلَمَّا يَنْجِزَ مِنْ عَمَلِهِ مَا يَنْجِزُهُ الْمُبْكِرُونَ ، وَمَا أَخْرَى الْكَسْلِ فِي خَطْوَاتِهِ  
الْبَطَاءِ أَنْ يَدْرُكَهُ الْفَقْرُ عَلَى عِجْلٍ كَمَا قَرَأْنَا فِي تَقْوِيمِ رِيشَارْدِ الْمَسْكِينِ  
الَّذِي يَقُولُ هَذَا وَيُزِيدُ عَلَيْهِ أَنْ ادْفَعْ عَمَلَكَ وَلَا تَدْعُ عَمَلَكَ يَدْفَعُكَ ، وَإِنْ  
الْتَّبَكِيرُ فِي النَّوْمِ وَالْتَّبَكِيرُ فِي الْيَقْظَةِ صَحَّةٌ وَثَرَوَةٌ وَحِكْمَةٌ .

« وَأَحَسِبْنِي أَسْمَعْ بِعُضُوكَمْ يَقُولُ : أَلَا يَجُوزُ لِلْأَنْسَانِ أَنْ يَسْعِ  
لِنَفْسِهِ بِبَعْضِ الْفَرَاغِ ؟ فَأَنَا قَائِلٌ لِكَ أَيْهَا الصَّدِيقُ مَا قَالَهُ رِيشَارْدُ الْمَسْكِينُ :  
أَحْسَنُ اسْتِخْدَامَ وَقْتِكَ أَنْ أَرْدَتَ أَنْ تَنْعَمَ بِقَسْطِ مِنَ الْفَرَاغِ ، وَمَا دَمْتَ  
لَا تَضْمِنُ دِقْيَةً فَلَا تَقْدُفُ بِسَاعَةً مِنْ يَدِيكَ .

« أَنَّ الْفَرَاغَ وَقْتٌ يَنْتَعِمُ بِهِ ، وَفِي وَسْعِ الرَّجُلِ الْعَاقِلِ أَنْ يَجِدْ هَذَا  
الْفَرَاغَ وَلَيْسَ ذَلِكَ فِي وَسْعِ الْمُتَبَطِّلِ الْكَسْلَانِ ، وَصَدِقَ رِيشَارْدُ الْمَسْكِينُ  
حِيثُ يَقُولُ : أَنَّ حَيَاةَ الْفَرَاغِ وَحِيَاةَ الْكَسْلِ شَيْئًا مُخْتَلِفَانِ . أَفَتَحْسِبُونِي  
أَنَّ التَّهَاوُنَ يَعْطِيْكُمْ مِنَ الرَّاحَةِ فَوْقَ مَا يَعْطِيْهِ الْعَمَلُ ؟ كَلَّا . فَإِنْ رِيشَارْدُ  
الْمَسْكِينِ يَقُولُ : تَأْتِيَ الْمُشَكَّلَاتُ مِنَ الْكَسْلِ وَتَجْمِعُ الْمُشَفَّهَةَ مِنَ الرَّاحَةِ  
فِي غَيْرِ جَدْوِيِّ . وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَوْدُونَ بِغَيْرِ عَمَلٍ أَنْ يَعِيشُوا عَلَى حِيلٍ  
ذَكَائِهِمْ فَحَسْبٌ ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ الْغُرَبَنِ الْكَافِ مِنْ هَذِهِ الْبَضَاعَةِ ، فَيَ  
حِينَ أَنَّ الْاجْتِهَادَ يَأْتِي بِالرَّاحَةِ وَالْوَفْرِ وَالْاحْتِرَامِ . وَدُعُوا الْمُسَرَّاتُ تَتَبعُكُمْ  
وَالْغَازِلُ الدَّوْبُ عَنْهُ « شَلَةً » وَافِيَّةً ، وَإِذَا كَانَتْ عَنْدِي بَقْرَةُ وَشَاءَ  
فَكُلْ عَابِرٌ يَقْرَئِنِي التَّحْيَةَ ، كَذَلِكَ يَقُولُ رِيشَارْدُ الْمَسْكِينُ .

وَعَلَيْنَا مَعَ الْاجْتِهَادِ أَنْ تَثَابِرَ وَتَنْتَظِمْ وَتَتَبَهَّ ، وَأَنْ تَنْظَرُ فِي عَمَلِنَا

بأعيننا ولا تشكل فيه على غيرنا ، وصدق أيضا ريتشارد المسكين الذي يقول : « ما رأيت شجرة كثيرة التنقل ، ولا أسرة كثيرة الترحال ، إلا كانت في ثمارها دون زميلتها التي تتنظم على حال »

وكذلك يقول : « الاتصال ثلاثة نكبة كنكبة الحريق » ، وكذلك يقول : احفظ دكانك ودكانك يحفظك ، وكذلك يقول : ان أردت أن تجز عملك فامض أنت وإن لم ترد فأرسل فيه من ينوب عنك ، ومن أراد أن يسعد بالمرات فلا بد له من مقاد أو سياق ، وعین السيد أفعل من كلتا يديه ، وقلة العناية أفتح ضررا من قلة المعرفة ، وإذا قصرت في مراقبة صناعك فأنت تفتح كيسك لهم وتتركه ، والاعتماد الكبير على الغير يجر الخراب على الكثير ، والناس في هذه الدنيا كما جاء في التقويم لا تتحقق لهم النجاة بالثقة والاتكال بل بقلة الثقة والاتكال ، وعناية الإنسان بنفسه هي المجدية عليه ، ويقول ريتشارد المسكين أيضا : المعرفة للدارس والثروة للمعتنى كالقوة للجسور المقدم وتعيم السماء للصالح الورع . أو كما قال كذلك : ان أردت لخدمك خادما أمينا وخادما ترضاه فاخدم نفسك . وإنه لينصح بالمراقبة والاشراف حتى في صغار الأمور . اذ يحدث كثيرا أن قليلا من الاهتمام يجلب البلاء الكبير ، وقد ضاع مسار فضاع الحدوة ، وضاعت الحدوة فضاع الحصان ، وضاع الحصان فضاع الفارس حيث أدركه العدو وقضى عليه ، من أجل مسار في حدوة حصان .

هذا في أمر الاجتهاد — أيها الأصدقاء — وأمر عناية المرء بعمله ومواته له بنفسه ، ولكننا حريون أن نضيف القصد إلى الاجتهاد اذا أردنا أن نستوثق من ثمرة اجتهادنا . فان الذى لا يحسن الادخار كما يحسن الكسب يظل أنه على المدى طول حياته ويموت وهو لا يساوى فلسا مما كسب ولم يدخل . وصدق ريتشارد المسكين اذ يقول : ان المطبخ السمين وصية هزيلة ، وكم من ضيعة ضاعت لوقتها متذرك النساء الغزل في سبيل الشاي ، وترك الرجال العرش في سبيل الكأس .

وأله ليقول في تقويم آخر : إن أردت الغنى ففكـر في الجمع كما تفكـر في الـطلب ، وما استطاعت فتوح الأسـيـاز في أمـريـكا أن تغيـيـم لأنـهم بدـدوا أكثر مما غـنمـوه .

بعدها اذن للصرف وعاداته ، وأماناً اذن من الزمن وغدراته ، اذ لا يقى  
لديكم بعد الخلاص من ربيقة السرف ما تجدونه اليوم من علل الشكوى  
والتبزم بسوء الحال وتقل الضرائب وتكليف البيوت ، وصدق ريتشارد  
المسكين مرة أخرى فيما قال حيث قال : إن النساء والخمور واللعلب  
والغرور ، تتقص من الثروات وتزيد من المطالب والمحاجات ، وإن تربية  
رذيلة واحدة تكفى ل التربية طفلين ، ولعلمكم تظنون حيناً إن قليلاً من  
الشاي أو قليلاً من الشراب أو قليلاً من النفقة يزداد على تكليف الطعام ،  
أو قليلاً من البذل يزداد على ثمن الكساء ، أو قليلاً من الدعوات والولائم  
يدين حين وحين لن يتجم عنده شيء كثیر . فاذكروا اذن ما يقوله ريتشارد  
المسكين اذ يقول : حذار من تشيع القليل فإن فقرة صغيرة تفرق السفينة  
الكبيرة ، ومن أحب اللطائف والقطائف أقام الحجة للسائل والأفاق ،  
وان الحمقى يسطرون الموائد والحكماء يأكلونها ..

ولنختم الآن هذا الحديث فنقول : إن التجارب مدرسة غالبة ولكن الحمق لا يتعلمون في غيرها ، ولعلهم لا يحسنون التعلم فيها بعد ذلك فاتنا نستطيع أن نسدى النصح ولا نستطيع أن نسدى الخلق والسمجية ، واذكرروا على كل حال إن الذين يتلقون المشورة لا يتلقون المعونة ، وإن الذى يصم آذيه عن نصيحة الرشد تكسر ركبته .

وهكذا ختم الشيخ حديثه ، واستمع اليه القوم وأقرروا الرأى وذهبوا على الأثر يعملون بنتيجه ، كأنما كان هذا الحديث موعظة من مواعظ المتأبر في المعابد ، فما هو الا أن فتحت السوق وبدأ البيع والشراء حتى تهاقروا على السلع يبذلون فيها المال عن سعة ولا يبالون تحذيره من السرف وخوفهم من الضرائب الثقال . وألفيت الرجل الطيب قد وعى ما كتبت في تقويماتي وهضم كل ما دوته فيها خلال هذه المئتين الخمس

والعشرين ، ولا بد أن الاشارة الى " كرة بعد أخرى قد أسمت كل من  
سمعها سوائى ، وإن كانت قد طببت خاطرى وأرضت غرورى ، مع على  
أتنى لم أكن صاحب تلك المحكمة ولم يكن لي مقدار عشرها ، وإنما هي  
حصاد الأجيال والأسلاف .

على أتنى قد عولت أن أتفق بصداتها و كنت أتوى أن أبتاع قماشا  
لسترة جديدة فعدت من السوق معتزماً أن ألبس سترى العتيقة فترة  
آخرى .

أيها القارئ :

إنك إن صنعت مثل صنيعي كان شعك منه مثل شعى ، واتنى على  
الدوار رهين خدمتك ..

٧ يوليو سنة ١٧٥٧ .

## رسائل

تعد رسائل فرنكلين بالآلاف ، نشرت في مجموعات متعددة حسب موضوعاتها أو حسب الجهات التي أرسلت إليها ، ومنها العام الذي يرتبط بالسياسة والعلم والمصالح القومية ، ومنها الخاص الذي يراسل به أهله وذويه وخاصة صحبه ، ويفسر في الأعم الأغلب على التحية وأداء الرأي في المسائل البيتية .

وكل هذه الرسائل مما يصح أن يوصف بالكتابة الفرنكلينية ، وترى في بها الكتابة التي تسم بطابع الرجل وتتم على ملامح نفسه وعاداته تفكيره ، وليس المراد بهذا أتنا نقرأ الرسالة بغير توقيعه فنعلم أنها من قلمه ، فان هذه الشخصية ربما صدق على الكثير من كتاباته ولكنها لا تصدق عليها جميعها ، ولكن المراد بالكتابة الفرنكلينية أتنا اذا بحثنا فيها لم نخطئ فيها دلالة على خلقه أو رأيه أو شواغل عمله ، وعلى سبيل التمثال نشير الى رسالة وجيدة مكتوبة في مسألة مألوقة في المراسلات بين الاخوة والأقارب كتبها الى أخته جين Jane بمنى Benny الى نيويورك ، فقال لها في أسطر معدودات: « اذا كتستم على رغبتكم في ارسال بمنى فأرسلوه على أول مركب الى نيويورك واكتبوا معه سطراً موجها الى مستر جيمس باركر الطباع ... وآنا على ثقة من حسن معاملته هناك وسألتقي خبراً عنه في الأسبوع نفسه ، وأوصوه أن يكون على الدوام بشوشنا مرحباً مستعداً لعمل كل ما يؤمر به وكسب الرضا من كل من يعمل معه ، فهذه خير وسيلة لاقتناء الأصدقاء ، ومحبتي لك يا أختي العزيزة لحسن رعايتك لأبينا في مرضه ».

فهذه الرسالة « فرنكلين » في أكثر من سمة واحدة ، لأنها لا ينسى فيها المخلصة التي عرفت عنه في أدوار حياته من صباح الى اواخر أيامه

وهي العرض على كسب الأصدقاء ولفاء المفاضلة والعداء ، وهي تطابق حكمته التي كررها كثيراً وفحواها أن يحسن الإنسان إلى الصديق لينتقم له ويحسن إلى العدو ليستدنه أو يعيده إلى مودته ، وهذا مع البر بالأهل والعناية بأداء الواجب واتجاه ما يفرضه على كل من ينط به عمل يؤديه .

ومثل هذه السمة لانخطاها في رسالة من رسائله العامة أو الخاصة ، فهي تمثله للقارئ ، حينما فيها من روح الفكاهة والسخرية الطيبة ، أو بما فيها من طبيعة المودة والمسالمة واستنفاد كل حيلة في سبيل التفاهم والاقناع ، أو بما فيها من الدقة والتنظيم واحتساب الاسراف والفضول ، وقد كان يكتب رسائله العامة إلى الصحف على أسلوبه في أول كتاباته منذ نشأته الصحفية الباكرة ، وبعضاً منها في قالب الأمثاليل على ألسنة الآخرين وبعضاً في قالب العذالت الفكاهية ، وبعضاً في قالب التلخيصات المرتبة كما ترتب الدروس الملحقة ، وبعضاً في قالب الحوار بين اثنين أو أكثر من اثنين ، ويجرى حواره على نسق الحوار المعهود في كتب أفلاطون ، آراء متابعة تملئ ما بعدها ويأخذ بعضها بر قالب بعض ، ثم تستدعي ردودها وأجوبيتها كأنها تأتي من قبيل الحقائق المفروغ منها ، وهي كمالاحظ جامع رسائله إلى الصحافة فيرتر كرين Verner W. Crane «مقنعة ولكنها ليست بالدرامية في وضعها »<sup>(1)</sup> أي أنها تقنع الفكر ولكنها لا تثير الشعور ولا تستجيش الخيال كما يحدث عند قراءة الحوار الدرامي الذي ينوع الكاتب شخصه ويز في الأمزجة والدوافع النفسية فتستجيب لها نفس القارئ بما تثيره من دوافعه وطوابعه .

وهذه الرسائل التي ترجمها مقتبسة بغير عناء في الاختيار من أشتات رسائله الخاصة وال العامة ، لا تؤخذ فيها إلا أن تكون معبرة عن فرنكلين في عادة فكر أو سجية شعور أو طريقة عمل ، ولا حاجة إلى العناية الطويل في الاختيار لهذا الفرض لأن كتاباته كما قدمتنا فرنكلينية بطبيعتها في صفة واحدة على الأقل من هذه الصفات .

Letters to the Press 1758 — 1775. (1)

## رد على خطباء الفهود

كتب هذه الرسالة ، بتوقيع مستعار ، إلى صحيفة لندن كرونيكل London Chronicle بتاريخ التاسع من أبريل سنة ١٧٦٧ ردًا على خطباء الفهود الذين كانوا يحرضون الشعب الانجليزي على قمع الولايات الأمريكية وأخذوها بالعنف والصرامة بدلاً من الاصناف إلى مطالبيها الوطنية .

قال :

« لقد كان لأنفسنا خطباؤها ، وقد صنعوا لها في بعض الأوقات خيراً كثيراً كما صنعوا لها الشر الكثير في أوقات أخرى ، وكان أسوأ ما صنعوه من شر على الخصوص يوم نجحوا في إغرائهما بشن الغارة على صقلية فناءت بأبعائها وخسائرها وكان من جرائير تلك الحرب أن الدولة الراهنة سقطت ولم ترجع إلى ازدهارها بعد ذلك أبداً .

« وإن هؤلاء الصياغين بالدهماء بين الأقدمين يخنقهم في مصر الحديث كتاب شرائكم السياسية وكتاب الصحف وخطباء الفهود .

« وما يلقي الناظر أن رجال الجندي المقطعين لهذه الصناعة ، وهم أناس متصرفون بالشجاعة التي لا جدال فيها ، قلما يشيرون بالاقدام على الحرب إلا عند الضرورة القصوى ، بينما يتعالي النفط بالحرب لأنفسه الأسباب من أناس كأولئك الصياغين والثائرة والمحدثين الذين هم بطبيعتهم يهابون أو يحكم أعمالهم البدنية تعوزهم تلك النخوة التي تتبع منها الشجاعة الصادقة ، ويفيدو عليهم كأنهم أشد بني آدم تعشا إلى الدماء .

« وإننا نهى هذا الزمن الذي لم تكن فيه تنفس في أعقاب الحرب الشعواء المرهقة التي أهدرت الدماء والأموال على نحو لم يسبق له مثيل في القارة الأوربية ، فرانا أمام طوائف ثلاث من الخطباء يجتهدون

اجتهدتم في اثارتنا على أصدقائنا والاندفاع بنا إلى حرب مع البرتغال  
ووحرب مع هولندا وحرب مع مستعمراتنا .

« فاما العريان الاوليان فليس في نيتها أن أبحث فيما تتطورهان عليه  
من الحكمة والانصاف ؛ اذا لا أحسب أن انجلترا يخامرها الشك — اذا  
كان الهولنديون قد أساءوا الى أجدادنا قد يحاها قبل مائة وخمسين سنة —  
أن الانتقام منهم واجب في آية لحظة كائنا ما كان مبلغ الصدقة بيننا بعد  
ذلك الاصابة ، وأن البرتغاليين — اذا كانوا يسترون ثيابهم من الفرنسيين  
بأشمان أقل من أثياب الشياطين عندنا — حقيقيون بأن توسعهم ضربا حتى  
يشوبوا الى الصواب ويتخذوا لهم رأيا غير ذلك التفصيل والايشار .

« فاذا سلمنا أتنا من القوة والباس بحيث هدر على ضرب هولندة  
والبرتغال معا ، لسبب أو لغير سبب ، ومعهم أصدقاؤهم الذين يتصررون  
بهم أو بمعزل من أولئك الأصدقاء ، علينا أعداؤنا الذين يستثيرهم ذلك  
الصنيع أو بامان من الأولئك الأعداء ، وسلمنا كذلك أن الهولنديين  
أيضا خليقون أن يضروا لنا بالتفقات الازمة للقتال — اذا سلمنا ذلك  
جيئوا فلا غرض لي الا أن أضع بين يدي ذوي النظر ، بكل خشوع ،  
فرضيا يخطر على البال ؛ وهو أن تكون لنا على تلك الفروض وسيلة أخرى  
لغض الخلاف بين وزرائنا الأسبقين ومستعمراتنا بوسيلة غير قطع الرقاب !

« وكل خطوة تهودنا الان الى السخط على أمريكا : تطاير التشرفات  
والصحف ويُضجع خطباء التهورات بالأكاذيب التي تقول عنها أنها  
تأثير عاصية ، وتستدعي القوة والأساطيل والمجاهف للذهاب اليها ،  
وما يوجد منها هنالك يتبعى أن يستدعي من الأرجاء النائية لاحتلال  
العواصم الكبرى ، وينبعى كذلك أن يساق رؤوس القوم الى البلاد  
الانجليزية لتعليقهم على المشاق وما شابه ذلك ... ولماذا كل هذا ؟

لماذا ؟ أسأل لماذا ؟

نعم . أرجو أن يؤذن لي أن أسأل : لماذا ؟

وجواب لماذا هذه أن القوم يبغون اسقاط الحكومة في هذه البلاد  
وإقامة أنفسهم في مقامها .

فكيف بدأ ذلك كذلك يا ترى ؟

تقول : كيف بدأ ؟ أليسوا جميعاً يحملون السلاح ؟

تقول : كلا . بل هم جميعاً في سلام .

— أفلم يتمتعوا عن أداء التوعيض للمصابين في حوادث الشعب  
الأخيرة كما طلبت الحكومة هنا ؟

— كلا . بل هم قد بذلوا الترضية الواجبة ، وهي — على فكرة —  
ترضية لم تبذل هناك لضحايا الشعب الذي حدث منكم هنا .

— أفلم يشعلوا النار في دار المكوس والجمار ؟

— كلا . إن القصمة كلها أذنب ملققة لا أصل لها على الإطلاق .

— أفلم يتمردوا على القانون البرلماطي الذي ينص على إيواء الجنود ؟  
أفلم يرسلوا إلى الحكومة هنا طالبين الغاء الحجر على تجارتهم والغاء  
قانون الملاحة بهذه المثابة ؟

— إن الجمعية في ولاية واحدة — ولاية نيويورك — هي التي  
أنكرت ذلك القانون ، وإن بعض التجار في تلك الولاية هم الذين  
اجتروا على ذلك الطلب . فإذا سلمنا أن الانكمار والطلب خيانة عظيم ،  
فهل نسلم أن خمساً وعشرين ولاية تعاقب بجزرة ولاية واحدة ؟

هلموا ننظر في سكون في معنى ذلك القانون ومعنى انكاره ومعنى  
الطلب من أولئك التجار .

إن القانون قد صدر من نفس الإدارة التي أصدرت قانون الضرائب ،  
ولعله قد أريد به تيسير ارهاب الولايات لاخضاعها لحكمه ، ولهذا  
اشتملت نسخته عند تدوينها لأول مرة على فقرة تخول ضباط الجيش

أن ينزلوا الجنود في المنازل الخاصة بأمريكا ، ولما عورضت هذه الفقرة أشد المعارضة اتفى الأمر بعدها والاكتفاء باستئجار المساكن الخالية والأبار (مخازن الغلال) لايواء الجنود حيث يزودون بالوقود والمصابيح والفرش وأدوات الطبخ وتهيئة الطعام ، مع خمسة أكواب من العجة أو السدر أو نصف كوب من شراب الروم لكل جندي كل يوم ، وبعض أشياء أخرى لا تؤدي أثمانها جميماً بل تتكلف بها خزانة الأقاليم . وما من وسيلة في الأقاليم لجمع المال غير اصدار قانون من مجلس الولاية يوجب تحصيله ، وعلى هذا وجب أن ينظر إلى الأمر على اعتباره قانوناً صدر هنا ليعززه قانون يصدر من المجالس الأمريكية ، وقد ارتاب بعضهم في صواب هذا الاجراء لأنهم يرون أن المجالس في أمريكا إنما هي برمليات صغيرة وليس لها هيئات تنفيذية أو ديواناً من دواعين الحكومة يعمل عمله تنفيذاً للأمر الذي يصدر إليه ، فاما هي هيئات مشورة وابداء آراء ينظر أعضاؤها فيما يعرض عليهم ليتدبروا متنافعاً وضروراته ووجوه الصواب والامكان فيه ثم يقرروا ما يقررونه حسبما يرون ، فإذا أكرهت هذه المجالس على سن القوانين ، على صواب أو على خطأ — اطاعة لتشريع تعليه عليها هيئة تشريعية أخرى فلا فرع لها باعتبارها هيئة نيابية ولم تبق لها صفتها ولا حقيقة كيانها . والحق أن القانون البرلماني نفسه يلوح عليه أنه أحسن ذلك لأن القوانين الأخرى التي تفرض الواجبات على الأشخاص تنص على عقوبة الرفض والاهمال وعلى الطريقة التي تتبع في تنفيذ تلك العقوبة ، ولم يرد نص كهذا — ولا يعقل أن يرد — في مثل هذا القانون البرلماني عما يطلب من مجالس الأقاليم ، فوقيع في حساب الأمريكيين أنه طلب تنظر فيه المجالس لتقره أو لا تقره ، كله أو بعضه ، حسب اختلاف الأحوال بين الأقاليم ، ومن ثم قبله ولاية بنسلفانيا حيث يقل عدد الجنود على العموم ، ولم تقبله ولاية نيويورك حيث تعبر الجنود جيئة وذهاباً عددة مرات بين بريطانيا والولايات الفرنسية ، وحيث يشعرون بثقل العبء عليهم من جراء تنفيذه ، ولهذا

قبلت الولاية جزءاً من الطلب ووجهوا خطاباً إلى حاكمهم سردوا فيه أسبابهم بأسلوب ملؤه اللطف والاحترام .

وإن كثيراً من الناس ليبدو لهم أن هذا القانون خطأ على التحقيق .  
اذ ليس من السير توضيع سبب حسن لازال الجنود في مكان من الأماكنة بين مستعمرات الملك جميعاً لتزويدها بشيء ما في مقابلة لا شيء ..  
انهم يصطحبون معهم صرفاً على الدوام ، فلماذا لا يؤدى الشمن لكل ما يحصلون عليه ؟

ان هذه التكاليف عبء يتفرد بحمله الأقليم الذي يشق أن يلقى عليه ،  
وهو من ثم غير عادل وغير سواء ، وفي بريطانيا يلقى هذا العبء على أصحاب الخانات ويعتبر كالضررية التي تفرض على أرباب هذه الصناعة ،  
وفي وسعهم تمويض الفرم بزيادة الأجر على التزلاء وتوزيع الضريبة  
بهذا الأسلوب على نحو أقرب إلى المساواة ، ولكن الولاية التي يتحقق  
أن تتعرض لهذا الفرم لاستطاع أن تلقيه على ولاية أخرى مغفاة منه  
بحكم موقعها .

الا أن خطباءنا — خطباء القهورات — ينظرون إلى المسألة نظرة  
ويقررون أن هذا الإنكار المواقف لمجرى القانون عصيان يعاقب بما  
يلائمه . واته لخليق أن يكون اجراء نادراً ذلك الاجراء الذي يجعل  
القانون يفرض شيئاً جديداً ولا يقرر وسيلة تطبيقه ولا العقوبة التي  
ترتب على مخالفته ثم يأتي بعد المخالفة فيقرر هذه وتلك . فتلك فيما  
أرى أول سابقة من نوعها في شئون التشريع ولا تحسب في باب الشرائع  
كما تحسب في باب الفجاش التي تحسب للرعايا ليقعوا فيها . وكذلك  
يكون عصيانه ضريباً جديداً من العصيان . اذ كان المفهوم من العصيان  
دائماً أن يفعل الإنسان شيئاً ... وهذا عصيان يقوم على أن المرء لا يفعل  
شيئاً من الأشياء . فان كان كل انسان يحمل شيئاً في قانون ما أو يدع  
تنفيذ ذلك القانون يحسب ثائراً عاصياً ، فانتي لاخشى أن يكون عدد  
الثوار بيننا أكثر مما نحسب ، ومنهم ، ولا تحصيهم ، أو لئن الذين أهملوا

تسجيل أوزان الأطباق وسداد الضريبة عنها ، وهم فيما أقلن غير قليلين ، ويصح أن يضاف إليهم أولئك الذين يلبسون الحرائر الفرنسية وما شابها من فاخر الثياب .

أما قصة الطلب أو العريضة التي سبقت الاشارة إليها فقد سمعت من بعض التجار أبناء ولاية نيويورك رأيا يقولون فيه إن القوانين التي تقييد التجارة في الولايات لا تضر الولايات فحسب بل يتعداهاضرر إلى المملكة الأم (يعنى إنجلترا) ... وانهم ليذكرون الأسباب التي يبنون عليها هذا الرأى وهي جديرة أن تدرسها هنا ، وقد يتبين لهم على صواب فلا يستحقون الزجر بل يستحقون الشكر والثناء ، والا ففى الوسع القاء الطلب جائبا والأعراض عنه ، فليس الطلب ثورة ولا عصيانا ولكنه في صنيعه اعتراف بالسلطان لمن يتقدم الطلب إليه ، وان مقدميه من رعاياه .

بيد أن الآراء التحيرة تخلق من الجبة قبة في كثير من الأحيان ، وحين يكون الذئب قد عقد العزيمة على مخاصمة الحمل فلا فرق بين وقوفه على اتجاه الماء أو على غير ذلك الاتجاه ، وما أيسر ما توجد التعلمات أو تخلق اذا لم توجد ، ولا مبالغة بالحكمة والانصاف فانهما من وراء العصبان ١

### حادية عن الرق

وهذه رسالة كتبها في الثلاثين من شهر يناير سنة ١٧٧٠ الى صحيفة الإعلان العام Public Advertiser للرد على الذين ذكروا مسألة الرق في أمريكا ليعرضوا بها على المطالبين بالحربيات القانونية من الأمريكيين . قال بعد مقدمة يذكر فيها مناسبة ارسال هذا الحديث « الخيالي » الحقيقى الى الصحيفة :

انجليزى — انكم معشر الأمريكيين تصبحون كلما توهمتم أن شيئا

يسكم فيما تسموه بحرياتكم ، على حين لا يوجد فوق ظهر الأرض من يعادون الحرية كعداكم ، وما أتم الاعنة متعسفين حيث تسع لكم الفرصة كما تسع الآن .

أمريكي — وكيف كان هذا لعمرك ؟

الإنجليزي — أقرأ كتاب جرايتش شارب Granville Sharpe عن الرق .  
فتعلم كيف كان هذا بشهادة العيان .

أمريكي — لقد قرأته .

الإنجليزي — ويعيشك ماذا فهمت منه ؟

أمريكي — أصارحت الرأى أنه في جوهره كتاب حسن ، والى لاعجب بغيرة المؤلف على العربية في الجملة ، ويسري ما أرى فيه من دلائل الإنسانية . غير أنه يتكلم عن الأميركيين عامة فيزعم أنهم لا يشعرون بالحب الصحيح للحرية وأنهم قلما ينفرون من الاستبداد والطغيان وأنهم قلما يتورعون عن تسليط الاستبداد والطغيان بأقصى ما في وسليم من الشدة على عبدهم المساكين ، وهذا ما لست أقره كما أرى لا أقر التائج التي انتهى إليها حيث يخلص من تلك المزاعم الى الكار حق الأميركيين في العربية ، ففي ذلك مجافاة للعدل وغلو في الانحاء على الأميركيين ، مع أغضافه عن أخطاء بلاده ، وليس هذا فيما أرى بالانصاف فضلاً عما فيه من الضرار بنا هذه الآونة على الخصوص ، اذ يحاول أن يصورنا في صورة بغيضة ويغيري بنا من يسيتون النية على ظلمنا واضطهادنا ، منكرا حقنا في الحرية التي ننشدتها الآن .

الإنجليزي — وأى وزير لبلاد المؤلف في تلك المظالم التي يشكوها ؟

وأى كلام من كلامه لا يشمل حكمه معاشر الأميركيين عامة ؟

أمريكي — ينبغي الا يكون كلامه عاماً على اطلاقه لأن الأسس التي يقيمه عليها ليست بالأسس العامة . وهذه إنجلترا الجديدة — أكثر

المستعمرات الانجليزية سكاناً في أمريكا — قليل فيها عدد العبيد ، ومن وجد من هذا القليل فهو في العاصم حيث لا يعملون في عمل شاق ... وأكثراهم ثمة سعاة أو خدم في المنازل ، ويقال مثل هذا عن المستعمرات التي يقل سكانها عن سكان إنجلترا الجديدة ، كنيويورك ونيوجرسى وبنسلفانيا ، وحتى في فرجينيا وماريلاند وكارولينا حيث يعمل العبيد في الزراعة لا يوجدون الا عند الأسر الفنية القديمة على مقربة من مياه الملاحة ، وانهم لقليلون بالقياس الى الأسر التي تقيم وراءهم ويندر أن يوجد لديها العبيد ، ولو أنت عبرت أمريكا الشمالية من أقصاها الى أقصاها لم تجد أسرة من كل مائة أسرة لديها عبيد ، وان الوفا من الناس هناك ليقتلون الرق كما يمقته مستر شارب ويتورعون عن كل ما يتصل به ويدللون جهدهم في الغاءه . فإذا كان من الاجرام في رأى ذلك السيد أن يهتني المرء عبداً فهل من العدل أن نوصم جميعاً بالجريمة ؟ وإذا كان في إنجلترا واحد من كل مائة يخل بحقوق الأمانة فهل من العدل أن يقال إن الانجليز كلهم لصوص وسارق ؟ زد على ذلك أن الذين يقتلون العبيد ليسوا جميعاً قساة أو طفاة ، وكثيرون منهم يعاملون عبيدهم بالرفق والمرؤة ويتكلمون بهم في حالي الصحة والمرض كما تتكلمون هنا بالعمال القراء ، وما هؤلاء العمال القراء عبيداً بالاسم ولكنهم مأشبهم بالعبيد حين تضطرهم الشريعة الى العمل كل تلك الساعات في خدمة سادتهم بتلك الأجور ولا تسمح لهم بطلب المزيد أو المساومة على الأجور بل تسجنهم في بعض المشاغل ان رفضوا العمل بالأجر المقدر وقد تسجن السيد اذا قبل أن يزيدهم في الأجور ، ويحدث كذلك في الوقت نفسه أن يحال بين الصانع الذكي وبين السفر من هذه الجزيرة اذا منع في خارجها أجراً أكبر من أجراه فيها .

أما وزر إنجلترا في المظالم الأمريكية فليذكر سيدي أنها هي التي بدأت بتجارة الرقيق وأن تجارها من لندن وبريسنول وفربول وجلاسكو يرسلون سفنهم الى افريقيا لشراء العبيد . فإذا أساء التجار استخدام

الوسيلة في اقتناص العبيد ، وإذا ثنت الغارات لاحتتجان الأسرى ، وإذا استدرج الأحرار إلى متون السفن ثم سيقوا إلى الأسر غيلة وغدرا ، وإذا بذلك الرشى للأمراء الصغار إغراء لهم ببيع رعاياهم وهم في الحق طلاقة من العبيد ... إذا حدث هذا كله فهل تقع جرائر هذه الم sistات كلها على عاقق أمريكا ؟

أنكم تجلبون العبيد اليانا وتروننا بشرائهم ، ولست أريد أن أسوغ وقوعنا في الغواية ، ولكنني أقول أنكم اذا سرقتم الناس تبيعونهم لنا ونحن نشتريهم فلتذكروا المثل القائل ان المشتري من المسارق والسارق سواء ، وقد وضع هذا المثل للذين لا يعلمون أن آخذ الشيء المسروق في حكم سارقه ، ولكن العكس لم يكن بحاجة قط إلى مثل لتوضيحه ، اذا ما من أحد يجعل أن اللص كمن يشتري منه في المكر والسوء ...

وأنكم لم تفعلوا هذا وتقنعوا به وثبتروا على فعله وحسب ، بل زدتم على ذلك أنكم انكرتم القوانين التي وضعت في أمريكا لصعب تجارة الرق وفرضت الرسائب التقييلة على الموردين للأرقاء وأمرت حكومتكم ببنقضها لأنها ضارة بمصالح الشركة الأفريقية .

إنجليزى — ما سمعت من قبل بقوانين من هذا القبيل وضعت في أمريكا ، غير أن القوانين التي وضعتموها وادعيمها ضرورية لحسن سياسة العبيد بل الخدم البيض ، مما استشهد به مسieur شارب في كتابته لاتدعونا إلى حسنظن ببروعتكم العامة أو باحترامكم الحرية ، ولم يست تلك قوانين آحاد معدودين ، اذا هي مسنونة برأي نوابكم في الجماعات المثلة لكم ، وهي لهذا خليةة أن تنساب إلى الجميع .

أمريكي — ليس الأمر كذلك . ويجوز أن بعض هذه القوانين وضع في المستعمرات التي يربى فيها عدد الأرقاء كثيرا على عدد البيض كما هو الحال في بربادوس الآن وفي فرجينيا من قبل ، وقد تكون تلك القوانين أقسى مما ينبغي من أثر الخوف والظن الغالب بأن الصرامة هي

الوسيلة الوحيدة التي تروض العبيد على الطاعة وتصون على سادتهم حياتهم . أما الولايات الأخرى التي يقل فيها عددهم ولا يخشى الخطر منهم فالقوانين رفيقة والعبيد في كمال القانون من جميع الوجوه إلا أن نصب حساب العريمة ، وبجازى الرجل الأبيض بالموت اذا قتل عبدا يملكه كما يجازى على قتل انسان كائنا من كان . ومن الواجب أن تذكر أن صرامة القوانين على قدر الغباء أو على قدر السوء في خلائق الحكمين . وقد علمتنا التجربة هذه الحقيقة في كل مكان . وقد يخطر لك أن العبيد قوم لطاف ودعاء يسلس قيادهم لمن يقودهم ، وإنهم كذلك بعض الأحيان ولكن الأكثرين منهم على خبث وكيد وضغينة وسوء دخيلة وقسوة بالغة على أشد ما تكون القسوة ، وتجاركم وملحوكم الذين يطبونهم من غابة يعلمون ذلك ويمارون من ترددتهم على السفن السابقة أو المرسية على الشاطئ كل العنا ، وما ظفر العبيد بمن عذابهم مرة إلا أتوا عليهم أجمعين ، وكلما حدث الترد من هذا القبيل غالبه قومكم بما يحسبونه ضرورة لا محيسن عنها من الصرامة والشدة ، وأطلقوا النار على بعضهم أو شنقوهم على ظهر السفينة ، وربما كان من هؤلاء العبيد أناس مجرمون في بلادهم يسعهم أمراؤهم عقوبة لهم على جنایاتهم ويجعلون النفي وال العبودية جزاء لهم عليها كما تجزون أنت هنا من تدينونهم من الأشرار ، وما دامت حكومتكم لا تقبل أن تسن القوانين لخارج العبيد من البلد فهل يحق لكم أن توجهوا اللوم الى تلك القوانين التي تبدو ضرورية لحكمهم وهم في ذلك البلد ؟

البطليزى — لكن القوانين التي تضعونها لمعاملة الخدم البيض لا تقل في قسوتها عن القوانين التي توضع للعبيد السود .

أمريكي — هي كذلك في بعض الولايات ، وبخاصة تلك الولايات التي ينفوون إليها مجرميكم ، وإن الخدم الودعاء ليعاملون في أمريكا معاملة الرفق التي يجدونها في إنجلترا . غير أن الأشرار الذين تدينونهم وترسلون بهم اليانا لا يجد لهم من القمع الشديد بعضا من حسديد . وقد وضعنا

القوانين في ولايات عدة لم يدخلوهم ، وكانت هذه القوانين تفرض هنا على اعتبارها مخالفة لقانون البرلمان ، ولستنا نشكركم على اقتطاعهم علينا ، ونحسبها ببربرية من حكومتكم أن تخلي سجنوها وتتملا بهم محلات بلادنا ، بل نحسبها أهانة من أسوأ الاتهانات ، فان كانت الشرائع الرفيعة تصلح لسياسة هؤلاء القوم فما بالكم لا تبكونهم عندكم وتسوونهم بتلك الشرائع ؟ على أفك خلائق أن تذكر أن الشرائع التي ترمونها بالقسوة قد أرسلت إلى حكومتكم كما ترسّل جميع الشرائع إلى الملك في مجلسه فأبرتها . فان كانت مع هذا عرضة للملام ففضلوا أتم وأحملوا على عاتقكم بعض هذا الملأم !

ايقوسي — لا يحق لكم أن تقولوا إننا نتحمّل الجرائم على بلادكم . اذف وسركم اذا شتم أن تجتمعوا عن شرائهم ، ولو لم يكن من طبعكم الطغيان ولم يكن من هو احكم أن تتخلدوا لكم أتباعاً تسونونهم العذاب وتشبعون بتعذيبهم تلك الشهوة في قوسكم ، وكان لدیکم حقاً ذلك الشعور بالحرية الذي تثيرون به تلك الضجة — لما اشتريتم أحداً من العبيد ولا من الجرمين ، وما احتلتم شيئاً كهذا الرق أذ يبقى بين ظهرانيكم .

أمريكي — الحق كما تقول إننا نستطيع أن نكف عن شرائهم ، وإن كثيراً من العقلاة ليجتمعون عن شراء أحد منهم . الا أن الدنيا فيها العقلاة وغير العقلاة ، وغير العقلاة يطمعهم الثمن البعض في شرائهم ، وعلينا نحن أن نكبح هذا الطمع وأذ نمنع تجاركم أن يصلوا إلينا بتجارتهم البغيضة ، ولكنكم لا تأذنون لنا في ذلك ، ومن أجل هذا قلت إنكم تفخعون علينا العبيد كما تفخون علينا الجرمين . وانني ليدعشنى يا سيدي أن أسمع ملاحظتكم التي تقول فيها إننا لو كنا نحب الحرية حقاً لما سمحنا لشيء كالرق أن يبقى بيننا . فهذه ملاحظة غريبة من بريطاني من أهل الشمال حيث الرق مشروع بحكم القانون لا يزال !

ايقوسي — أحسبك تشير إلى قوانين المواريث وهي لا تشتمل على شيء من الرق ، وقد تفهمت مع ذلك بقانون صدر من البرلمان .

أمريكي — كلا يا سيدى . انتي أعنى الرق في مناجمكم : أعنى المساكين الذين يحفرون الأرض ليستخرجوا منها الفحم لكم . ففى تلك الاتفاق المظلمة التي لاتطلع عليها الشمس عبيد بحکم القانون يتلوهم في العبودية أبناءُهم من اللحظة التي يستطيعون فيها أن يحملوا السلة الى اللحظة التي يختهون بها أعمارهم . وانهم ليتاعون ويشترون مع المناجم وليس لهم من حرية الفساد من هذا الأسر نصيب أكبر من نصيب العبيد عندنا في الفساد من مزارع سادتهم ، واذا كان سواد وجوههم مسوغاً لاستعبادهم فأنتم لا تجدون حتى هذا المسوغ لاستعباد عمال الفحم عندكم . ولنذكر أنهم تحت غبار الفحم الأسود لهم جلود بيضاء ، وانهم أفالس أمناء طيبون ، وهم فوق ذلك من أبناء وطنكم .

انجليزي — يسرني ألاك لاتتحى على انجلترا بمثل هذه الوصمة .  
فاذ عمال الفحم عندنا أحراز كمسائر العمال .

أمريكي — وهل من أجل هذا تزعمون أنكم لا تعرفون شيئاً من قبيل الرق في البلاد الانجليزية ؟

انجليزي — لا يوجد في انجلترا شيء كهذا بكل تأكيد !

أمريكي — أخالنى قادرًا على أن أعرض أمام نظرك ما يقنعك بوجوده اذا اتفقنا أولاً على تعريف الرق ما هو ؟ ولئن صبح ما يقوله مؤلفكم من أن اقتتال العبيد يسلب حق المقتى في الحرية لتكونن أتم عشر الانجليز محرومین من هذا الحق حرمان الأمريكيين .

انجليزي — وما تعريفك للرق اذن . أرجو أن تسمعه لنعلم هل نحن متقدون عليه أو غير متقددين .

أمريكي — العبد — فيما أرى — هو كائن بشري يسرق أو يقتضب أو يشتري من غيره أو من نفسه بالمال ويضطر لذلك الى خدمة الآخذ أو الشارى حسب هواه مدى الحياة . وقد يباع مرة أخرى أو يؤجر لنغير سيده ويضطر في هذه الحالة الى خدمة مشترىءه أو مستأجره ،

ولا يضطر الى اطاعة سيده وحده بل يضطر كذلك الى اطاعة اوضع الخدام لديه ، فيحضر متى استدعاه وينصرف بأمره ويقيم حيث يرتضى له الاقامة ولو بعث به الى أقصى أطراف الأرض وأوخر الأجواء ، وعليه أن يلبس الملابس التي يختارها له سيده ولا يلبس غيرها ولو لم تكن من لباس العرف الشائع وكان الارتداء بها علامة من علامات العبودية ، وعليه كذلك أن يتقبل الطعام الذي يفرضه له سيده أو يتقبل القدر الذي يعطيه أيام من المال بدليلاً من الطعام والكساء . وينبغي الا يفارق مكان الخدمة بغير إذن مولاه وأن يخضع للجزاء الصارم عقاباً له على أيسير الهفوات ، وأن يسامم الضرب بالسياط ، بل القتل ، عقاباً له على الآباء من الأسر أو على عصيان الأمر ... أحسب أن كائناً بشرياً كهذا إنما هو عبد في كل ما يريد من العبيد ويفرض عليهم .

انجليزي — أوقفت على تعريفك . الا أنت على يقين ، نعم على يقين ، انه لن تجد في الجلترا أحداً بهذه الصفة .

أمريكي — كلا . بل عدة ألوف اذا كنت قد أحسنت وصف الجندي الانجليزي أو الملاح الانجليزي بذلك التعريف . فالملاح كثيراً ما يجبر على الخدمة ويترزع من جميع روابطه وعلاقاته ، والجندي يشتري عادة بدينار وبعض دينار في سوق التجنيد ، ولسيمه أن يبيع عمله من يشاء من الأمراء الغربياء ، أو يؤجره بما يبرمه من المعاهدات ويقذف به الى حيث يرمي أو يرمي في المانيا أو البرتغال أو غانا أو الجزر الهندية الغربية ، وهو مقيد بالعمل مدى الحياة يصدق عليه كل حرف مما ذكرته في ذلك التعريف ، وقد يتخطى الرق الانجليزي في حالة من الحالات كل ما اتيت اليه من الحدود في الديار الأمريكية .

الإنجليزي — وماذا تعنى ؟

أمريكي — نحن لا نستطيع في أمريكا أن نأمر العبد بعمل لا يستقيم مع الخلق أو مع الشريعة ، ولا نستطيع مثلاً أن نأمره باقتراف جريمة

القتل ، ولو أمرناه بذلك لحق له أن يأبى وتقره القوانين على الآباء .  
ثير أن الجندي مجبر على طاعة كل أمر أو يعرض نفسه للموت ، ولو كان الأمر كأمر هيرود بقتل كل طفل دون السنين أو بقطع رقاب الصغار في المستعمرات أو باطلاق النار على النساء والأطفال في بطاح سان جورج ( اشارة الى مذبحة سنة ١٧٩٨ )<sup>(١)</sup>

ويسلط فرنكلين مثل هذا المثل « المنطقى » لاقناع مخالفيه داخل بلاده في مسألة الرق كما سلكه في مناقشة المخالفين خارج بلاده لاقناعهم في هذه المسألة ، وقوام الاقناع عنده في الحالتين أن يأخذ المخالفين له بما يديرون به ويسلمونه وأن ينبههم إلى أحوالهم التي يتغلبون عنها ولا يلتقطون إلى مزاها وأن يرثيم أنهم يصلبون بالحجارة التي يسوقونها قبل أن يصيروا بها غيرهم ، وهذا الأسلوب المنطقى أفشل الأساليب في الزام حجتهم ، لأنها في النضال المنطقى بمثابة قتل الوجوم الى معسكر الخصم من داخله ليشتغل بنفسه عن مهاجمة غيره .

وقد تقدم أن فرنكلين كان يقول الله يرحم برسول المفتى الأكبر من القسطنطينية اذا طاب للمفتى الأكبر أن يوفده الى الديار الأمريكية ، ولكنه في الرسالة التالية يذكر أنصار الرق في بلاده بحجة القراءة الذين كانوا يستخدمون شواطئ المغرب بأفريقيا الشمالية لاقتناص ركاب السفن والاتجار ببيعهم والتعلل بالدين لاستباحة رقابهم ، وكان بعض أنصار الرق — مستر جاكسون مندوب ولاية جورجيا — قد ألقى خطاباً في مجلس النواب — يفتده به أقوال المعارضين على النخاسة أو تجارة الرقيق ونشرته صحيفة الفدرال جازيت Federal Gazette ، فكتب فرنكلين الى الصحيفة يرد عليه بهذه الأسلوب التمكمي الذي يشبه « محاكاة الصوت » للسخرية والتنديد ، وكان تاريخه يوم السادس والعشرين من شهر مارس سنة ١٧٩٠ قبل وفاة فرنكلين ب نحو ثلاثة أسابيع :

(١) من كتاب رسائله الى الصحف المتقدم ذكره .

## خطاب سيدى محمد ابراهيم

سيدى محرر الفدرال جازيت .

قرأت أمس في صحفتكم الغراء خطاب مستر جاكسون في مجلس النواب يستنكر به تعرضهم لمسألة الرق ومحاولتهم تحسين أحوال الرقيق ، فذكرنى خطابه هذا بخطاب ألقى قبل مائة سنة بلسان سيدى محمد ابراهيم عضو الديوان بالجزائر كما أثبته مارتن في سجل قنصليته سنة ١٦٨٧ . وكان هذا الخطاب معارضًا لجماعة الطريقة الصوفية التي توصلت الى الديوان أن يأمر بالغاء القرصنة والنخاسة لأنهما تناقضان العدل والانصاف .

إن مستر جاكسون لم يستشهد به ولعله لم يطلع عليه ، ولهذا يجدو من براهينه وذرائعه أن عقول الناس ومنافعهم تدين وتدان على منهج واحد في جميع الأمم والأقاليم كلما اتفقت المطالب والأحوال ، وهذه هي ترجمة الخطاب الأفريقي المشار اليه .

بسم الله . الله أكبر . ومحمد نبيه ورسوله .

... ترى هل فكر أصحاب هذه الطريقة في عواقب الاستجابة لرجائهم؟ وكيف ترانا نصل الى البضاعة التي ثانى من البلاد المسيحية ولا غنى لنا عنها اذا نحن كفينا عن شن الغارة على المسيحيين؟ ومن الذي يزرع لنا الأرض في هذه البلاد العطارة ان لم تختذل منهم عبيداً مسخرين؟ ومن الذي يؤودي لنا عمل الخدم في المدن والبيوت؟ لا يقول بنا الأمر يومئذ أن نصبح نحن العبيد المسخرين لأقسىنا؟ ألسنا هنا أحق بالرحمة من أولئك الكلاب؟

لدينا الآن خمسون ألفاً في الجزائر وحولها يتقصون يوماً بعد يوم ان لم يأت المدد من جديد ، فان كفينا عن افتتاح سفن الكفرة واسترقاق الملائين والمسافرين على متواها فلسوف تصبح أرضنا هملاً لاقيمة لنا

لقطع العمل في زراعتها ، وسوف تهبط أجور بيوتنا في المدينة الى نصفها وتندى موارد الخزانة العامة تبعاً لذلك . ومن أجل ماذا كل هذا يا ترى ؟ كل ما هناك أن نرضى أهواه طائفة من أصحاب الأحوال والبدوات يعودون لو أتنا أطلقنا الأرقاء الذين في حوزتنا فضلاً عن تحريم المزيد من المدد الجديد .

وبعد ، فمن الذي يعرض سادتهم عن ضياعهم ؟ أتعوضهم الدولة ؟ أفي خزانتها كفاية من المال ؟ أتري يعوضهم أبناء تلك الطريقة أم في وسعهم هذا التعويض ؟ أم هم في سبيل الاصحاف الذي يرعنونه لأولئك العبيد يتباينون عن انصاف أولئك السادة المظلومين ؟ وهبوا أطلقنا عيدهنا فماذا يصير من أمرهم بعد اطلاقهم ؟ إن قليلاً منهم من يعودون الى بلادهم لعلهم بالصاعب التي تستلزمهم هناك ، وهم لا يؤمنون بديتنا ولا يسرون على نهجنا في حياتنا ولا يتبعون عاداتنا ولا يقبل أبناء قومنا أن يدعسو أفسهم بمخالطة أنسابهم . فهل ترانا نستقيهم بينما متسللين في طرق قاتنا ؟ أو قرانا ترك أمتتنا لمن يريد منهم أن يسرقها ويسلبها ؟ إن الذين طال بهم عهد العبودية لن يعملا لكتسب أقواتهم ان لم يجدوا من يكرهم على العمل لها ، وماذا لمعري في معيشتهم اليوم من السوء أو مما يستدر الرحمة والاشفاق ؟ ألم يكونوا بعيداً في بلادهم قبل هذه البلاد ؟ أليس بلاد الأسبان والبرتغال والفرنسيين والإيطاليين مسخرة في طاعة حكام مستبددين ؟ أليس إنجلترا تسم ملاحيها سوم العبيد وتقبض عليهم حكومتهم كما تشاء لتجسسهم في سفن العرب وتكرههم لا على العمل وحسب بل على القتال من أجل رزق قليل أو مؤونة تسد الرمق ولا تفضل في شيء ما نسمح به نحن للعبيد . فهل تسوء أحوالهم اذن لأنهم يهعون في أيدينا ؟ كلا . بل قصارى الأمر أنهم يستبدلون رقا برق ، وأقول انه لرق خير من رقه لأنهم يعيشون هنا حيث تشرق شمس الاسلام في روتها وبهائها ، وحيث تتاح لهم الفرصة للالهداء الى الدين الحق والنجاة بأرواحهم من الملاك . أما الذين يمكثون منهم في أرضهم فلا أمل لهم

في هذه السعادة ، ولن يكون ارسال العبيد من بلادنا الى بلادهم  
 الا كاجرام من النور الى الظلمات .

وأعود فأسأله : ماذا عسى أن يصير من أمرهم ؟ لقد سمعت من يقول  
انهم يرسلون الى القفار حيث تتسع الأرض لعيشتهم ويقيرون أحراجا في  
أرضهم . على أنني أحسبهم لا يশطون لعمل قط ما لم يدفعوا اليه  
على الرغم منهم ، وانهم لأنجحى من أن ينهضوا بحكومة حرة لحكم  
أنفسهم ، ولن يلتبشو أن يغير عليهم الأعراب من أهل الباادية فيستعبدوهم ،  
ولكنهم حين يقيرون في خدمتنا يلقون من الرفق وحسن الرعاية على سنة  
الرحمة والمرؤة ، وليس للعمال في أوطنهم كما أعلم نصيب من ذلك بل  
هم على نصيب قليل من الغذاء والمسكن والكساء ، فهم على هذا تصلح  
أمور الآخرين منهم بينما ولا حاجة بهم الى ترقية او اصلاح حال . اذ هم  
هنا في أمان لا يجررون على الجنديه ولا على أن يعمل المسيحيون منهم  
في قطع رقاب اخوانهم المسيحيين كما يحدث فيما يشجر بينهم من العروب .  
فإذا كان الناس من هؤلاء المجاذيب الذين يحتجرون بالغيرة على الدين  
فيما بيننا قد حسن لهم أن يرفعوا العرائض تترى للافراج عن هؤلاء  
الأساري بما كان ذلك من كرم فيهم ولا من مرؤة ورحمة ، وإنما هي  
أعباء ذنوبهم وخطاياهم يرثحون بها ويختيل اليهم أن هذا المطلب خليق  
— لما يتوجهونه من احسانه وفضله — أن ينجيهم من الملائكة وسوء  
الجزاء .

وما أضل هؤلاء المتهوسيين حين يحسبون أن الاسترقاق محرم في  
القرآن ؟ أليس أمر السادة بالرفق وأمر العبيد بالطاعة والأمانة نصا  
على جواز الاسترقاق ؟ كذلك لا يحرم في الكتاب سلب الكفار لأن  
المعلوم منه أن الله قد وهب الدنيا وكل ما فيها لعباده المؤمنين يقتسمون  
ما افتحوا منها .

فلا تستعن بعد الآن لذلك الطلب البغيض ، ولتعلمن أن اطلاق  
الأرقاء النصارى يسلط الكساد والخراب على أراضينا وبيوتنا ويصرم

الكثيرين من رعايانا الأمناء طيبات أرزاقهم فيثير القلق في التفوس ويفرى المتذمرين بالفتنة ويزعزع مكانة الحكومة ويسم الديار بالفوضى والاضطراب ، ولا يخامرني الشك — لهذا — في أن هذا المجلس الحكيم يؤثر سعادة الأمة المؤمنة كلها على أرضاء فئة من أبناء الطريق ، ويعرض عما يطلبون .

ولقد كان من أثر هذا الكلام ، كما أبأنا مارتن في سجله ، أن الديوان اتى إلى هذا القرار :

« إن القول بأن سلب النصارى واسترقاقهم ظلم ومحاجفة للعدل إنما هو على الأقل من الأقوال المختلف عليها ، ولكنه من الواضح أن البقاء على هذه الحالة في مصلحة الدولة . فلا تقبل تلك العريضة بناء على هذا الاعتبار » .

وعلى هذا رفضت العريضة .

ولما كانت البواعث المشابهة تميل بقول الناس إلى ما يشبهها من الآراء والقرارات — أفالا يجوز لنا — يا مستر براون — أن نستخلص من ذلك أن العرائض التي أرسلت إلى برلن انجلترا لالقاء النخامة ، ولا نذكر ما عدا ذلك من المطالب ، وشيكة أن تصير كما تصير المناقشات فيها إلى مصير كهذا المصير .

انتي يا سيدى قارئك المثابر وخدمك المتواضع :<sup>(١)</sup> مؤرخ

### معاهدة مع سيدة

وهذه رسالة من نوع آخر غير الرسائل إلى الصحف وغير الرسائل إلى سائر الأشخاص ، كتبها إلى السيدة بريون Brillon احدى سيدات

(١) اعتمدنا في ترجمة هذه الرسالة على النص الإنجليزى النشور في الجزء الأول من كتاب أئمة الأدب الأمريكية طبع مكملاً Masters of American Literature

المجتمع الرفيع في باريس ، وكان يكتب إليها باللغة الفرنسية فتصصح له أخطاءه وتدرسه على التعبير الفصيح في الكتابة والكلام بذلك اللغة ، وقد كتب إليه من نيس تعابه لأنها انصرف عن الاهتمام بها في غيابها ووجه الشفاه إلى سيدات غيرها ، وكان الخطاب في صيغة المراسم الدولية ، فكتب إليها الرد في صيغة معايدة سياسية وقدم لها بفاتحة تمهيدية (بروتوكول) فقال :

باسي ، في ٢٧ يوليو سنة ١٧٨٢ .

... ما أبعد الفارق بينك وبيني ! إنك تدعين عيوبى كثيرة حتى لقد تربى على الأحشاء ، وأنا لا أرى لك إلا عيوباً واحداً لعله من عيوب نظارى . ذلك ضرب من الطمع يوحى إليك أن تعظمي عاطفى و تستثيرى بما وحدتك حتى لا يقىء فيها لواحدة من سيدات وطنك المحبوبات ، وكذلك تحسين أنها من العوامل التي لا تقبل القسمة إلا تقضى وتفرق ، وهي غلطة في الحساب وفي النظر إلى طبيعة الموقف الذى وقفت فيه وقضيت به على ... . فانك تجردين جينا من كل صلة جسدية غير ما يكون من عنانك أولاد العم عند مقدمهم من الريف . فماذا بقى من العاطفة مما يسوغ لي أن أتجه به إلى الآخريات دون أن يغض ذلك أو ينقص من محبتى إياك ؟ إن خطرات الفكر والتقدير والاعجاب والتوقير ، بل العطف نفسه على موضوعاته ليقبل المضاعفة والزيادة كلما تضاعفت تلك الموضوعات وازدادت دون أن يخل ذلك بحق صاحب العطف الأصيل أو يسوغ له الشكاشة من ضرر . وانه لنفي طبيعته من قبيل تلك الألحان العذبة التي توقيعها على المعرف ببراعتك الألمانية ، ويستمع لها عشرون فيتعطرون بسماعها ولا يغض ذلك من نصيبي الذي تريدين أن يخصني منها ، وقد يتحقق لي أذن أن أطالبك بمنعها أن تصل إلى أذن غير أذنى . وسترين على هذا كيف جاوزت بمتطلباتك حد العدل والتصف ، وزدت عليها اعلان الحرب على " أن لم أذعن لجميع تلك المطالب ،

ولو أني كنت لكان من حق أنا أن أشكوك اليك . وها هو ذا ولدى الصغير لم يسمن ولم يكتنز كعهده بالاطفال في رسومات الرشيقه ، بل هو يهزل ويتوسّع الى عذائق المريء الذى تذكرته عليه أنت أمه الخنون ، ثم ها أنت ذي توعدتني بقصص جناحيه كى يقعد عن البحث عنه في مكان .

ويضليل الى أن العرب التى تشير إليها لا أفهم منها ولا تفهمن ، ولما كنت أنا الأضعف وجوب على أن أصنم ما يصنعه الأحكام ، وأن أبدأ بطلب الصلح ، ولا خسان لدوام الصلح الا أن تصاغ شروطه في قالب الانصاف وتبادل الرضا والموافقة ، وهذه هي مواد المعاهدة التي أعرضها للقبول والابرام .

#### المادة الأولى

يتقرر السلام الدائم مع الحب والصداقه بين الطرفين مدام بربون ومستر فرنكلين .

#### المادة الثانية

لدوام هذه العلاقات قبل المدام من جانبه أذ يكون مستر فرنكلين على استعداد لتلبية الدعوة كلما خطر لها أذ تدعوه الى حضرتها .

#### المادة الثالثة

على مستر فرنكلين أذ يبقى بعد حضوره طالما سمح له بالبقاء .

#### المادة الرابعة

إذا وجد معها فعليه أذ يتناول الشاي وأن يلعب بالشطرنج وأن يستمع الى الموسيقى وأن يستجيب لكل أمر يصدر اليه من جانبها .

#### المادة الخامسة

عليه ألا يحب امرأة قط غيرها .

## المادة السادسة

والذكور فرنكلين يتعهد من جانبه أن ينصرف من عندها حين يشاء .

## المادة السابعة

ويتعهد المذكور أيضاً بالتنفيس كما يشاء .

## المادة الثامنة

وأن يفعل ما يشاء حين يكون في حضرتها .

## المادة التاسعة

وألا يحب امرأة أخرى إلا بمقدار ما عندها من دواعي الحبة .

وأرجو أن أسمع رأيك في هذه القواعد المبدئية ، وفي رأى أنها أصدق تعبيراً عن المقاصد والنيات التي يرضيها الطرفان من أكثر المعاهدات ، وبودي أن ألح وأصر على قبول المادة الثامنة وان لم يكن أملى عظيمًا في قبولها ، وكذلك ألح وأصر على قبول المادة التاسعة وان كنت على يأس من لقاء المرأة التي تستولى مني على حب يضارع حبي إياك أيتها الصديقة الغالية العزيزة<sup>(١)</sup> .. للخلاص بـ . فـ .

## بين العلة والمريض

وكان السيد بيرون قرين السيدة بريون يشكو مرض التقرس الذي أصيب به فرنكلين وحاول كعادته أن يلطف الله باستخراج العبرة منه ، فكتب العوار الآتي مع رسالة إلى السيدة للتسرية عن قرينه في مرضه ، وتكلم عن التقرس بضمير المؤنث وسماه السيدة على سبيل التهكم ، فترجمناه بأم التقارن لتصوير العلة في هذه الصورة بقدر المستطاع .

(١) من كتاب «كتابات فرنكلين الترجمية» تأليف كارل فان دورن  
Franklin's Autobiographical Writings by Carl Van Doren.

فرنكلين — آه . آخ . يارب . ماذا توانى صنعت كى أمستحق  
هذه الآلام القاسية .

أم التقارس — صنعت كثيرا . أكلت أكلا لما ، وشربت شربا جما ،  
وامستسلمة لكسيل قدميك فتركتهما في متعة الراحة الزمن الطويل .

فرنكلين — من ذا يكلمني ؟

أم التقارس — انتي أنا نفسى أم التقارس .

فرنكلين — عدوى بعجره وبعجره .

أم التقارس — لست بعدوك .

فرنكلين — بل عدوى المبين . فانك لا تقنعين بقتل جسدي  
بآلامك المبرحة وحسب ، بل أراك تعملين على تشويه سمعتي الحسنة ،  
وتتهميتنى بالنهم والادمان ، وكل من عرفنى فقد عرف أنه مامن أحدقط رمانى  
بهذه التهمة وزعم انتى أفترط فى الطعام أو الشراب .

أم التقارس — ليحكم الناس كما يحبون . فما أكثر مجاملة الانسان  
لنفسه في هذه الأيام ! وما أكثر مجاملة الأصدقاء للأصدقاء . الا انتي  
انا أعلم أن الطعام الذى لا يحسب كثيرا ، وان الشراب الذى لا يحسب  
لذلك بالنظر الى انسان كثير الحركة ، فهو الافراط يعنيه حين يتعاطاه  
رجل قليل الحراك .

فرنكلين — انتي . آه . آخ . انتى أترض جهد ما أستطيع يا سيدنى  
أم التقارس ، وانك لتعلين طبيعة حياتى « القاعدة » ... فكان في وسعك  
يا سيدنى أم التقارس أن تحسبي حسابها وتعفيني من الآلم بعض الاعفاء ،  
اذ لم تكون غلطتى أنا أذ أعمل في استقرار .

أم التقارس — أبدا . ان منطقك ولباقيتك عبث ضائع ، ومعاذيرك  
لا تساوى قطيرا في هذا المقام ، فانك اذا كان عملك ساكنا مستمرا فقد  
وجب اذ تكون رياضتك وتسلياتك متحركة ناشطة ، وعليك اذ تخرج

للرياضة على قدميك أو على ثلثة جواد ، وإذا عن عليك الوقت فتريض  
 بلعب البليار ، فتعال نحاسبك على منهج حياتك وكيف تصرف في قضاء  
 أوقاتك ... يكون لديك الكفاية من الوقت بعد منتصف النهار وعند  
 الأصل فماذا ترك تصنع في هذه الساعات ؟ إنك بدلاً من شحذ الرغبة  
 في الطعام بالرياضة الصالحة تذهب على تسلية نفسك بقراءة الكتب  
 والرسائل والصحف التي لا تشحّن في كثير من الأحيان أقل التفات .  
 ثم تتناول الغداء الفخم وتتراجع أربعة أكواب من الشاي والقشطة مع  
 قدتين من الخبز والزبدة عليها قطعة من لحم البقر مما لا يحسب فيما  
 أرى من الطعام اليسير الخفيف : على البطون . ثم تذهب إلى مكتبك  
 على الأثر حيث تكتب أو تتحديث إلى الذين يزورونك في شئون العمل ،  
 وتمضي على ذلك إلى الساعة الواحدة دون أن تروض بذلك أقل رياضة .  
 على أتفى قد أغفر لك هذا لأنك كما تقول من طبيعة عملك القرير . ولكن  
 تعال نسألك ماذا تصنع بعد الغداء ؟ إنك بدلاً من التمدد في حدائق  
 أصحابك الذين تتغدى عندهم كما يصنع أولو الفهم والمفطنة ترسيخ على  
 المقدام الشطريج حيث يستطيع من شاء أن يراك مستطرداً في اللعب  
 ساعتين أو ثلاث ساعات . وبذلك هي رياستك الأبدية ، وهي أقل  
 الرياضات موافقة لأصحاب العمل القرير ، لأنها لا تساعد حركة الأخلاط  
 البدنية بل تتطلب الثبات والأبقاء الطويل الذي يبطل تلك الحركة ،  
 وكذلك تلف بيتك بالاستغراق في تلك اللعبة التمسة ، فكيف يتوقع  
 أحد أن يعيش تلك العيشة دون أن تركد أخلاط بدنك وتعرض للفساد  
 ويصبح البدن من جراء ذلك عرضة لجميع الأدواء العضلية إن لم أحضر  
 إليك — أنا أم القارس — بين حين وحين كي أهيج إخلاصك فأصفيها  
 أو أقيها . ولو أنك في زاوية من زوايا باريس بين الأزقة التي لا تخجلها  
 طرق الرياضة تفضي في لعب الشطريج لجاز لك أن تتحمل تلك المسؤولية ،  
 ولكنك تفعل هذا في باسي وفي أوتييل وفي مونمارتر وفي إيفانى وفي سانوا  
 حيث تكثر الحدائق والمنازل والقصاء وينطلق الهواء النقى والأحداث  
 الممتعة النافعة و تستمتع بذلك أكله أو آن ما تأثر على قدميك . غير أنك

تهملها جمِيعاً جماً لتلك اللعبة التمسة لعبه الشطرنج . تعساً لك اذن يا سيد فرنكلين ! اتنى نسيت نفسى وأنا ماضية في نصحيتك . فخذ الساعة هذه القرصنة ، وخذ معها تلك ، وخذ ..

فرنكلين — آه . آه . أوه . هات بربك ما شئت من نصائحك بل من لوادعك ولكن بربك لا تزيدني من هذه التقويمات والتصحيحات ! أم النمارس — على النقيض يا صاح . لن أغفوك من هباءة منها ، فانها لمصلحتك . خذ ! ..

فرنكلين — أوه . آيه . من الظلم يا سيادتى أن تقولى اتنى لا أتريض فانى لا أخذ رياضتى في مركتى حين أذهب الى الغداء وحين أعود .

أم النمارس — تلك بين جميع الرياضات أقلها فحى وأهونها حركة اذ تهتز المركبة على دوالبها ولا زيادة . ولكنك أن تحكم على مبلغ الرياضة في الحركة بسبعين ما تحدثه تلك الحركة من الحرارة . فانك اذا خرست للرياضة في الشتاء وقدماك باردتان لم تلبث ساعة حتى تشعر بالحرارة في قدميك وجميع أجزاء بدنك ، وإذا ركضت على ظهر الجواد فأنت في حاجة الى ساعات أربع للطفر بمثل تلك الحرارة ، ولكنك اذا جلست في مركتك فربما قضيت اليوم كله واتهيت الى قرارك وأنت بارد القدمين . فلا تخدعن نفسك اذن وتقضين نصف ساعة في مركتك ثم تسمينها رياضة ، وما منع الله كل من هب ودب مركبة يمتظيها ، ولكنه منع كل انسان قدمين أكمل وأجمل وأفع ، فاجعل من شكرك الله على هذه المنحة أن تستخدمنا وتنتفع بها . وفي وسعك أن تعرف كيف تتحرك أخلاط الجسم وأنت تتنقل من مكان الى مكان . فلاحظ أنك حين تمشي على قدميك يستغل ثقل جسمك كله بحواليك ثارة الى الجانب الأيمن وثارة الى الجانب الأيسر وتضغط هذه الحركة على عروق القدم وتدفع منها ما تحتويه ، ويتسع الوقت لامتناع العروق مرة أخرى رئيساً يتم التحول من قدم الى قدم ، فيتم بذلك انتظام الدورة في الجسم ، ومن

هنا تأتي الحرارة التي تنشأ في لحظة من الزمن وتشطب الأخلاط وتجري الأمزجة مجرياً فجأة كل شيء على ما يرام : تحرر الوجتات وتتسكن العافية .

« ولتنظر إلى صديقتك في أوتيل — تلك المرأة التي تلقت من الطبيعة نصيباً من العلم الحق أوفر من أنصبة ستة منكم أدعياه الحكمة الذين يقتبسونها من الكتب ، فانها حين تنوى أن تشرفكم بزيارة لها تمشي على قدميها من الصباح إلى المساء وتندع أمراض الكسل كلها تتوزع بين خيلها ، فانظر كيف تحافظ على صحتها بل على محاسنها ، وأتم تنوون زياررة أوتيل فهى المركبة تذهبون ، ولا فرق بين المسافتين : من أوتيل إلى باسى أو من باسى إلى أوتيل .

فرنكلين — إنك تضجريني بهذا الجدل .

أم التارس — صدقت . سأمسك لسانى وأمضى في اداء واجبى .  
خذ هذه الوخزة .. وخذ هذه .. وخذ .

فرنكلين — أوه . أوه . لا بل تكلمى . تكلمى . أتوسل إليك .  
تكلمى .

أم التارس — كلا . إن عندي حسنة من الوخزات حصلت في هذه الليلة ، والباقيه الى الغد ..

فرنكلين — رياه . هذه هي الخس . لقد هلكت . لا يوجد أحد يحمل عنى هذه الآلام ..

أم التارس — اطلب هذا من خيالك . فانها تumb لتشى في مكانك .

فرنكلين — ما أشد قسوتك . تعذيبنى كل هذا العذاب لغير سبب .

أم التارس — أما لغير سبب فلا .. وان لدى ثبتا وافقاً أحصى فيه جميع خطاياك في حق صفتكم لا وكلها مسطرة في وضوح وما من وحزة تتلقاها مني الا وعندى عليها برهان .

فرنكلين — اقرئيه اذن .

أم النقارس — انه شرح يطول ، وسأريكما بعرضها عليك .

فرنكلين — افعلي . فكلى أسماع !

أم النقارس — أتفذكر كم مرة عزمت على التمشي في غاب بولون او حديقة الصيد او حديقتك واثنتين عن عزمك ، ترعم تارة أنه برد وتارة أنه حر وفي ساعة أخرى أنها ريح او أنها رطوبة او أنها ما لست تدرى ماذا من التعديلات ؟ ترعم ذلك وما في كل أولئك من سبب الا السبب الوحيد : وهو أنك كسلان !

فرنكلين — أعترف بأن هذا يحدث .. لفله عشر مرات في كل سنة .

أم النقارس — اعتراف أبتر ، والحق انه يتضاعف مائة مرة وتسعا وسبعين .

فرنكلين — أيمكن هذا ؟

أم النقارس — نعم ممكن لأنه واقع ، ولك أن تطمئن الى صدق كل ما أقول ، وأنت تعرف حدائق مدام بريون وتعلم أنها ما أصلحها للسير فيها .. انك تعرف الدرج الذى تدع منه مائة وخمسين من الأرض الى المرتفى الأعلى ، وانك لتزور هذه الأسرة المحبوبة مرتين كل أسبوع فيما بعد الظهرية ، وانك لانت القائل ان « التمرين » على صعود الدرج وزواله أكبر من التمرين على المشى في السهل . فما كان أجمل الفرص التي تتبع لك أن تجمع بين هذا التمرين وذاك التمرين . فهل اتفقتك بهما ؟ وكم مرة يا ترى ؟

فرنكلين — لا أقدر على الجواب الصحيح عن هذا السؤال .

أم النقارس — اذن أتولى أنا الجواب عنك .. ولا مرة !

فرنكلين — ولا مرة !

أم التقارب — نعم ولا مرة . ففي أيام الصيف الماضي الجميل وصلت  
ثمة عند الساعة السادسة ، وووجدت ثمة تلك البيئة المليحة وأطفالها  
الحسان وأصحابها جميعا على استعداد لزاملك في السير وامتناعك  
بأخذتهم الرائفة . فماذا صنعت ؟ جلست على الشرفة وأنيست على المنظر  
الجميل وعاينت جمال الحدائق من تحتك ولم تخط خطوة واحدة  
لتبطئ إليها وتسير فيها ، وعلى تقدير ذلك طلبت الشاي ورقعة الشطرنج  
ورسخت في مجلسك حتى الساعة التاسعة ولعبت نحو ساعتين بعد  
تناول الطعام ، ولم تعد بعد ذلك إلى منزلك مثيا كي تدرك بعض  
الحركة ، بل عدت إليه جالسا في مركتك . فأية حماقة تلك التي تسول  
لك أن تظن أنك مع هذا السلطان تملك صحتك بغير زاجر مني ..

فرنكلين — الآن أؤمن بصواب ما قال ريتشارد المسكين حيث يقول  
أن ديوتنا وخطابانا أكثر مما نحسب .

أم التعارض — ذلك حق ، وهكذا أتم عشر فلاسفة تمازوون  
أفواهكم بالحكمة وتعلمون عمل العجلاء .

فرنكلين — ولكن أترأك تعدّينها من جناباتي ، أنتى عدت بالمركيتون عند مدام بريون .

أم التفاصيل — بكل يقين ، لأنك قضيت اليوم جالسا ولا يسعك أن تزعم أنك قد تعبت من الجهد والمشقة ، أو أنك في حاجة إلى الترفيه عنك بالجلوس في المركبة .

فرنكلين — فماذا تفترجين اذن ، وماذا ترين آن أصنم بمركتي ؟

أم النقاد — احرقها ان شئت . انها تعطيك على الأقل شيئاً من الحرارة وهي محترفة ! وان كانت هذه النصيحة لا ترتكب فاني باذلة ذلك غيرها . انظر الى الفلاحين المساكين الذين يحرثون الأرض في الكروم والحقول حول قرى بابي وأوتيل وشایوت . المك ستري كل يوم بين هؤلاء الغلاظ المساكين خمسة أو ستة من الشيوخ أو العجائز قد افاحت

ثارورهم ورذحوا تحت وقر السنين في الكدح والمشقة ، وهم بعد العمل المجهد طوال اليوم يمشون ذميلا أو ميلين كي يصلوا الى أكواخهم المصعدة.. فمر سائقك أن يدعوهم الى المركبة ويصلهم الى بيوتهم ، فانه لعمل صالح تدخله لنجاة روحك ، ولكن عدت في الوقت نفسه على قدميك من عند السيدة بريون ليكون ذلك عملا صالحًا تدخله لجسده .

فرنكلين — آه . ما أتقل حديثك !

أم التمارس — نعود اذن الى شغلنا . فلتذكر دائمًا أنتي أنا طيبتك .  
خذ هذه !

فرنكلين — آه . أوه . يالله في طبك من شيطانة !

أم التمارس — افأك لتذكر العجميل اذ تقول ذلك عنى . ألمست قد أنقذتك من الشلل بالقيام على تطبيسك ؟ ألمست قد أنقذتك من أدوات الاستسقاء أو القالج التي كانت وشيكه أن تقضى عليك لو لم أمنها .

فرنكلين — أعترف بذلك ، وأشكرك على ما أسلفت ، ولكنني أرجوك الآن بربك أن تفارقيني فراق الأبد . فقد يلوح لي أن الموت أهون من علاج فيه مثل هذا الوجع ، واذكري كذلك أنتي كنت صديقك ، وأنتي لم أدع أحد لمسارعتك ومنازعتك لا من الأطباء ولا من الرفاة والمخرقين ، فاذ لم تفارقيني الآن فأنت خلية كذلك أن تتهمي بالجحود .

أم التمارس — لا اخالني شاكرة لك كثيرا على هذا . فانتي لأهلا بالرفاة والمخرقين ، وانهم لقادرون وعاجزون عن المساس بي في كثير أو قليل . وكم من طبيب حق الطبيب يعرف أخيرا هذه الحقيقة التي تقول له ان الترس ليس بالداء ولكنه ضرب من الشفاء ، ولا لزوم لتعويق أسباب الشفاء ، ولنرجع — بعد — الى عملنا .. خذ هذه !

فرنكلين — أوه آه . سألك باشه الا ما تركتني وأنا واعذرك منذ اليوم الا ألعب بالشطرنج والا أدع الرياضة كل يوم ، وأن ألزم الاعتدال مدي الأيام والليال !

أم النقاد — أعلم إنك ستفعل . وانك تعد الوعود الجميلة وما تلبيت بعد أشهر قلائل في الصحة والعافية أن تعود إلى عاداتك ومالوفاتك وتذوب وعودك الجميلة كما ذابت ثلوج السنة القابرة . فلنعد إلى حسابنا ولنوازن بين كسبنا وخسارتنا ، ثم إنني بعد ذلك تاركتك على يقين من الرجعة إليك في الوقت اللازم وفي المكان الملائم . فإنه لن مصلحتك وإنني لك كما تعلم لنعم الصديق ! <sup>(١)</sup> .

## الرفق بالحيوان

وكتب فرنكلين إلى السيدة هلفيتس Helvétius قرينة الفيلسوف المعروف رسالة بلسان قططها حين علم أنها تنوى أن تخلص منها بمشورة بعض أصدقائها من القس لأنها تغير على أقفاص الطير التي تربىها في قصرها ، فأرسل إليها هذه العريضة بلسان القطط توصل إليها أن تبقى عليها . فقال :

## حضرت السيدة النابهة العلية الشأن والمأتم

بلغتنا الساعة نبذة من خبر مرعب نخص علينا سعادتنا التي ننعم بها في حظائر الطير والغاب لدريك . بلغنا إنك لما سمعته من بعض الوشایات من أعدائنا ( الأب مورطيه والأب روس ) قد حكمت علينا بالثني وأنتا سمعقل بوسيلة شيطانية وتحبس في باطية ويقذف بنا إلى أعماق النهر حيث ترك فيه لرحمة الأمواج ، وانتا لنسمع في هذه اللحظة التي تكتب فيها هذه العريضة المتواضعة ضربات المطارق في أيدي الحوذية الذين عهد اليهم بصنع الآلة الجهنمية التي فيها هلاكنا .

ولكن — سيدتنا عليه الشأن — أتسمحين أن يقضي علينا هكذا دون أن يستمع للدفاع من جانبنا ؟ وهل تريننا وحدنا من الذين تطعمينهم وتغذينهم تحرم ما في صدرك الحنون من المطف والشفقة ؟ إذا

(١) من كتاب الخزميات The Bagatelles تأليف ريتشارد أميشر Richard E. Amacher

فري يدك الكريمة كل يوم تطعم مئات الفراخ والكتار والحمائم التي لا عداد لها كما تطعم عصافير الجية أجمعين وأسراب الشحارير في غاب بولون ، بل تسخو بالطعام والشراب حتى للكلاب في هذه الرحاب . فهل نحن وحدنا نحرم هذه الخيرات من يدك ولا يكفينا هذا بل نصبح دون غيرنا هدفاً للقسوة التي لا مكان لها بين مأثرك وسجايتك ؟ .. كلا .. إن سجايتك التي انطوت عليها فطرتك الباردة سعيد إلى قلبك من عواطف الحنان ما هو أشبه بهذا الحنان .

وآسفاه ! ما هي جرائمنا التي اجترحناها ؟ .. أنتا تهم — وما أكثر ما تفعله الوشيايات والتهم — أنتا تأكل الفراخ الصغار وتغدر من حين إلى حين على الحمامات وترقب طيور الكنار حتى تندو منها فتقبضها ولدع الغرمان تعيش في دارك آمنة مطمئنة !

لكن هل يكفي مجرد الاتهام للأدانة بالاجرام ؟ أنتا لستطيغ أن تلخص هذه التهم جميعاً في غير عناء ، وينبغى أولاً ألا تنسى أنها لا تقوم على بينة أو برهان .

فإذا سلمنا أن هناك بقية من أرجل الحمامات وريشهما تقدم في معرض البيئة على أدانتنا فهل تصلح هذه البيئة للأدانة أمام محكمة من المحاكم على وجه الأرض كلها ؟

إن الجرائم يخلتها العوز وال الحاجة ، ونحن بحمد الله في رحابك ثماني عشرة قطة تنعم بالخير الجزيل ولا تشعر بالعوز ولا بال الحاجة . فهل يعقل مع هذا أن تخذش اليد التي تلعننا ؟ ألم تبصري بعينيك فراخك تندو منا وتأكل معنا من صحفانا ولا تفترضها حركة مسيئة من جانبنا ؟ وإذا قيل لك أنتا لا تلعن الفراخ وتحن نفس رقاية الأعين علينا ، وأنتا تحت جنح الظلام فجترح ما نجترح من جرائمنا فاما هم أعداؤنا الذين يسترون بجنح الظلام لافتقاء الأقوابل علينا . ويحق لنا أن نرميهم بذلك لأنهم ينسبون إلينا الجرائم الليلية التي يدخلونها مسلكنا في وضع النهار .

وقد يقول أعداؤنا إن حظائر سيدتنا العلية الشأن تكلفهمها خمسة وعشرين لويرا ذهباً (أى ستمائة ليرة في العام) وأنها لا تأكل منها أكثر من خمسين يحسب ثمن الواحدة باثني عشرة ليرة لحسن تدبيرها وعنايتها بنفقتها! فماين تذهب الباقي يا ترى؟

ولنا أن نسأل (أولاً) هل عدت الفراخ وسلمت إليها فتحن مسئولون عنها؟ وهل لحن دون غيرنا موضع الشبهة بين أولئك الأعداء المحيطين بها وأولهم أبناء آدم وحواء الذين يخالفون أن الفراخ لم تخلق في هذه الدنيا إلا ليأكلوها؟ في كل يوم من أيام الآحاد يقدم على باب غلب بولون وفي منتديات أوتيل مئات من صحاف اللحم المفروم . أفلأ يجوز أن يكون بعض فرائض قد تسرب في لطف إلى تلك المنتديات؟ إن كان ذلك كذلك فلم نكن نحن يقينا من يتولى تسليمها إلى أصحاب المطعم والخانات ..

وبعد فتحن لا نريد أن نقف موقف الاعتذار لسارقى الدجاج، ولكنك — سيدتنا — تسمحين لنا أن نلاحظ أن فرائض على اختلاف الأساليب التي تنقصها وتقلل من عددها إنما يجري هذا النقص فيها على متن الطبيعة ويسود عليهما الراحة والرضا . لأنه يحد من تكاثر نوعها وزراعتها على مقدارها ، ولو أنها تركت تنمو وتتكاثر بغير حد مقصود لم يبق في رحابك متسع لها ولم تترك لك فترة للراحة من رعايتها .

أما الحمام فليس بمحظتنا أن فرائض من نسل «كوكو»<sup>(١)</sup> قد غابت حقاً ، ولكن هذا — مع عطفك عليه إلى الحد الذي يسع له أن يحطم حزفك الفالى ما دام يلقط الحب من بذلك — لن يرضيك عن ظلمنا واتهامنا في غير بينة . قلنا هو الدليل الذى يثبت علينا أنت اعتقدينا على ولد واحد من ذريته؟ وهل يحدث بين نوعنا ونوعه أن تقارب وتتلاقي؟ ألا يزال على نأيه عنا والتجاءه إلى السقوف، والقسم

(١) اسم فرخ من الحمام محبوب عند مدام هليفيتس .

لاتفاقنا ما يجيز لنا أن نغضب لكرامتنا ؟ . أتنا لرجو أن تقتش حظيرة الغاب في الربع القادم ونحن كمليون في حالة الكشف عن جريمة من جرائم الفيلة أن نسلم الجنة إلى أيدي العدالة . لكن الحمام لم يستثننا لعن معاشر القلطان الساكنين مرتهنة بالأرض التي ولدنا عليها ، وقد تلود بالهواء وتطير إلى مكان قصى غير هذا المكان ، وربما غار بعضها من ايثار فريق منها لديك على فريق فعادرت الديار طلبا للمساواة في وكن جمهوري من أو كان الطيور ، مؤثرة هذا القرار على البقاء في الديار ، على مشهد من كبريات ( كوكو ) الثثار .

أما التهمة التي رمي بها من أجل طيور الكنار فأنك لترى عفوا بغير عنت أنها محض سخافة وتلفيق . فإن فتحات القفص الكبير الذي ققيم فيه أضيق من أن تسم لمدخلنا ، وربما خطر لنا من باب اللعب واللهو أن نزج بأيدينا خلالها فلا تقدر على اخراجها بعد ذلك بغير جهد ومشقة ، وقد يحدث أحيانا أن نسرى عن أفسستا بالنظر إلى تلك الخلاائق الصغيرة البريئة ولا نذكر أتنا ندين أفسستا باهدار قطرة واحدة من دمها.

ولستنا نحاول أن ندافع بمثل هذا الدفاع عن أفسستا فيما يخص العصافير والشحارير والزرازير التي تسكن من اقتناصها . الا أتنا نسوق في مساق المعاذير أن عدوينا الأجوين طالما اشتكيأ هذه الطيور واستنكرا منها تلك المتألف التي تصيب بها أشجار الكراز والشرات ، وكثيرا ما سمعنا الأب مورولي يصب اللعنات على الشحارير والزرازير التي تغیر على كرومك بغير رحمة ، وتصنع مثل صناعة بتلك الكروم . ونحن نرى - سيدتنا عليه الشأن - أن العنب أهل لأن تأكله الشحارير كما تأكله الآباء ، وأن حملتنا على التابعين المجنحين تذهب سدى إن كنت مع هذا تشجيعن التابعين بغير ريش على اتهاب أضعاف ما يتهمه المجنعون .

وأتنا لعلم أتنا متهمون كذلك باقتناص البلايل التي تفرد تغريدها الجميل كما يقولون ولا تنهب شيئا من البستان . ويجوز أتنا من حين إلى حين نظر حلوقنا بلقطة سائفة من هذا النصيب ولكننا توكل لك

أتنا نعمل ذلك عن جهل منا بمعنفاتها على هذه الفصيلة وانها لتشابهتها بعض المصافير والزرازير الأخرى يلتبس علينا الأمر بينها ولا تدعى لأنفسنا من الخبرة بفن الموسيقى ما تفرق به بين الزقاء والغناء فنا كلها ونحن نحسبها من تلك الزمرة المستباحة لنا . وقد سمعنا من قطة عند الموسيقار بيشيني Piccini أن الخلائق التي لا تحسن من الأصوات غير المواد ، لن تكون حكما خيرا بأصوات الغناء ، وعلى هذا نقول في تسويغ ذلك « الاعتداء » .

على أتنا منذ اليوم سبذل غاية الوضع في التمييز بين الجلkipin وهم المصافير وبين البشينيين وهم البلابل فيما يروى العارفون<sup>(١)</sup> ولا للتبس الا القو عن خطتنا اذا اتفق في جولة من جولاتنا بين الأعشاش أن نشعر على طائفة من البشينيين لم ينجب لها الريش بعد ولم يسمع لها صوت في الغناء فلا تميز بينها وبين طائفة الجلkipin .

وخاتمة التهم التي نرمى بها — يا سيدتنا علية الشأن — أتنا ترك دارك عرضة لذلك الجيش من الفيران يغير عليها في آمان ، ويقال أنها تفرض المقادير الجمة من السكر والحلوى وتعدو على كتب علمائك وحكمائك وتجترئ حتى على قرض أخفاك وصيفتك القدية الآنسة لوبييه وهي تلبسها وتمشي فيها .

ويقال في سياق الاتهام ان العناية الإلهية التي ترعى جميع خلائقها في الحقيقة على السواء لم تخلق القحط الا لاصطياد الفيران . فان هي قصرت في هذه المهمة فلا جزاء لها على التقصير في رسالتها الإلهية غير الأغرار .

والحق — يا سيدتنا العلية الشأن — انه من أيسر الأمور أن تكشف هذه التهمة عن أهواه أعدائنا وأغراضهم الشخصية .. فان السيد

(١) نسبة الى جلك Glück الموسيقى الالماني وبيشيني الموسيقى الابطال وكان لهم حربان متناظران في اندية باريس ومعاهدها الفنية .

كابائين نزيل قدرك الذي لا يزال على استعداد لاختلاس قلب من السكر كلما ساحت له الفرصة لذو مصلحة عظيمة في اقناعك بمحاصمة جشع القيران كلما قرست قطعة من السكر أو شرعت في لحس قدر من المربى قبل أن يصل إليها ، غير أنه يفتر عن القسوة — لا عن الغرض فحسب — إذ يقضى علينا بالموت لأننا لا نحول بين تلك الخلاائق الصغار التي تغتصب ما تقدر عليه من الفرصة لاستغلال خطة النهب التي يقتربها — على جلالة قدره — كل يوم بغير أسف وبغير قدم .. أفق وسعه يا ترى أن يشتبط في قسوته وراء هذا الشطط لو أننا نحن كنا مثله ومثل القيران من آكلات السكر والمربى ؟ ألا يظهر من هذا جلياً أن النهم وحده هو الذي يوحى إليه بمثل تلك البواعث النفسية المنكرة ، وهل تسمحين أنت أن تفسحي لها مكاناً في صدرك الحنون ؟

أما كتب الأدب دي لاروش وزميله العالم الآخر الذي اطلعنا على خطابه في الأكاديمية في صحيفة لفت بها الرفاق التي أعمت بها علينا من لحم العجل ، فأي ضرر ياترى في اقدام القيران على قرضها من حين إلى حين ؟ وما هي جدوى ذلك الاطلاع الواسع على أولئك العلماء ؟ ألم يتحقق لهم أن يعلموا — وقد عاشوا معك — انه لا جدوى من كل معرفة ؟ انهم يعلمون بذلك طيبة خيرة بغير اطلاع على المقوله في أصول الأخلاق ، ويعلمون بذلك مليحة الشمائل بغير اطلاع على كتاب مسجلنا التاريخي منكريف الذي سماه صناعة الارضاء والاعجاب ، ويعلمون بذلك سعيدة بغير اطلاع على مقوله السعادة التي ألفها التسس موبرتويس Maupertius . وانهم لشهود يوميون على مبلغ جهالتهم وهم العلماء بكل تلك المعرف عاجزون عن تحصيل تلك المعرفة التي تعرفينها جيداً وهي القدرة على الاستغناء عن كل معرفة . إن علمك بالهجاء كعلمنا ، وإن خطك يشبه كثيراً أتايسن أيديينا ، وإنك تخطبين في هجاء كلمة السعادة ولكنك تستعين بالشيء نفسه ، دون أن تعلمي كيف تكتب حروفه ، تلك المتعة التي لا يقدرون هم — مع كل ما عندهم من

الكتب — أن يستخرجوها من صفاتها . وأنت بعد تعيضين عليهم من عظمة جهالتك ما يحيط بهم ويطويهم بين أكتافها . فليس في مستطاع الفيران كما أثبتنا بالبرهان أذ يصيرون بضرر بلين . وأما أخلفات الوصيفة فأن الفيران لم تكن لتدركها لو لم تكن الوصيفة تمثى كأنها نائمة ، والعجب منك — سيدتنا — أن تقضى علينا بالموت لأن وصيفتك تمثى بخطوات حازون !

وهذه البراهين على قوتها ليست هي عذرنا الوحيد بين يديك من التلف الذي توقعه الفيران بما في دارك . آه أيتها السيدة العلية الشأن .. بأى ضمير يجوز اتهامنا في حين فراشك أنت تصحين كلبيك المتعشين إلى دمائنا فلا تجترئ على الاقتراب منك لأداء واجب التحية التي تتبعني سيدتنا ؟ كلبان اثنان ! يكفى هذا يا سيدتنا وأنت لا يخفي عليك أنها من نوع تربى على بعضنا وبملائنا الرعب كلما استمعنا إلى نباحهم على مقربة هنا ... كيف يجوز لأحد أن يظلمنا باللام اذا ابتعدنا من الأماكن التي تessim فيها حيوانات بهذه الضراوة وهذه الكراهة المطبوعة لنا وهذه القدرة على اهلاكتنا وهي طلقة لا يكبح لها عنان ؟ ! ..

ولو كان الخطب خطب الكلاب الفرنسية وحدها لأمكن أن تخف وطأتها ويهون الخوف من ضراوتها . ولكنك تدخلين في خدمتك — على خلاف الأوامر من الرقيب العام — كلبا من فصيلة البل دوج تائين به من البلاد الانجليزية التي تكرهنا ضعفين لأننا قطط ولأننا فرنسيات ! وحسبنا ما نراه كل يوم من أثر بفضائه في ذنب أخيانا المبتور لينسوار Le Noir ، ولا شك أن غيرتنا على خدمتك وأذواقنا التي دركت على اشتقاء الفيران كانت قميضة أن تولف منا طوائف طوائف للصديق مسكنك لو لم تكن منفرين منها بالخوف من أولئك الأعداء الذين تسيحجن لهم السيطرة عليها ، فلا يلومتنا أحد بعد الآن على التلف الذي يتحقق بدارك من غارة الفيران ونحن على ما نحن عليه مجردون من كل وسيلة لقمعها واقصائها .

وآسفاه . لقد ذهب ذلك الزمان . ذهب ذلك الزمان الذى كان ذلك القط الفاجر يوم بون Pompon يسيطر على هذه الأماكن جميعا ونام فى حجرك ويضطجع على وسادتك ، وكان ذلك الكلب زميلا الذى يسعى اليوم سعيه لاسقاطنا يتزلف الى ذلك المجدود الذى يحتل الآن مكانه . لقد كنا يومئذ نجوس خلال الدار وأذنابنا مرفوعة فى الهواء ، وكان المرحوم يوم بون ينزل أحيانا الى مشاركتنا فى قسمة الأرانب التى كان صاحب الجلالة يبعث بها اليانا عقب عودته من رحلات الصيد ، وكنا فى ظل تلك الحظوة الفاخرة نسعد بالأمن والسعادة .

ونعود فنكرر الأسف على تلك الأيام التى خلت ، وعلى العهد القططى الذى خلقه هذا العهد الكلابى ، وقد كانت الحظوظ حظوظنا فى أيام دولته ، فاما اليوم فكل ما تملكه من العزاء أن تذهب الى ضريحه وتروى بدموعنا غصون الباذان التى ترفرف على مشواه الأخير .

آه . أيتها السيدة العلية الشأن . لتكن ذكرى ذلك القط الحبيب باعثة فى صدرك على الأقل شيئا من الرأفة بنا ، ونحن لا ندعى أننا من زمرة لاته كان متذمرا للعفة من صباحه ، ولكننا من نوعه على كل حال ، ولا يزال طيفه يحوم حول هذه البقاع ويدعوه أذ تنقضى ذلك الحكم الدموى الذى يتوعدنا ، وكل ما تسدينه اليانا من البقايا الصالحة موقف منذ اليوم الى أواخر أيامنا على الموء لك يومئذ الدائم ، حافظين ذكراه الى أبنائنا وأبناء أبنائنا جيلا بعد جيل .

### شواغل الشيخوخة

وكان الاقتصادي الانجليزى جورج هويتلى صاحب كتاب أصول التجارة صديقا لفرنكلين يهتم مثله بالمسائل الاجتماعية الإنسانية ، فكتب إليه فى الخامس عشر من شهر نوفمبر سنة 1784 خطابا يعتب فيه على تأخير المسائل ويتناول فيه بعض المسائل التى تعرف من جواب فرنكلين إليه ، فكتب إليه فرنكلين جوابه هذا فى الثالث والعشرين من شهر

مايو سنة ١٧٨٥ بعد بذلة وجيزة أرسلها إليه قبل ذلك ، واستهل الجواب المسهب بالاعتذار وأتبعه بالرد على المسائل الأخرى . قال :

« كتبت إليك بضعة أسطر منذ أيام ومعها الوسام ، وكان يتبعني أن أكتب إليك أكثر من ذلك لولا أتنى فوجئت بفضولك شفطني إلى مساء ذلك اليوم ، فاحتلت جهدي كما أرجو أن تختتمني جهدي الآن . فلعلني أفيض في ثرثرة القسوس بما أحب به الآن .

لا أعرف كلمة الفونس Alphonsus التي أشرت إليها مستشهدًا بها على صوابك في التشدد إذ تأبى أن تتقبل علة الشيخوخة عنرا من تأخير المراسلة . فما هي تلك الكلمة يا ترى ؟ إنك على ما أرى لا تشعر بالداعي إلى ذلك الاعتذار وإن كنت كما قلت لي تتصعد إلى الخامسة والسبعين .. لكننى أنا أصعد إلى الثمانين ، أو لعلى أنحدر إليها ، وأدع الاعتذار إلى أن تبلغها أنت عسى أن تكون أدنى إلى قبولي والإيمان بصحته ، وتراء أنت صالحًا للاتصال به يومذاك .

وأوقفتك على آذ النقرس سى ، وإن الحصاة أنسوا ، وأحسبني سعيدا لأننى لم أجمع بينهما معا في وقت واحد ، وأندعو معك أن تعيش وتودع الحياة بمنجاة من هذه وذاك . الا أتنى أزعم أن صاحب القبرية التي أرسلتها إلى على خطأ فيما أوصى بكتابته على قبره وهو : « لم يحصل مقدار ذرة آذ يقول القائلون خيرا أو شرًا في ساكن هذه العضرة » ... فإنه لمن طبيعة الإنسان حيا أو ميتا أن يحب ذكره بالخير ، ولا أخالط معنى من هذه الرغبة والا لما شغل نفسه بما يكتب على قبره .. ولقد كان — كما يظهر من قبرته — يحب آذ يقال أنه وجبل ساخر من أصحاب النكتة ... أو ليس جديرا منه بمثل هذا الشفغان آذ يقال ما كان أصدقه أو أطيبه من إنسان ! وتعجبنى أكثر من هذا خاتمة الأنشودة التي عنوانها أمنية الشيخ التي يذكر فيها النظام انه يتمشى في الشيخوخة البيت الدافء في بلدة من بلاد الريف والجوارد الطبيع والكتب المتعة والرفاق المواقفين من ذوى البشاشة والذكاء ، وفطيرة في يوم الأحد وقنية من

الجمة وأخرى من خمر برجندي الى أذ يقول ويعيد هذه المقوله في  
ختام كل قطعة :

وليستي أملك شعوري كالمملوك المطلق ، وأزداد في الحكمة والخير كلما  
قحست قواي ، ولا تقرس ولا حصاء ، الى أذ تعين الوفاة .

ولقد أضاف الى تلك الأمانى أمنيته الأخرى قائلا : « وبالشجاعة  
التي لا تهن ولا تضعف ليتني أواجه اليوم الأخير ، وليت خيار الناس  
يقولون بعد اليقظة في الصباح أو بعد الشراب في المساء : لقد ذهب بغیر  
نظير ، لأنه حكم شعوره حكم السادة المطلقين ! » (١) .

على أنها محض أمنية . وماذا تفني الأمانى ! إن الأمور لتجري كما  
يتحقق لها . وقد اشتدت ذلك الشيد ألف مرة في شبابي ثم بلغت الثمانين  
فإذا بالمحظورات الثلاثة قد اصطدمت على « فتعرضت للنقرس وللحصاء ولم  
أملك شعوري كالمملوك المطلقين ! وكأنني تلك الفتاة المترفة التي تدرت  
الآلا يكون زوجها من طائفة القسسين ولا من الكنيسة المشيخية ولا من  
أبناء ايرلندا . فلما تزوجت اذا بالثلاثة يجتمعون في واحد : قسيس  
ايرلندي من الكنيسة المشيخية .

وانك لترى أذن التي أتمنى — لسبب معقول — الا أكون في الحياة  
الآخرى كما كنت في هذه الحياة وحسب ، بل أفضل وأسعد ولو قليلا ...  
ولي رجاء في ذلك لأننى كشاعركم أؤمن بالله ، ويريد هذا الرجاء أننى  
أرى في آيات خلقه دلائل القصد والتدير ، وهي ظاهرة في ابداعه وسيلة  
التناسل والتجدد التي تعم عالمه بالنبات والحيوان بدلا من خلقها كل  
مرة من جديد ، وظاهرة كذلك في جعل الأشياء قابلة للرجوع الى عناصرها  
الأولى كى تصلح لاستخدامها في تركيب بعد تركيب بدلا من خلق مادة  
جديدة في كل حين ، وهكذا قد يتركب الخشب من التراب والهواء والنار

(١) صاحب هذه الأبيات فلكي انجليزي هو والتربوب Walter Pope توفي سنة ١٧١٤ .

ثم يعود بعد انحلاله تراباً وماء وهواء وناراً ... وكلما نظرت فلم أر شيئاً ينفي ولا قطرة ماء تضيع في العمار لم يسعني أن أتصور فناء الأرواح ولا أن أعقل أنه يدع الملائين من العقول تزول وينشىء في مكانتها عقولاً أخرى باذى ذى بده كأول مرة . ولهذا أرى نفسى في الدنيا وأعتقد أننى باق فيها على صورة من الصور ، وانتى على كل ما في الحياة الإنسانية من التناقض والتناقض لا أمانع في اخراج طبعة جديدة منى ، على أمل في تصحيح الأغلاط التي كانت تسبو الطبعة السابقة .

— أعيد إليك مذكرتك عن الأطفال الذين تلقاهم ملحوظات في باريس من سنة ١٧٤١ إلى سنة ١٧٥٥ وقد أضفت إليها السنوات السابقة من سنة ١٧١٠ مع بيان تسجيلات التنصير وأحصاء السنوات اللاحقة إلى سنة ١٧٧٠ ، ولم أستطع العثور على غير هذا الأحصاء ، وفي الهاشم ملاحظات على التدرج في الزيادة من اعتبار الطفل عاشراً إلى اعتباره ثالثاً بين المواليد . وقد مضت خمس عشرة سنة منذ ذلك التاريخ فلا يبعد أن النسبة قد وصلت اليوم إلى النصف ! فهل من الصواب تشجيع هذا التقص في حاسة العطف الطبيعية ؟ الذي لقيت طيباً هنا يتم نماء باريس بقلة الصبر أو قلة القدرة على الارضاع ، ويفوكد لي ذلك قائلاً إلك تستطيع أن تعرف ذلك من النظر إلى صدورهن السوية ! فليس فيها نمو أكبر من النمو الذي تراه على ظهر كفى ! ومنذ ذلك الحين يلوح لي أن كلامه لا يخلو من الصدق وإن الطبيعة أحسنت أنهن لم يتضمن بالأنداء فكفت يدها عن مثلها . هذا وإن تكون الحالة قد تغيرت بعض الشئ ، منذ تكلم روسو بفضحاته المعجبة عن حق الأطفال في ألبان أمها لهم فأصبح بعض النساء من العلية يرضعن أبناءهن ويجدن في أثدائهن اللين اللازم للرضاع ، وأسأل الله أن تهبط « البدعة » إلى الطبقات الدنيا فتبطل تلك المسادة التي مردن عليها : عادة القاء الأطفال إلى الملاجيء زاعمات في غير أكثراث أن الملك أقدر على تربيتهم وتمويلهم منهن .

وقد اتصل بي من ذوى ثقة أن تسعه أعضائهم يموتون على الأثر ما

يخرج عن الملاجيء التي لا تكفي مواردها لولا ذلك للاقلاق على البقية . أما فيما عدا النسوة القلائل من العلية الالائى أشرت اليهن ، وفيما عدا غيرهن من يضعن أبنائهم في المستشفيات فالعرف الشائع أن يدعى بالمرضعات من الريف ليهدى اليهن في تربية الأطفال هناك ... وفي المدينة مصلحة تعنى بالكشف على المرضعات واعطائهن الشهادة التي تثبت صلاحهن لهذا العمل ، وكثيراً ما تراهن عائدات الى قراهن يحملن طفلها على كل ذراع ، ولكن الفتنة التي تبلغ بها الطيبة أن تربى أطفالها على هذا النحو قد تعوزها التفقة التي تكفى للتربية ، وتمتلئ السجون بالآباء والأمهات المقصرات في هذا الواجب وإن يكن من العادات المستحبة هنا أن يؤدي المحسنون غرامة أولئك الآباء والأمهات لتسريحهم من السجون ، وحيثما لو أفلح المشروع الجديد الذي يدبر الوسائل لتمكن القراء من تربية أطفالهم في البيوت ، اذ لا مرضع كالآم ، أولاً كثیر من المرضعات يغنين غنائمها ، إن وجدن . ومتى بقى الطفل في حجر أمه أيامه ولم يحصلوا بارساله الى الملاجئ تمكن حبه من قلوب أبويه وبذلا من الجهد فوق ما يبذله لكسب الرزق والانفاق عليه . وإنها لمسألة تعرفها أنت خيراً من معرفتي فحسبى ما ذكرت عنها الآن ولا أزيد عليه الا ملاحظة مقتبسة من تاريخ مجمع العلوم شنى على ملاجيء النقطاء .

— يسير مصرف فلادلفيا سيراً حسناً على ما سمعت ، وما تدعوه معهد سينساتي ليس بمعهد من معاهد حكومتنا بل جماعة خاصة أنها الضباط في الجيش السابق وتكرهها جمهرة الشعب من أجل ذلك حتى يغلب علىظن أنها مستحلٍ ، وكان المظنوون أنها محاولة لإنشاء طبقة وراثية كطبقة النبلاء ، وأوافقك على أنها خطأ ثم أزيد على ذلك إن كل « التشريفات » الموروثة خطأ وسخافة ، فاما الشرف، شرف الأعمال الفاضلة لم يقم بتلك الأعمال وليس من طبيعته أن ينقل من انسان الى انسان ، وإذا صع أن ينقل من وارث الى وريث وجب أن يقسم بين جميع الوارثين وقل نصيب كل وارث تبعاً لتقادم المعهد وازدياد العدد ، ودع عنك ما يحدث من الاقتحام والاقتطاع أثناء الطريق .

وعلم أن دستورنا — أو مواد اتحادنا — غير مفهومة لدينا ، فلو كان المؤتمر — الكونجرس — هيئة دائمة لكان من الخطر وداعي الخدر تخويلها السلطان ، غير أن أعضاءها ينتخبون كل سنة ولا ينتخبون ثلاث سنوات على التوالى ولا ثلاث سنوات في خلال سبع سنوات ، ويجوز على كل منهم أن يستعاد اذا كانت دائرة الانتخابية غير راضية عن مسلكه ، وكلهم من الشعب ويعودون أخيرا الى الشعب بغير صفة دائمة تميزهم الا كما تمتاز حبات الرمل في الساعة الرملية ، ومثل هذه الجماعة لا يسهل أن تكون خطرا على الحرية العامة ، وأعضاؤها خدام الشعب يجتمعون معا لخدمة الشعب ورعايته مصالحه فلا يتيسر لهم أداء واجباتهم ما لم تكن لهم القوة الكافية لحسن أدائها ، وليس لهم رواتب مجزية غير الأجر اليومية التي قلما تساوى ثقاتهم ، وهم لفترة حظوظهم من المناصب والرواتب والمعاشات التي تعطى في بعض البلاد لا يلمسون الأمر معهم الى الدس أو الرشوة أثناء الانتخاب .

وانى لأننى لإنجلترا — المجوز — توفيقا كهذا التوفيق فى نظام الحكومة ولا أراه . فان قومك يحسبون دستورهم أفضل الدساتير فى العالم ويظرون الازدراء بدستورنا ، ولعله من أسباب الرضا أن يحسن الإنسان ظنا نفسه وبكل ما ينسب إليه ، وأن نعتقد أن دياتنا وملكتنا وربة بيتنا خير الديانات والملوك وربات البيوت ، وما ذكره أن ثلاثة من جرينلاند ساحوا نحو ستين فى أوربة برعاية المرسلين المورافيين فزاروا ألمانيا والدنمارك وهولندا وإنجلترا وسائلتهم فى فلادلفيا وهم قالوون إلى بلادهم الأمريكية عما إذا كانوا بعد ما شاهدوه من معيشة الرجل الأبيض يصنع يديه يؤثرون البقاء بيننا ؟ فكان جوابهم انهم مسرورون بما شاهدوه من المناظر الكثيرة ولكنهم يؤثرون المعيشة بين قومهم وفي ديارهم ، وهى لعمري أرض صخرية لم يوجد المورافيون بدا عن زيارتها من تقل الطين فى سفينتهم من نيويورك لزرع الكرنب فيها .

— أشك فيما بلغ مستر دونالد عن تركيب النظارة التى اخترعها لقوله

انها تصلح لأناس دون آخرين . ويغيل الى أن القول بأن التحدب  
الذى يصلح للقراءة لا يصلح للنظر البعيد صوابه ، ولهذا كان لي من قبل  
نظاراتان أبدل بينهما في السياحة لأنى أقرأ حينا وأحب التطلع الى المرايا  
حينما آخر ، ووجدت هذا التبديل متينا لا يسعنى في كل وقت فقط  
الزجاج ووضعت نصفا من كل نوع في الحلقة الواحدة ، واستطعت بهذه  
الوسيلة أن أدير بصرى علوا أو سفلاؤذ كنت أستمر على وضع النظارة  
فوق عينى ، ووافقت ذلك على الشخصوص فى مقامى بفرنسا حيث وجدت  
أن النظارة التي ترىنى صحاف الطعام أمامى لا ترىنى وجوه الجالسين  
على الجانب الآخر من المائدة وهم يتحدثون الى . ولا يخفى أن الأذن  
إذا لم تكن قد تعودت على تمييز لهجة الكلام في لغة من اللغات فنظرة  
العين الى ملامح المتكلم تساعد على الإيصال ، وهكذا أصبحت أفهم  
الفرنسية بمساعدة النظارات .

— أنى أرشح لترجمة رسالتك الشخص الوحيد الذى أعرف أنه  
يفهم الموضوع كما يفهم كلتا اللغتين ، وهذا عندي هو شرط المترجم  
ولا تغدر عليه اتقان الترجمة ، وهو الآن مشغول بعمل لا يمكنه من  
الاشغال بترجمة الرسالة ، وسيفرغ منه قريبا .

— أشكر لك تعليقاتك وأود لو أحصل على غيرها من الكراسات  
المطبوعة .

— وانتا على الدوام مرحبون بالأطفال في أي وقت تشاء أن ترسّلهم  
لينا . وكل ما ألاحظه أن لندن تستوعب عددا كبيرا من أبناء الريف ،  
 فمن الحق أن يتسع الريف لن يعرضهم من أولئك الأطفال ، وهذا مع  
كثرة الذين ينزلون عن حرثتهم الإنسانية ليعملوا حينا عمل الخدم أو  
يعملوا طوال العمر عمل الجندي — يرهان في نظرى على ازدحام جزيرتكم  
... ومع هذا نراها تخاف من المهاجرة ..

وداعا أيها الصديق العزيز ، وانتى على الدوام صديقك المخلص ..

## الأعداء في الوطن

وكتب إليه صهره ريتشارد باخ يقول أن آرثر لى ورافل ازارد من أهل بنسفانيا المقيمين في باريس يسوعون سمعته ويشهرون به لأنّه اتّخذ « تمبل » خفيده مسكتيراله مع أن آباء كان موالياً لبريطانيا العظمى ، فأجابه فرنكلين بهذا الخطاب :

باسي — في الثاني من شهر يونيو سنة 1779

التي مستريح البال من ناحية تلك المساعي التي يقوم بها ( ل ) و ( ر ) للأضرار بي في العدوة الأخرى من المحيط ، ومطمئن إلى عدالة المؤتمر — الكونجرس — وأنه لن يصفع إلى تهمة توجيه إلى دون أن أعلم بها قبل ذلك ويتسع لي الوقت للإجابة عنها ، واتّنى لأعلم أن ذينك السيدين ينطويان على على أسوأ النيات وإن لم أسيء إلى أحد منهم أو أمسأه بما يسوغ له أن يشعر بالمساءة . غير أن السمعة الكبيرة التي تحيط بي والمحبة التي ألقاها من القوم هنا والتوقير الذي يقابلونني به ، بل التحيات التي يخصوني بها تحرّن ذينك السيدين التعميين : التعميين حقاً بما اشتغلت عليه طوائهما من الظلم والحقد والفسيلة والشيبة والحسد والضفينة . وإن النفس الطيبة ليكتفيها ما تجده من الحزن لصائب الآخرين . أما الذين يزعجمهم كل حظ طيب يتلاه غيرهم فلن يسعدوا قط ولن يستريح لهم بال ، وليس بي من حاجة إلى الاتقام من أمثال هؤلاء الأعداء غير أن أتركهم حيث أوقعتهم طبائعهم الناقمة مجتهداً أن أحافظ على الخصال التي تجعلني أهلاً للرعاية والتقدير ، وكلما دامت لى السمعة التي يحيطني بها الناس أدمنتهم في تلك اللعنة التي يتعرّجون بها ، ولا يخطر لى أن أغير من خصالي كي أخفّ عنهم بعض ما يعانون .

ويدهشني أن أسمع أن وجود خفيدي تمبل فرنكلين معى يستوجب النقاوة مني والسعى في اقصائه عنى ، وأحسب بحق أتنى أحسنت بحمايته

هذا الفتى أن يصبح من زمرة المحافظين الانجليز وابقائه الى جانبي في  
زمرة خدام الجمهورية الاحرار ، وأرى من مبادئه الحرة واستقامة خلقه  
وأدبه على العمل وفطنته المبكرة وكفايته النادرة أنه وشيك أن يكون  
عظيم النفع لوطنه ، وكفى أنتي فقدت ولدى فهل يريدون فوق ذلك أن  
أفقد حفيدي ؟ الذي شيخ في السبعين عمدت الى رحلة شتوية باذن  
الكنجرس وليس معى من يتولى العناية بي سواه ، ولا أزال هنا في بلد  
أجنبي يكلاني برعايته البنوية اذا مرضت ويغمض عيني ويحرس ما عندي  
من بقية تراث اذا حم الأجل .

ان أدبه في معاملتي ونشاطه ودآبه في عمله يرضيني ويفيدنى ، وسلوكه  
في عمل الأمانة على السر — السكرتارية — لا غبار عليه ، وانتي لواتق  
أن الكنجرس لا يفكرا في الفصل بينه وبينى .

وانتي كذلك لعظيم الغبطة بولدنا « بن »<sup>(١)</sup> وأراء خليقاً أن يصبح  
رجلًا ذا شأن . وقد اتفع من المدرسة الداخلية التي هو فيها جهد ما يتنفع  
بالتعليم في تلك المدرسة ، وقد فكرت في المدرسة التي تحصلها بعد هذه  
الخطوة فاستقر عزمى على ادخاله مدرسة أعلى منها بمدينة جنيف ،  
والفرصة حسنة لأننى أعرف سيداً من أهل المدينة له ولد في مثل سنك  
يتعلم في تلك المدرسة بعينها ، وقد وعدنى أن يتتكلل برعايته وتبادل معه  
في هذا الصدد رسائل أبعث بها اليكم مع هذا الخطاب ، وقد سافر « بن »  
فرحاً وفهمت أنه سعيد جداً بهذه التقلة الى المدرسة الجديدة . ولقد  
أوحشنى غيابه عن أيام الأحاد وفى نيتى إذا عشت أن أذهب الى سويسرا  
في الربع القادم لأراءه وأرى في الوقت نفسه تلك الولايات الثلاث عشرة  
العجز في البلاد السويسرية .

والحمد لله . انتي ماض على صحة ورضا ، وانتي أكبر وأشيخ ، ولكننى  
فيما أظن لم يصبى تغير كبير في السنوات العشر الأخيرة ، ويعاودنى

(١) ابن ريتشارد باخ صاحب الخطاب .

النقوس من حين الى حين ولكنهم يقولون انه الى العلاج أقرب منه الى انحراف المزاج ، والله يبارككم ويتولاكم ..

### جواب على تحذير

وحذر هارتل من اعدائه وأوصاه باتقاء الخطر على حياته ، فكتب اليه فرنكلين كما جاء في خطاب نشره حفيده يقول فيه :

«شكرا لك على تحذيرك . غير أنت قاربت النهاية من عمر طويل ولست أبداً كثيراً بما بقى منها ، وإنما هي عندي كالفضلة من التوب يقول البائع للشاري الذي يقع في المساومة عليها : خذها كما تريده أو بالشمن الذي تريده ولا خلاف بيني وبينك عليها فما هي إلا بقية أوربما كان أفعى شيء يصنع بالشيخ الذي بلغ هذه المرحلة من العمر أن يحضر في زمرة الشهداء .

### بيان عن خدمات وطنية

وكتب الرسالة التالية الى شارل تومسون سكرتير الكنجرس على أثر اشاعة باعثه عن أناس يزعمون أن الحكومة وضعت بين يديه أموالاً كثيرة قد تأخر حسابها ، وكانت الحقيقة على عكس ذلك ، إذ كان الكنجرس يرجح حسابه ولا يعطيه ما استحقه بخدماته ، وسأل فرنكلين صديقه عن الوسيلة المثلثة لانجاز المحاسبة وتوفيق تلك الحقوق :

فلا دليلاً في التاسع والعشرين من نوفمبر سنة ١٧٨٨

### صديق العزيز القديم

أرسل مع هذا خطاباً الى رئيس الكنجرس في الوقت الحاضر أرجو أن تترجمه وتبلغنى ما تراه اذا عَنْ لك فيه ما يدعى الى الملاحظة أو التقييم ، وانتي أعتمد كثيراً على تصريحاتك الأخوية لأنك تعلم ما لست أعلمك عن الأشخاص والأحوال ، وأظن أن في الوقت متسع قبل تأليف

الكتنجرس الجديد للتنقيح الذى تشير به ، على أن يكون تقديم الخطاب  
— اذا قدم — الى الرئيس القديم .

وستجد في خطابي الى مسـتر بـارـكـلى اـشـارةـ الى «أـعـمـالـ هـامـةـ لمـ أـتـبـهاـ  
فـىـ حـاـبـ الـكتـنـجـرسـ وـأـرـجـوـ منـ اـنـصـافـهـ أـنـ يـكـونـ لـهـ اـعـتـبـارـ فـىـ التـقـدـيرـ» .  
ولـكـىـ تـكـوـنـ عـلـىـ عـلـمـ بـهـذـهـ الـأـعـمـالـ أـبـمـتـ إـلـيـكـ مـعـ هـذـاـ الخطـابـ بـيـانـ  
مـجـمـلـ عـنـ الـخـدـمـاتـ الـتـىـ قـمـتـ بـهـاـ لـلـلـوـلـاـيـاتـ الـمـتـحـدـةـ ،ـ وـمـنـهـ أـعـمـالـ نـاقـلةـ  
لـاـ تـتـصـلـ بـوـظـيـفـةـ السـفـارـةـ ،ـ كـعـملـ القـضـاءـ فـىـ الـبـحـرـيـةـ ،ـ وـعـملـ الـقـنـصـلـيـةـ  
قـبـلـ وـصـوـلـ مـسـترـ بـارـكـلىـ ،ـ وـعـملـ الـصـرـفـ لـمـراـجـعـةـ قـوـائـمـ الـمـسـارـفـةـ  
وـسـفـانـجـهاـ ،ـ وـعـملـ السـكـرـتـارـيـةـ عـدـدـ سـنـوـاتـ ،ـ وـسـائـرـ هـذـهـ الـأـعـمـالـ الـتـىـ  
لـمـ أـتـاـوـلـ شـيـئـاـ عـنـهـاـ وـكـانـتـ لـهـ مـكـافـاتـ تـرـسـلـ إـلـىـ السـفـراءـ الـآخـرـينـ .

وـأـصـارـحـ أـنـىـ آـمـلـ —ـ كـماـ جـرـتـ العـادـةـ فـىـ الـقـارـةـ الـأـورـيـةـ —ـ أـنـ  
يـمـنـحـ السـفـيرـ بـعـدـ اـعـتـزـالـهـ مـنـحةـ يـسـتـعـينـ بـهـاـ عـلـىـ اـصـلـاحـ شـتـوـنـهـ الـخـاصـةـ  
الـتـىـ لـاـ شـكـ أـنـهـ تـصـابـ بـالـضـرـرـ أـثـنـاءـ غـيـابـهـ وـاقـطـاعـهـ عـنـ مـبـاـشـرـتـهـ فـىـ  
وـطـنـهـ ،ـ وـرـجـائـىـ أـنـ يـتـفـضـلـ الـكتـنـجـرسـ بـمـنـحـ قـطـمـةـ مـنـ الـأـرـضـ فـىـ أـقـالـيمـ  
الـفـسـرـبـ يـسـتـفـادـ بـهـاـ وـتـبـقـىـ لـذـرـيـقـ شـرـفـاـ وـذـكـرـىـ ،ـ وـلـاـ أـخـالـ إـلـاـ أـنـ  
الـكتـنـجـرسـ صـافـعـ شـيـئـاـ مـنـ هـذـاـ القـبـيلـ عـنـدـ النـظـرـ فـىـ خـدـمـاتـيـ وـأـعـمـالـيـ  
كـمـاـ أـرـىـ مـنـ تـقـدـيرـهـمـ السـخـىـ لـخـدـمـاتـ مـسـترـ لـيـ فـىـ الـجـلـطـرـاـ قـبـلـ ذـهـابـهـ  
إـلـىـ فـرـنـسـاـ ،ـ وـهـىـ خـدـمـاتـ وـأـعـمـالـ كـانـ لـىـ وـلـسـتـ بـولـانـ Bollandـ  
مـعـاـونـةـ فـيـهـاـ وـلـمـ نـحـصـلـ عـلـىـ مـثـلـ هـذـهـ الـمـكـافـةـ عـنـهـاـ .ـ وـقـدـ كـوـفـ مـسـترـ  
لـيـ بـعـدـ عـودـتـهـ بـمـنـصـبـ حـسـنـ كـمـاـ كـوـفـ صـدـيقـ مـسـترـ جـاـيـ Jayـ ،ـ وـانـ  
تـكـنـ هـذـهـ الـمـكـافـةـ زـهـيـةـ بـالـقـيـاسـ إـلـىـ انـعـامـ الـمـلـكـ عـلـىـ مـسـيوـ جـيـارـ  
Gerardـ عـنـدـ عـودـتـهـ مـنـ الـدـيـارـ الـأـمـرـيـكـيـةـ .

أـمـاـ فـىـ أـمـرـىـ أـنـاـ بـعـدـ عـودـتـىـ فـمـاـ أـبـدـ الـاـخـتـلـافـ !

رجـعـتـ مـنـ اـنـجـلـطـرـاـ سـنـةـ ١٧٧٥ـ فـتـفـضـلـ الـكتـنـجـرسـ عـلـىـ بـوـظـيـفـةـ مـديـرـ  
مـصـلـحـةـ الـبـرـيدـ مشـكـورـاـ عـلـىـ فـضـلـهـ ،ـ وـهـىـ وـظـيـفـةـ أـحـسـبـ أـنـ لـىـ بـعـضـ

الحق فيها من ذكرتها تحت الناج فأصلاحت نظامها وضاعفت مواردها ، وتركتها لصهرى بعد سفرى الى فرنسا يقوم فيها بوظيفة الوكيل ، ولم يمض غير قليل بعد سفرى حتى حولت هذه الوظيفة الى مستر هازارد . وقد عن للادارة الانجليزية قبل ذلك أن تحرمنى هذه الوظيفة فحضرتلى الحق فى اعفاء وسائلى الصادرة والواردة من الأجر كما جرى العرف فى معاملة المديرين الذين يعتزلون الوظيفة لسبب لا يمس كرامتهم . أما فى أمريكا فان هذا الأجر قد طلب منى وبلغ نحو خمسين جنيهًا ، لكثرة الرسائل التى ترد الى " على اعتبارى مديرًا سابقًا لمصلحة البريد .

وما أخذت معى خفيدي تقبل الى فرنسا رأيت — بعد تعليمه الفرنسية — أن أخرجه في دراسة القانون والاشتغال بعمله ، ثم استبقته لعمل السكرتارية بعد أن وعدت بهذه الوظيفة وتكررت تجربتى للسكرتيرين وتكررت خيبة الأمل فيهم ، ولم تزل تكرر بعد عودتى الى أمريكا ، حتى فات الوقت الذى يشتغل فيه بالدراسة المطلوبة وانتظمت حياته على غير نظامها ، فلما رأيت أنه — لطول مراتبه فى الأعمال الدبلوماسية — جدير بوظائفها ، وهو رأى يشاركتى فيه ثلاثة من الزملاء تدبوه بغير طلب منى للعمل معهم خلال المفاوضات فى شئون المعاهدات ، وشحنته فى خطاب الى الكنجرس لوظيفة السكرتارية فكان الرد الوحيد الذى تلقيته على هذا الرجاء الوحيد الذى تقدمت به أمراً بوقف التعيين واتداب الكولونل همفري سكرتيراً فى مكانه ، وهو سيد قد يكون له العلم بالشئون العربية كما هو الواقع ولكنه لم يختبر العمل فى الشئون السياسية ولا يعرف الفرنسية ولا عهد له بالسلوك اللازم فى هذه المهمة .

وأنتى أفضى بهذا كله اليك — شخصياً — افضاء صديق الى صديق لأننى لم أتعود الشكالية العامة ولا أريد أن أبعاً إليها بعد الآن .

وأنتى لو استطعت أن أعلم — مقدماً — أن الكنجرس سيعاملنى هذه المعاملة التى لا مجاملة فيها ويستكثر على " توجيه الشكر الى " — لم يكن من شأن هذا أن يوهن من عزمى أو من غيرتى فى خدمته وتأييده ،

وقد أعرف بعض الشيء عن أطوار هذه الهيئات التي تتغير حيناً بعد حين وباتى فيها خلف لا يعلم ما قد علمه السلف من خدمات أسدية إلى الهيئة ولا يشعر بواجب الجزاء عليها ، مع بعد القائمين بالخدمة في بلاد أجنبية وأمعان واحد أو اثنين من العاقدين وذوى الثقة السيدة في المس والتآثير على عقول الأعضاء الآخرين ، وإن كانوا من أهل الأخلاق والانصاف والمرودة . ولهذا أوثر أن أطوى هذه الغواطط في أطواط التسياد والكتمان .

وأني لأنتم المقدرة منك — يا صديقي — لما جشتك من متابعي هذا الخطاب ، وإذا حاول بذلك يوماً ما يقال عن نسيان بعض الجمهوريات للعاملين في خدمتها فاذكر على الدوام أن لك صديقاً قد يداه تكشف له عن ذات صدرك في شخص الخادم الطبع المتواضع .

### فرنكلين

وبعد هذا التمهيد للتخييم لخدمات فرنكلين كما أجملها في ملحق خطابه لذكر صديقه ، وهي كما يلى :

— في إنجلترا قاوم قانون الديمة وكتابته في الصحف ومناقشاته في البرلمان من الأسباب التي يظن أنها انتهت بالناء بذلك القانون .

— عارض قانون المكونس ، ولم يتسكن من وقف تنفيذه ولكنه أقنع مستر تويني بحذف مواد كثيرة منه ، ومنها الملح بصفة خاصة .

— وكتب فيما بعد ذلك رسائل شتى يفتقد بها دعوى البرلمان أنه يملك حق تهرب الضرائب في المستعمرات .

— عارض جميع القوانين الجائرة .

— قام بمقاؤضتين سرتين مع الوزراء لالغاء تلك القوانين وشرح ذلك في محضر مكتوب ، وقدم في سياق واقتراح — على تبعته ومع المخاطرة بالنتيجة — عوضاً عن الشاي الذي تلف في حالة تعاظد الالغاء .

— اشتراك مع مستر بولاند ومستر لى في جميع الطلبات التي قدمت إلى الحكومة لهذا الغرض ، وطبع عدة نشرات على تفاصيله يتقد بها إجراءات الحكومة ، واستهدف بذلك للسخط والتغور والاتهام أمام المجلس الخاص ، وعزل من وظيفة يتغاضى منها ثلاثة جندي في السنة ، وهي وظيفة مدير البريد ، وأضطر إلى الاستقالة من جميع أعمال التوكيلات ومكافآتها ، وهذا بيانها :

جندي	
٥٠٠	من بنسلفانيا
٤٠٠	من ماساشوست
١٠٠	من نيوجرسى
٢٠٠	من جورجيا

وصدرت الأوامر إلى الولاية المذكورة أنة يكتفوا عن توقيع كل ترخيص بالصرف لحساب مرتباته من خزانة الدولة ، ولم تكن الولايات قد عزلته من توكيلها ، ولكنه — مع العلم بضغينة الحكومة الانجليزية عليه — تذر عليه أن يخدم الولايات ويسير مصالحها لدى تلك الحكومة ، وأحسن أن الواجب يقضي عليه باعتزال التوكيلات فاعتزلها ليفعز مطال العمل فيها لمن هم أقرب إلى القبول عند الحكومة الانجليزية ، ويتحقق أنة يلجهنها إلى عزله .

ولما قفل إلى أمريكا حضر على الثورة وعين رئيساً لجامعة «سلامة الوطن» ونظم وسائل الاستيلاء على فيلادلفيا ومقر الكونجرس .

— أرسله الكونجرس إلى مركز القيادة العام على مقربة من يوستون مع السيدين هاريسون ولينش سنة ١٧٧٥ لتسوية بعض المسائل مع الحكومات الشمالية والجنرال واشنطن .

— في سنة ١٧٧٦ أرسل إلى كندا مع السيدين شاس Chase وكارول غالبرايجز قبل ذوبان الثلوج ، فعمل مع زميليه في كندا على إزالة

بعض الشكایات مما كان له اثر في ضم الشعب إلى قضيتنا ، وقدم هناك إلى الجنرال أرنولد وبعض خدام الكنجرس مبلغ ثلثمائة وثلاثة وخمسين جنيهًا ذهباً من ماله على ذمة الكنجرس كانوا في أمس الحاجة إليها وكان لها قمع كبير في تلك الآونة في الحصول على الأزواد لمجيشنا .

وقد كان حين تكليفه بهذه المهمة يجاوز السبعين. فشققت عليه مصاعب الرحلة، إذ كان يتنقل بين الغابات في ذلك الفصل القاسى من فصول السنة ولم يك得 يبل من مرضه حتى أمره الكونجرس بالسفر إلى فرنسا ، فلما تم قبل سفره كل ما استطاع جمعه من المال بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف جنيه ، وكان ذلك مشجعاً لغيره على اعارة أموالهم لخدمة القضية العامة . ولم يساوم على المكافآت ولكنه وعد — باقتراح الأصوات — بمبلغ خمسمائة جنيه مساندة مع تلقته ومبلغ ألف جنيه لوظيفة السكرتارية ومصروفاتها .

ولما أرسلته الهيئة التبالية في بسفانينا إلى إنجلترا سنة ١٧٦٤ بمثل هذه المكافأة سمحوا له بمكافأة سنة مقدماً لتكليف السفر وتمويله الخسائر التي لحقته من جراء الانقطاع فجأة عن مباشرة مرافقه الخاصة ولم يمنعه الكتباجس مثل هذه الملحمة بل أذله في سفينة رثة لا تصلح للنلاحة في البحار الشمالية ، وحدث فعلًا أنها جنحت عند عودتها ، مع سوء تدبير الطعام له على متنه حتى بلغ الشاطئ وهو يكاد لا يقوى على الوقوف على قدميه .

وأن خدماته للدولة وكيلًا ثم وزيرًا مفوضاً معروفة للكنجرس كما هي معروفة من رسائله ، وربما كانت خدماته الإضافية مجهولة فلا داعية إلى ذكرها .

ثم مضى في عمله ولم يعن له السكرتير الموعود . وقام ببعض الأعمال قبل اتصال زملائه ثم قام بها جميعاً بعد انفراده بمعونة حفيده الذي سمح له أولاً بمقابلة الكسأء والسفر والسكن ثم بمرتب لم يو . قط

على ثلثمائة جنيه في السنة ( الا حين عمل في السكر تاريه للمجنة الصلح )  
وهو فرق في المرتب على مدى سنوات مقداره سبعمائة جنيه كل عام .

— وعمل وحده بوظيفة القنصل عدة سنوات الى حين وصول  
مستر باركلى وبعد وصوله فترات من الوقت لاضطرار ذلك السيد الى  
التنفيس في هولندا وببلاد الفلاندر وإنجلترا ، وحدثت خلال ذلك محاولات  
متتابعة لاختلاس دفعه ثانية وثالثة بعد سداد الدفعه الأولى ، وكانت  
قوانين الحساب عن هذه الدفعات تردد مع كل سفينة وكل بريد وتستوجب  
الرقابة التوالية . ولم يستطع مستر فرنكلين أن يسافر للرياضة والراحة  
كمادته قبل ذلك مما عرضه للإصابة بمرض قد لازمه بقية حياته .

ونوجز البيان فنقول انه على دأبه وصبره طوال حياته لم ترهقه  
الأعمال كما أرهقته خلال السنوات الثمان التي قضتها في فرنسا ولم  
يغتزلها مع ذلك حتى شهد بشائر الصلح وتمت هذه البشائر بغير . ثم  
أنهى نفسه في الثمانين من عمره وهي السن التي تخول من يبلغها بعض  
الحق في الراحة والاستقرار .

## الطيران والحروب

وقد شهد فرنكلين تجارب الطيران الأولى حول باريس وسمع  
المشرجين whom يرقبون المنطاد كأنه لعبة من لعب المراجع ويتساءلون :  
وما فائدة هذا ؟ وبأى شئ تتفضلا هذه التفاصيل الكبيرة ؟ فكان من  
جوابه لهم أن يسألهم : وما فائدة طفل ولد ؟ وفي هذا السؤال كل  
الجواب على الذين لا يعرفون الصبر على المخترعات حتى تنمو وتوتى  
ثمرتها ، ولكنهم يعرفون أننا نربى الطفل الوليد الذى لا قسم له فينفع  
نفسه وينفع غيره اذا أحسنا القيام على تربيته ، وما كتبه فرنكلين على  
أثر مشاهداته الأولى لتجارب الطيران خطاب الى صديقه العالم الهولندي  
جان إنجهوز Ingenhousz الذى كان يصاحب في رحلاته العلمية بشمال  
إنجلترا نظر فيه نظرة بسيطة الى مستقبل الطيران في الحروب قبل أن

تستخدم المنظيم والطائرات في ميادين القتال بأكثر من مائة وثلاثين سنة  
فقال في خطابه من باسي بتاريخ السادس عشر من يناير سنة ١٧٨٤ :

« .. ليس في المسألة سر . ولست أشك أنك اذا أرسلت رسولا من  
قبلك أمكنه أن يشاهد منظيم متجلبه وشارل المختلفة ويطلع على  
جميع التعليمات المطلوبة ، وإذا أردت أنت أن تصنع منظادا فمن الضروري  
ومن الأوفق في رأيي ، أن تبعث من عندك برسول ذكي لهذا الغرض ،  
إذ يخشى إلا يلتقط إلى بعض الملاحظات أو يسمو عن العلم بها فتحبط  
التجربة ويفودي حبوطها في هذه المسألة التي يكثر حولها الترقب  
والاستطلاع إلى تعریضك للعلامة الشديدة والمساند بسمتك . فإنه  
لمن الفرد الوحيم تجمیع الناس في المدن الكثيرة وضواحيها ثم مصادمتهم  
بالخيبة والغضب . وقد حدث في بوردو أخيرا أن شخصا زعم أنه صنع  
منظادا يصعده في الهواء وأخذ تقدما من أناس كثرين ولم يستطع أن  
يرفع المنظاد فهاجت عليه هائجة الناس وعمدوا إلى بيته فهدموه وهموا  
به ليقتلوه .

وظاهر — كما رأيت — أنه اختراع هام يوشك أن يتوجه بالشئون  
الإنسانية وجة جديدة ، وقد يكون من آثاره أن يقنع ذوى السلطان  
بخطل الأقدام على الحروب لما في حماية بلادهم من المصاعب — بعد  
هذا الاختراع — على أقدارهم وأقواهم ، ولعل خمسة آلاف منظاد  
يحمل كل منها جندين لا تبلغ تكاليفها ثمن سفن خمس من سفن القتال ،  
وأين هو الأمير الذي يتمنى له أن يسلا أرضه بالجند في كل مكان حتى  
يعجز عشرة آلاف جندي هابطين من السطح عن اصواته بأخطر النكبات  
قبل أن يتمكن من حشد القوة اللازمة لصدتهم والتغلب عليهم ؟

وما يحزن أن تحول العصبية القومية — كما بدا لك — دون قيام  
الإنجليز بالتجربة ، فإنهم على براعتهم في فنون الصناعة قمنا أن يسبقوا  
غيرهم إلى اتقان هذا المخترع والاتفاق بكل ما يعود به من الفائدة .

ان منطاد شارل وروبرت كان ممتنعاً حقاً بالهواء الساخن ، ولو فرقة  
المقدار اللازم كان العمل في مثله متيناً عظيم التفقة يحتاج إلى يومين  
أو ثلاثة ليلاً ونهاراً لإنجازه . وللمنطاد صمام عند أعلىه يفك بشد  
الجبل الذي يربطه كلما أريد إطلاق جزء من الهواء استعداداً للنزول ،  
والراكيان يقذفان بجزء من الرمل الذي يوازن الهواء إذا أراد الصعود  
بعد ذلك ، ولا بد أن يكون مقدار كبير من الهواء قد انطلق من المنطاد  
لوازنة أحد الراكبين ساعة نزوله ، ولخفة المنطاد بعد نزوله تكفي البقية  
فيه لحمل زميله ، وهو لا يحصل في المنطاد ثاراً كما يفعل مسيو متجاهلاً  
في منطاده الذي يفتح من أسفله ويقود فيه التيار لاستبقاء فاره . وهذا  
الطراز من المنطاديد أسرع امتلاء وأقل تفقة ، ولكنه يستلزم مضاعفة  
الحجم لرفع الثقل نفسه ، إذ كان الهواء المشبع بالحرارة لا يقل ثقله  
عن نصف ثقل الهواء الجوى ، على حين أن الهواء الساخن يقل عن ثقله  
عشر مرات ، وقد كشف مسيو مورفو الكيمي الشهير بمدينة ديجون  
هواء ساخناً لا تزيد كلفته عن جزء من خمسة وعشرين جزءاً من كلفة  
الهواء الساخن الذي يحدث من صب الزيت أو الزاح على برادة الحديد ،  
ويقال انه مستخرج من فحم البحر ولم يذكر وزنه بالنسبة إلى غيره <sup>(١)</sup> ..

### من الصفار

وهذه رسالة من رسائله إلى السيدة بريون حسمتها حكاية من  
الحكايات « المثلية » أو الحكايات التي تستوحى من مفرداتها بعض  
المعانى الأخلاقية أو الاجتماعية ، وكانت شائعة في ذلك العصر يؤلفها  
الكتاب وغير الكتاب لتزوجة الفراغ بما يشبه امتحان الذهن بالأحاجي  
السهلة والألغاز الخفيفة ، وتتلئ هذه الرسائل عادة في السهرات  
والاجتماعات كأنها مادة من مواد السمر والفكاهة ، وقد كتب فرنكلين

---

(١) هذه الرسالة والرسائل الأربع التي تقدمتها مترجمة من النصوص  
التي اشتملت عليها مجموعة الكتابات الترجمية لجامعتها ثان دورن .

هذه الرسالة الى صديقته جوابا على رسالة منها تصف فيها نعيم الفردوس كما تخيله ، فقال بعد أسطر في التمهيد والاعتذار من تأخير الجواب :

« .. أتعجبني وصفك لجنة الفردوس وبرلامبجك الذي درسته للمعيشة فيها . وأقرك كثيرا على ما ختمت به الوصف حيث تقولين اتنا - في الوقت نفسه - يتبعى أن نستخلص في هذه الدنيا كل ما نستطيع من خير ونعمة . وأرى اتنا جميعا قادرون على أن نستخلص منها فوق ما نناول من خيرها ونعانى أقل مما نعاينه من شرها لو جعلنا بالنا الى شيء واحد : وهو ألا نشتري الصفافير بأكثر من أثمانها .

.. وتسأليني ماذا أعنى ؟ وأنت تعيني الحكايات .. فامسمح لي أن أقص عليك أحدي حكاياتي حين كنت في السابعة من عمرى ، فقد حدث في بعض أيام الأعياد أن امتنلا جيبي بإنصاف البنسات من هبات أصدقائي فذهبت توا الى دكان اللعب واشترت منه صفاررة سمعت بعض الأطفال في الطريق يصررون بها ، فأعجبتني وبذلت في ثمنها كل ما احتواه جيبي .

ورجعت الى المنزل فطافت بين جوانبه نافخا في صفارتي راضيا عن نفسى مزوجا كل من فيه من اخوانى وأخواتى وأبناء عمى ، فلما سألوني عن هذه الصفقة وأخبرتهم بها قيل لي انى بذلت في الصفاررة أربعة أضعاف ثمنها ، وذكرتني بالطبيات التي كنت قمينا أن أنعم بها لو لم أبذل فيها فوق ما تستحقه وضحكوا من حماقى وغفلتى وأكثروا من الضحك حتى بكى غما وأسفًا وساءنى من التفكير في الخسارة أضعاف ما سرفني من الصفاررة .

ونعمتى العبرة فلم تبرح ذاكرتى بعد ذلك ، ولم أزل كلما أغرت بشراء شيء لا حاجة بي إليه أعود فأقول لنفسى : لا تبذل في الصفاررة فوق ما تساويه ، وادخرت هودى !

ثم كبرت واحتبرت الدنيا وراقبت أحوال الناس فلقيت الكثيرين من يشترون الصفاررة بأضعاف ثمنها ، وأصبحت كلما رأيت إنسانا يطبع

فـ الحظـة لـدى البـلـاط فـيـد وـقـته فـي التـرـدد عـلـى الـحـشـم وـالـحـاشـيـة وـيـقـدـرـه رـاحـتـه وـحـريـتـه وـفـضـائـلـه فـسـه وـوـبـما فـقـدـ أـصـدـقاـهـ فـي هـذـا السـبـيلـ — أـعـودـ فـأـقـولـ : هـذـا الـإـنـسـان يـغـالـي بـقـيـةـ الصـفـارـةـ وـيـبـذـلـ فـيـهاـ أـضـعـافـ ماـ تـساـويـهـ .

وـكـلـما رـأـيـتـ اـنـسـانـاـ مـشـغـوفـاـ بـالـشـهـرـةـ يـزـجـ بـنـسـهـ فـيـ مشـاـكـلـ السـيـاسـةـ وـيـغـفـلـ عـنـ مـصـالـحـهـ فـيـجـرـ عـلـىـ تـسـهـةـ الغـرـابـ بـهـذـهـ الفـلـةـ — أـعـودـ كـذـالـكـ فـأـقـولـ : هـذـا اـنـسـانـ آـخـرـ يـشـتـرـىـ الصـفـارـةـ بـأـضـعـافـ ثـمـنـهـ .

وـكـلـما عـرـفـتـ بـخـيـلاـ يـحـرـمـ نـسـهـ أـطـابـ العـيـشـ وـغـبـطـةـ الـاحـسـانـ إـلـىـ النـاسـ وـمـنـزـلـةـ التـقـدـيرـ وـالـرـاعـيـةـ بـيـنـ قـوـمـهـ وـمـتـعـةـ الـمـوـدـةـ وـالـحـدـاقـةـ بـيـنـ خـاصـتـهـ — أـعـودـ فـأـقـولـ لـنـفـسـيـ : يـالـكـ مـنـ مـسـكـينـ ! اـنـكـ أـيـضاـ يـشـتـرـىـ الصـفـارـةـ بـأـضـعـافـ مـاـ تـساـويـهـ .

وـكـلـما التـقـيـتـ بـاـنـسـانـ مـنـ طـلـابـ الشـهـوـاتـ وـالـمـسـرـاتـ يـذـهـلـ عـنـ تـهـذـيبـ نـسـهـ وـعـقـلـهـ ، أوـ عـنـ تـدـيرـ مـالـهـ مـنـ أـجـلـ مـتـعـةـ جـسـدـيـةـ تـسـتـغـوـيـهـ وـتـجـوـرـ عـلـىـ جـسـدـهـ — أـفـادـيـهـ فـيـ ضـمـيرـيـ : أـيـهـاـ الـمـخـدـوـعـ ! اـنـكـ تـجـنـىـ الـأـلـمـ مـنـ حـيـثـ تـشـدـ اللـذـةـ وـتـعـطـيـ الصـفـارـةـ ثـمـنـاـ لـاـ تـسـتـحـقـهـ ... !

وـقـدـ أـرـىـ اـنـسـانـاـ مـفـتوـنـاـ بـالـظـهـرـ وـالـزـيـنـةـ مـاـخـوـذـاـ بـغـواـيـةـ الـبـيـتـ الـأـنـيـقـ وـالـأـنـاثـ الـأـنـيـقـ وـالـعـتـادـ الـأـنـيـقـ مـاـ لـاـ يـطـيقـهـ وـلـاـ تـحـتـمـلـهـ ثـرـوـتـهـ وـقـدـ يـوـقـعـهـ فـيـ الدـيـنـ وـيـسـوـقـهـ إـلـىـ السـيـجـنـ ، فـأـقـولـ : وـآـسـفـاـ . اـنـهـاـ الصـفـارـةـ يـشـتـرـىـهـ أـيـضاـ بـهـذـاـ الـثـمـنـ التـقـيلـ .

وـقـدـ أـرـىـ الـفـتـاةـ الـحـلـوةـ الـجـمـيـلـةـ تـزـوـجـ مـنـ الرـجـلـ السـيـئـ الـقـيـسـيـ فـأـقـولـ . يـاـ لـهـاـ مـنـ شـقـوـةـ وـخـيـبةـ . اـنـهـاـ تـعـطـيـ الصـفـارـةـ أـضـعـافـ مـاـ تـأـخـذـ مـنـهـ .

وـجـملـةـ الـقـوـلـ إـنـ مـعـظـمـ الشـقـاءـ الـذـيـ يـبـتـلـيـ بـهـ بـنـوـ الـإـنـسـانـ اـنـمـاـ يـجـنـيهـ عـلـيـهـمـ ذـلـكـ التـقـدـيرـ الـبـاطـلـ لـقـيـمـ الـأـشـيـاءـ ، وـذـلـكـ الـبـذـلـ الـضـاغـفـ فـيـ ثـمـنـ الصـفـارـةـ .

على أتنى أرق ببؤلاء البائسين فلا تنسيني هذه الحكمة التي أتشدق بها أتنى في هذه الدنيا كثيرا من المغريات ، ومنها تفاحات الملك هنا التي لا تباع لحسن الحظ . ولو أنها كانت مما يباع بالزرايدة لخشيت أن أجر على نفسى الغراب لأنشرها وأعود فأبدل في الصفاره قيبة لا تساويها <sup>(١)</sup> .

### رسائل شخصية

وهذه رسائل متفرقة في موضوعات عائلية أو عامة كتبها إلى أقربائه وصفوة أصدقائه ، ومنها هذه الرسالة إلى أخيه تعزية لها في موت أخيه :

فيلاطفيا في ١٢ فبراير سنة ١٧٥٦ .

#### أختي العزيزة

أشاطرك العزن في مصابنا بموت أخينا العزيز . ول يكن بيننا مزيد من الحب كلما أصبتنا بنقص في العدد .

وقد عدت الآذن من بعضى العسكرية ووقتى مشغول بأعمال الهيئة التابية ، وكاننا العناية الالهية تطالبنى بصنوف شتى من الواجبات ، فلا أعلم الآذن ما سأئلى بعد ، ولكنني أجده أن شواغلى تزداد كلما بحثت عن الفراغ وتطلعت إلى الاعتراف .

وانى أفهم ان « يبني » يميل إلى ترك « اتيجوا » . وربما كان على حق ، ولا مانع عندى .

محبتي للأخ وللأطفال ، وانتي يا أخيه العزيزة .

.....

وكتب إليها هذه الرسالة تعزية في موت ابنتها سارة :

(١) هذه الرسالة مأخوذة من كتاب الخزعبلات ، وفي هامشها يقول جامع الكتاب إن التفاحات في الحقيقة كمشويات مسمومة أهداما قس إلى الملك هنا صاحب (الماجناكارتا) لأنه علم أنه يهم باغتصاب راهبة مصونة .

فيلاطفيا في ١٠ يوليو سنة ١٧٦٤ .

### أختي العزيزة

نحن جميعا نشاطرك الحزن في موت كريمتك . وقد كنت أراها دائما على خلق عذب محظوظ وشمائل طيبة تضاعف الحزن عليها في نفس الأخ ونفسك فوق ما تحتملان ، وكل ما نملكه من العزاء في مثل هذا المصائب أذن ثورمن بأن الله يعلم ما هو أصلح وأجدر ويقدر على صنع الخير مما ييدو لنا أنه شر . وإنها لسعيدة تلك السعادة التي لا يشعر بها أحد منا وهو بقياد الحياة .

وكتب إليها في مسألة من مسائل العقيدة تعنيها بعد الاطلاع على بعض الكتب التي أرسلها إليها من البلاد الانجليزية :

لندن في ٢٧ يوليو سنة ١٧٧١

وصل إلى خطابك الكريم المورخ في العاشر من شهر مايو . . .  
ويوضح لي أنك تحسين احساسا شديدا بخطئك في الت怱ج بالتهمي حتى  
ليحق لي أن أقول انه الآذ دورى في الأسف للاحظة ذلك الخطأ ، فقد  
تمادلت الحسبة أذن فلندعوا ولا نعد الى التفكير فيها .

ويخيل الى : أنت ذكرت ثمن الكتب في رسالة سابقة ونسيتها الآذ  
ولكننى أظن أن ثمنها ثلاثة شلنات لكل كتاب .

ولا ريب أن هناك اختلافا في أمر وجودنا قبل هذا الوجود ، وأحسب  
أن هذه الفكرة قد صدرت عن حسن نية ، لتبرئة حكمة الله من تعasse  
الخلق في هذه الدنيا بغير جريدة لحقت بهم في دنيا قبلها ، وربما كان هذا  
من الفضول بغير داع لتأييد قصة السفينة .. وإذا كان الإله قد شاء  
أن يلقى عليها سترا فقد يكون الاجراء على كشف ذلك الستر من قبيل  
التطفل والتجاهلة ، ولعل نجاحنا في هذه المحاولة لا يربى على نجاح أبيوينا  
في محاولة المعرفة المتنوعة يوم أكلام من الشجرة .

ولست أعني بقولي أن بني آدم بعضهم شياطين بعض الا أنهم -

لارتقائهم على غيرهم من الخلق — لا يعذبهم الخلق الآخر وذكراً كما يعذبون أنفسهم. ومن جانبي أنا أرى أن قبل الدنيا على علاقتها وأرى أن أشك في حكمتي كلما فكرت في وجوه صلاحها واصلاحها ، وإنى لأبصر من الحكمة فيما أدرك من خلق الدنيا ونظام تدبيرها ما يلهمني أن هناك حكمة تعادلها فيما لست أدركته وأقصصاه . ومن ثم لا تكون الثقة التي عندي بالله دون الثقة التي عند سائر المسيحيين الأبرار .

ويسعدني أن التفاصيل الحسن مستمر بينكم وبين آل فيلادلفيا ، وقد كان أبوانا حكيمًا جدًّا حكيم ، وكان من عادته أن يقول إنه لا شيء أكثر من ظهور أسباب التغير بين المتحابين على البعد إذا اقتربت بهم الديار ... ولهذا لم يكن ليحسن زيارات الآل في الأماكن البعيدة ، لأنها تطول ولا يمكن أن تحصر إلى الحد الذي يتركهم على المودة والولام حين يفترقون . وقد لمست برهاناً على ذلك — العلاقة بين أبي وأخيه بنiamin ، فقد كنت يومئذ طفلاً ولكنني كنت أحس الفرق بين عبارات المودة في رسائلهما قبل اللقاء وبين المناوشات والمجادلات التي تتشبّه بينهما أذ يقيمان في مسكن واحد . غير أشك أن أدنى إلى الصواب فيما تختارنه من التوفيق آنة بعد أخرى لاسداء النصيحة من بعيد في شؤون الآخرين ومرافقهم ، وكله خير ما دام يفضي إلى خير .

وأذكر أشك أشرت في أحدى رسائلك إلى النظارات ورغبتك في إرسال بعضها إليك ، وليس لدى هذه الرسالة الآن فلهذا أبعث إليك بزوج من كل مقاس من الواحد إلى الثلاثة عشر ، وستعرفين المقاس الذي يوافقك بامتحان زوج بعد زوج على كلتا عينيك في النظر إلى مطبوعة دقيقة ، وأعزلي ما لا يواافق لكلاً تعودي إلى تجربته مرة أخرى ، وإنك لتجدين النظارة التي توافقك بالتجربة والمقارنة على محل ، وهو الأمر الذي لا يتيسر في الدكاكين حيث يجعل الناس باختيار النظارات فترهق أبصارهم وتضرهم ، وأشير عليك بتجربة كل عين على حدة ، إذ قلما يوجد بين الناس من تتساوى لدفهم العينان ، ويتأكد كل ناظر

أن يعتمد على أحدى عينيه في القراءة والعمل لضعف في عينه الأخرى ، أو لأنها أصلح للنظر بعيد . ولهذا تفيد النظارة المتساوية تلك العين المهمة ولا توافق العين المغول عليها ، ومتى عرفت ما يوافقك من النظارات فاحتفعظ بالآقوى منها للمستقبل حين تحتاجين إليها مع الزمن ، وقدمى ما تستغنين عنه هدية للأصدقاء .

أما الخطأ الذي أومأ إليه فرنكلين في مقدمة الخطاب السابق فقد يظهر من خطابيه التاليين ، وأولهما بتاريخ الثلاثاء من شهر ديسمبر سنة ١٧٧٠ .

قال : « ستحت لي الفرصة ، أثناء انتظار السفينة أكثر من وقتها الممدود — أن أكتب إليك بعد ما فاتني ، على ما أظن ، أن أفعل حين رجوت ابن عمنا ولIAMز أن ينوب عنى في الاعتذار إليك .

وصل إلى خطابك الكريم المؤرخ في الخامس والعشرين من شهر سبتمبر على يد السادة الفتياز الذين حبوا أنفسهم إلى « والى كثير من معارفنا بمسلكهم الحميد . وقد حقق « جوشيا » أمنية قلبه بالتلمذ على مسيرة ستائلي الذي استجاب وجائى بعد طول انقطاعه عن التدريس فقبل أن يعلمه بعض الدروس وسرع من سرعة فهمه وتقديره ، ويبدو لي أن جوفاثان فتى ذو قيمة رصين منتظم يميل إلى العمل والتدبير ، وهي مخايل النجاح في الأشغال ، وانى في صحبتهم لجد سعيد .

أما الاشاعة التي ذكرتها — وأخبرنى جوشيا فحواها وهو أتنى عزلت من وظيفة مدير البريد من أجل كتاب أرسلته إلى فيلادلفيا — فربما كان أساسها أن بعض الرؤساء قد ساءهم كتابتى أمثال تلك الكتب ولاج عليهم انهم يريدون أن يعبروا عن استيائهم على ذلك المنوال ، ولكن أنا سأ من أصدقائي أشاروا برأى غير هذا الرأى على غير علم منى ، فاضطر خصوصى إلى القناعة بشئنى — عن سمعة — في الصحف واستثارتى بذلك إلى الاستقالة . ولا أخال لهم يفلحون في هذه الاستثارة ، لأننى لا أملك

تلك الفضيلة المسيحية فضيلة التسليم<sup>(١)</sup> .. فمن أراد أن يحتل مكانى  
فليأخذه عنوة !

ولقد سمعت عن عظيم من العظام كان ديدنه في أمر الوظائف  
ألا يطلبها وألا يرفضها ، وأضيف اليه كذلك ألا يستقيل منها ، وقد قلت  
لأصدقائي انتي ترقيت الى تلك الوظيفة على درجات من الوظائف التي  
هي دونها ، وكانت مواردها قبل ولايتي لا تأتى بمرتبها فأصبح المرتب  
بعد ولايتي لا يعطى الا اذا أنت به مواردها ، وكانت في السنوات الأربع  
الأولى لا تقوم بتكليفها حتى بلغ دينى ودين زملائى عليها تسعمائة  
وخمسين جنيها فاجتهدت اجتهادى حتى وصلت الى ما هي عليه الآن من  
الوفر والفائدة ، واعتقدت من ثم انتي صاحب نوع من الحق فيها ، وقد  
قمت حتى الآن بالأمانة والصدق على أعمالها مما أرضى عنى الرؤساء  
كل الرضا ، وهو غاية ما كان يطلب منى في هذه الوظيفة . أما الكتب التي  
أشدتها الى فلادلفيا فقد كتبتها فعلا قياما بواجب آخر وهو واجبي نحو  
وطني ولا شأن له بعملى في ادارة البريد ، وان مسلكى في هذه المسألة  
تشبيه بسلوكى في مسألة سابقة لها حين كان الرؤساء يهمون باحتضانى  
واعتنقى لمساعدتى ايامهم في النساء قانون خاص بالإبراد ، ولا يزال  
شعورى اليوم كشحورى بالأمس في أمر هذه القوانين التى لا يجوز أن  
تصدر هنا لتطبيقها في أمريكا ، وانها اذا صدرت وجب السعي الى الغائبة  
على الأثر ، ولست أعتقد أنتي مطالب بتبدل شعورى كلما خطط لصاحب  
الجلالة هنا ألا يغير وزرائه ووكلاه ! وقد كانت هذه عبارتى التى فهمت  
بها لهذه المناسبة ، ثم سمعت أنهم — وان حسبونى حقيقة باللوم وفهموا  
أن الموظف مطالب بمحاراة الوزير على رضا منه أو على غير رضا —  
قد عادوا فنظروا الى مسلكى الطيب وخلقى الشخصى كما تفضلوا  
فوصفوه ، وقرروا من ثم ألا تتزعزع الوظيفة منى .

وجائز أنهم ينكصون عن رأيهم هذا ويعرّلونى ، ولكننى على ثقة

(١) هذه الكلمة بالإنجليزية تفيد معنى الاستكانة والتسليم للمقادير .

أن شيئاً من هذا لن يبدل من خطتي السياسية ، وخطتي التي اطمأنت إليها دائماً هي ألا أحيد عن خطة في الشؤون العامة رعاية لشأن من الشؤون الخاصة ، بل أمضى قدماً في عمل الصواب الذي أعتقده وأدع المصير بين يدي العناية الالهية . وقد كان مما يسرّ لي أن أستقيم على النهج في صبائِي أتنى كنت صاحب صناعة وكانت أعلم أتنى أفعى بالقليل في معيشتي ، ولم يكن من همي يومئذ أن أجمع ثروة كبيرة وأن أذهب مع الأطماء ، فانما بما أكتبه من الكفاية من موارد عملي . والآن أخال أن الاحتفاظ بحربي ونزاهتي أيسر على بعد أن بلغت النهاية من مرحلة عمرى وقللت النفقة التي يقيت للبقية منها ، وأن ما أملكه الآن ببركة الله وحسن القصد فيه ليكفي ، الا اذا وقع من الكوارث العظمى ما ليس في حسابي ، فلا حاجة بي الى الزيادة عليه من موارد وظيفة او ادارة .

أبعث اليك في هذه المرة الكتبين اللذين كتبت عنهما ، وثمن كل منها ثلاثة شلنات ، وقد كنت في زيارتى السابقة للندن قبل خمس وأربعين سنة أعرف انسانة تفكير تفكير مؤلفك اسمها « اليف » امرأة أحد الطبايع ، وماتت على أثر سفرى من انجلترا فكان من وصيتها لولدها أذ يلقى علانية في قاعة صولتر خطاباً يؤكّد فيه أن هذه الدنيا هي الجحيم الحق مقر العذاب والعقاب للأرواح التي أذنبت في حياة أفضل من الحياة فنفيت الى الأرض لتجزى على ذنبها في أسلاخ الحيوان على اختلاف أنواعه ، واتفقى زمن طويل منذ اطلعت على الخطاب الطبوع الذي كلّن يستشهد بالكثير من آيات الكتاب المقدس ، ومررناه أتنا ستدكر بعد الموت ما كنا عليه قبل الولادة وان كنا نتساءل أيام المقام في هذه الدنيا ، وانا نذكر كذلك ما لقيناه من العقاب لتعتبر به ويعتبر به سوانا من لم يذنبوا مثلنا فلا يقعوا في الخطيئة اعتباراً بما أصابنا .

والواقع أتنا نرى هنا أذ كل حيوان من الحيوانات الدنيا له عدوه الذي ركب في الرغبات والغرائز والأسلحة التي تحكمه من تخويفه وجروحه والقضاء عليه . أما الانسان — وهو أرفعها جميعاً — فبعضه

بعض شيطان ، وتلك حال تستدعي فرضاً كفرض السيدة اليه مع اليمان بكرم الله وعدله في قصائه للتوفيق بين هذا اليمان وكرامة العزة الالهية . الا أن عقولنا لا تذهب بنا بعيداً حين نسومها أذن تبحث عما كان قبل وجودنا أو ما سيكُون بعد هذا الوجود لقلة التواریخ والواقع التي بين أيدينا . وإنما يعطينا الوحي معرفتنا الضرورية بهذا ويقصد غایة القصد على الخصوص فيما أعطاها من المعرفة عما كان قبل وجودنا .

— أرجو أن تتبعي الكتابة إلى أصدقائك بفلاديفيا ، ومحبتي لأنجالاك وعلى العهد .. أخوه المحب الودود .

وكتب إليها ينفي اشاعة عن تعينه في وظيفة انجليزية أثناء قيامه بالوكالة عن بعض الولايات الأمريكية :

لندن في ٢٨ يوليه سنة ١٧٧٤

« .. إن الاشاعة التي أشرت إليها وقيل فيها أني اقترح أن أتخلى عن توكيلاً واقطع عن وطني أنها هي أكذوبة خبيثة كما قلت في خطابك ولم يُست بالاشاعة الكاذبة وحسب بل هي سخيفة مضحكة . أذ هي تفترض على الأقل أني لا أعرف من الحساب ما يفرق به بين ثلاثة وألف ! وإنهم ليعادون الاشاعة هنا حيناً بعد حين زاعمين أني أتساءل للعودة إلى وظائف الحكومة ، ولعلمهم يتمسون ذلك ويتظرون . فلينتظروا أذن إلى يوم الدين .

إن الله للأعلم بسروري ، واتني لآسف أن أقبل أحسن الوظائف التي يتم بها الملك هنا ما دامت تلك الأفاسيل الجائرة تسلط على وطني . وتفى أني لن أصنع شيئاً يمسني في نظرك أو ينقض المسار الأمين الذي سلكته حتى الآن في الأعمال العامة ، وقد احتفظت بوظيفتي السابقة حتى عزلت منها ولم أعزز لها لأنني لم أكن قد تلقيتها مكافأة من الحكومة بل أرتقيت إليها بحق الخدمة فيها دونها والأمانة في تلك الخدمة ، فجازى لى أن أعتبر لى حقاً فيها أو حقاً عليها ، ولم أشاً أن أيسر لهم الأمر بالاستقالة لكي

بيو، منهم من أراد أن بيء بمحض حرمانها منها، وقد شرفوني بالخارجى من تلك الوظيفة فليكن حذري الآذن لا يحملونى المسنة باعانتى اليها.

وكل هذا أكتب اليك أنت. أما الدنيا فربما خطر لها أن هذه التصريحات والتوكيدات أمر لا يقبل التصديق ومحض ادعاء يدعى المرء لتخفيه شأن نفسه. فلا تطعن أيتها الأخت العزيزة أحدا على هذا، فانما أكتب اليك لرضاتك واراحة ضميرك مما عسى أن يساوره من القلق لسماع تلك الاشاعات.

وكتب اليها بعد انتخابه رئيسا للجمعية في فلادلفيا يعرب لها عن شعوره بالاجماع على انتخابه:

فلادلفيا في ٤ نوفمبر سنة ١٧٨٧

وصل الى منك أخيرا كتاب كريم سرني بما علمته من تمتلك بالصحة وأناك اتخدت العدة للشتاء كما أبناك. ومطالبك مستجابة محترمة، وقد يتغدر على أحيانا أن أعرف ما تحتاجين اليه فأرجو ألا تتحمسي أبدا عن أخباري بكل ما في وسعى أن أعمله لسعادةك في حياتك.

لقد غزت من قبل أن اعتزل العمل في الهيئة النيابية سنة أخرى كى يتسع أمامى الوقت للسفر الى بوسطن في الربيع . الا أنتى أذعن للإجماع الذى انعقدت عليه آراء بنى وطني فأقررتني مرة أخرى على كرسى الرئاسة ، وتم "لى الآن أكثر من خمسين سنة في الخدمة العامة .

لما أخبرت صديقك الطيب دكتور كوبير أنتى أمرت بالسفر الى فرنسا بعد أن بلقت السبعين ، وقلت له ان « الجمهور » قد أكل لحمي و يريد اليوم على ما يظهر أن يأكل عظمى — أجابنى قائلا : انه يجذب منهم حسن الذوق . لأن أطيب اللحم ما جاور العظم كما جاء في الأمثال ، ولا بد لي أن أعترف لك بأننى مرتبط بذلك وأحسب أن أختى العزيزة حقيقة أن تسر باختيارى للمرة الثالثة بعد طول التجربة ، وإن بنى قومى يتفقون بالاجماع الأصوات — ما عدا صوتنى — على توجيه هذا التشرف الى <sup>كم</sup> وهو أكبر

ما يملكونه من تشريف . وان هذه الثقة العامة بغير قيد ولا حد من شعب  
كامل لأغز عندي وأرضي لكبريائي من أرفع ألقاب النبلاء . فان الأشرطة  
والحمائل التي يعلقونها حولهم قد تضفي على أصحابها شرف الألقاظ  
والأسماء ، ولكنها لن تمنحهم لباب الشرف الصميم <sup>(١)</sup> ..

---

(١) رسائل فرنكلين الى اخته مانخودة كلها من مجموعة رسائل بنجامين فرنكلين وجين ميكوم Mecom طبع جامعة برنسنون سنة ١٩٥٠ .

## خرافات وحكايات ذات مغزى

نشأت الخرافات ، أو الحكايات الموضوعية ذات المغزى ، في أوقات متقدمة قبل الميلاد بعده قرون ، وعرفتها الأمم الشرقية والغربية بأنواعها المتعددة ، ومنها الحكايات التي توضع على السنة الحيوانات ، والحكايات التي توضع على السنة مخلوقات عاقلة كالمخلوقات الأدبية مع اختلاف الشكل والقطرة كالجبن والملائكة والمردة والأقزام ، ومنها الحكايات المستحالة التي تتسب إلى بعض الأشخاص التاريخيين أو الذين تدعى لهم صفة تاريخية لإجراء الحكمة القديمة على المستثم ، وكل هذه الأنواع كانت معروفة قبل القرن السابع عشر في البلاد الغربية ، ولكن هذا القرن — ولا سيما النصف الأخير منه — قد خص بظاهرة منفردة بين القرون الأخيرة وهي شيوخ هذه الحكايات فيه بجميل أنواعها وانتقال الكثير منها إلى مجال النقد الاجتماعي والأراء التعليمية التي تزعم منزع الحرية وإعادة النظر في حقائق الحياة ، وقد يتبين بين متتصف هذا القرن ومتتصف القرن الذي يليه أعلام بارزون في هذا الفن من الأدب والحكمة من أمثال لا فوتين الذي كان يلقب بايسوب الفرنسي وأمثال جون جراري الذي كان يلقب بايسوب الانجليزي ، وتبين في هذه الفترة أمثال فولتير وسويفت الذين اتخذوا من القصص المخترع وسيلة لنقد المجتمع وكشف عيوبه منقوله إلى آناس بعيدين أو أزمنة بعيدة لاتخفي على القاريء وجوه الاتصال والاختراع فيها ، وتحليل هذه الظاهرة في أواخر القرن السابع عشر ليس بالأمر العسير ، لأنه الزمن الذي ثفت فيه العقول الحرية التفكير ولم تبلغ مداها من الحرية دفعة واحدة ، بل بدأت بالتلبيس والكتابية وتدرجت منها إلى التصرّح الذي بلغ حد التوجه في كثير من الأحيان ، وهذه الحكايات بأنواعها أدلة صالحة للنقد المستور والحرية الفكرية المقمعة ، يقبلها المنقودون ولا يتذمرون منها لأنها تسليم بالحكاية

ولا تخص أحداً منهم بالمجوم الصريح عليه ولا تهدد مصلحة معلومة  
تهديداً يخشى منه أو تعرف عقباه .

وفرنكلين كعادته سريع إلى اقتباس كل وسيلة من وسائل المعرفة والتعليم «الأبوي» الذي يهدى الجميع ولا يجرح أحداً مقصوداً لذاته، وقد اقتبس هذه الوسيلة وتوسيع فيها كما نرى من بعض رسائله السابقة، واقتبس الخرافية والحكاية ذات المغزى بأسلوبها القديم مع تجديدها بالاتجاه بها إلى الحكمة الواقعية في زمانه، وقد اخترنا منها هذه الحكايات الأربع لأنها من حكاياته المعبرة عنه وعن شواغل ذهنه وحياته على التخصص ، فعنها حكاية عن الثورة الأمريكية ، وحكاية عن حدود العقل الإنساني في طموحه إلى أسرار الكون وأصول الحياة وصفات الخالق ومقاصده في خلقه ، وحكاية عن عمر الحي كيف يتساوى فيه الدهر الطويل واليوم الواحد عند نهاية الأجل ، وحكاية عن السماحة الدينية لها تاريخ خاص بين هذه الحكايات ، وهي حكاية إبراهيم الخليل وحواره مع ربه في أمر الكثرة الجاحدين ، فهذه الحكاية قد وقع عليها فرنكلين في بعض مطالعاته ويعزوها بعضهم إلى المسعدي الشيرازي شاعر الفرس المعروف، ويقال إن المسعدي نفسه سمعها من أصحاب الأساطيليات، ولم يزعم فرنكلين قط أنها من تأليفه ولكنها كان يداعب ضيفه ويسألهما أن يفرقوا بين الأسلوب الذي وضعها فيه وبين أسلوب الكتب الدينية التي احتواها المهد القديم ، وكان يقول لطائفة منهم أمام أمام بعض القسس أنه سيقرأ لهم الاصحاح الحادى والخمسين من سفر التكؤن ، ولا وجود لهذا الاصحاح في الكتاب ، لأنَّه ينتهي بالاصحاح الخمسين ! ولكنها دعابة من دعاباته وعادة من عاداته في محاكاة الأساليب ، وكان يعالج هذه المحاكاة في إبان تعلم اللغة الفرنسية ليتمكن نفسه قبل أن يتمكن غيره . وقد يدعا صنف ذلك ، كما مر بنا ، بأساليب أديسون وغيره من الكتاب المحدثين ، ولعله لم ينس هنا نزعته القدبية إلى مذهب الريوية Deism وأراء الربوبيين في طبيعة الوحي الإلهي الذي يتزل على طبيعة البشر ،

فانهم يعتقدون أن مضمون المهد القديم تسجيل توفر عليه الكتاب والحفاظ لآيات ما وعمره من الأقوال المتهمة على السنة الرسل والأئمة .

وقد أثارت حكاية ابراهيم هذه ضجة تطبيقة في إبان تأليفها والقائهما ، ثم أثارت بعد ذلك ضجة أخرى بعد طبعها وجمعها، وسؤال الحمد لأنصار من شائمه أن يتهموه بالسرقة الأدبية عما لظهور هذه الحكاية بين أوراقه المجموعة ، وعملت الخصومة السياسية عملها في تكبير هذه التهمة فنشرت في مجلة الخزانة البريطانية British Repository في عدد شهر مايو سنة ١٧٨٨ حملة صحفية ترمي فيها بالسرقة والادعاء ، وتلقى صديقه فوجان Vaughan هذه التهمة بخطاب أرسله إلى المجلة ونشرته في عدد قاتل ، وكتب فرنكلين نفسه إلى فوجان يعزز مقاله ويعيد قوله في المجلة انه ينسبها إلى نفسه وليس له فيها من عمل غير الصياغة وما أضافه إلى خاتمتها من الوعيد وال وعد<sup>(١)</sup> ... قال الحكاية — لما أحاط بها من هذه الحواشى جميعا — أحق الحكايات ذات المغزى بالنقل في هذا السياق .

وهذه هي الحكايات الثلاث :

### ملك الغبار

كان للأسد ملك أحدى الغابات جند من الكلاب الأماناء مخلصون له ولدولته ، وعلى أيديهم اتسعت تلك الدولة وهايتها من حولها جميع الأعداء .

إلا أن الأسد — ذهاباً مع نصيحة السوء من مشيريه — نفر من أولئك الجناد ودانهم بالتهم دون أن يستمع إليهم وأمر بسبارك و فهو دهون سوره أن تغير عليها وتفتك بها فتكا ذريعا ، وشكرا الكلاب فلم يؤبه لهم ورفضت شكياتهم بغير اكتراث ، فلم يكن لهم بد من الذود عن أنفسهم وحماية حوزتهم ، وفعلوا مستبسلين .

(١) صفحة ١٥٣ من كتاب الخزعبلات Bagatelles

وكانت منهم فصيلة مدخلة النسب من سلالة الذئاب والثعالب  
أفسدتهم وعد الملوك بالكافارات الجزيلة فخذلوا سلالتهم وذهبوا إلى  
معسكر الأعداء .

وانتصر الكلاب أخيراً فانعقد الصلح بينهم وبين الأسد أن يصبحوا  
أحراراً وألا يكون له عليهم بعد ذلك من سلطان .

وتعذر على الأشبال المدخلين أن يرجعوا إلى السكن بين الكلاب  
فراحوا يلحون في طلب المكافأة الموعودة ، واجتمع من السابع مؤتمر  
كبير للنظر في هذا الطلب ، فاتفق الذئاب والثعالب على عدالة الطلب وأن  
الوعد الملكية لابد من تقادها ، وعلى كل مخلص من رعاياه أن يسمم في  
تمكين صاحب الجلالة من الوفاء ب تلك الوعود .

وخلقهم الحسان وحده فجهر برأي جرىء يجعل بما في طبعه التبليغ  
من الشجاعة والطلاقة ، وتصدى لهم قائلاً : « إن الملك قد أساء نصائحه  
السوء مشورته وأوغروا صدره على رعاياته الأماء ، وإن وعد الملك  
ينبغي أن تنفذ حقاً إذا وعد بها من يصدقون الخدمة وكان في إنجازها  
منفعة للجميع ، ولكنها إذا استقررت رعاياته بعضهم على بعض فهي باطلة  
من مبدئها ، ومن جراء المعراضين عليها والذين اقترفوا جرائم العداوان  
والغيبة من جراء ذلك التحرير أن يلقوا أشد العقاب بدلاً من المكافأة  
وحسن الثواب ، ولننتظر كيف تقصت قوتنا وهي من بأسنا بما أصابنا  
من فقدان كلابنا ، فإذا زرتم للملك أن يحسن إلى الذين قتلوا أخوتهم  
أقمتم بذلك سابقة تغري من طني بامتثال تلك الوعود وأصبحت كل  
مكافأة ينعم بها أولئك الناشزون المنحرفون توكيداً لها وتشجيعاً عليها ،  
وتروض الخيل والبقر كما ت تعرض الكلاب لشر الواقعية فيما بينهم  
والاقسام بين صنوفهم ، وتتابعت العروب الأهلية في ديارنا حتى لا أمان  
ولا حرية في هذه الغاب ، ويتحقق بنا الفساد فلا حيلة لنا غير الخضوع  
والاقياد لكل طاغية يحلو له أن يتكل بنا وينعم بأفتراسنا حين شاء » .

ولم يخل المؤتمر من عقل وحكمة ، فأصاغ الى الرأى الصراح ،  
وقضى برفض ذلك الاقتراح .

### أبو معشر الساحر

كبير الفلكى الطيب أبو معشر فكفت عن العمل ، ولاذ بقمة الجبل ،  
وتتجنب عشرة الناس وأئس إلى أصحابه من المردة والجان الذين يحبونه  
ويرفهون عنه الوحدة بالأحاديث والأسفار ، وما فيها من معارف وأخبار .

وزاره بلوغيل المزيد ذات مساء ، وهو مارد عظيم تعلو هامته سبعة  
فراسخ وينبسط جناحاه على رحاب دولة شاسعة ، فاستراح في لطف  
وهيبة على ذؤابات الشجر في الوادى وأensed رأسه إلى جبل قلوبون ،  
واستقبل خيمة الساحر الكبير بوجهه المثير .

وتحدث إليه الساحر حديث الخشوع والتقوى عن حكمة العلي  
الأعلى وعما في مقاديره من الخير والبركة ، وقال للمارد أن نعمته سبحانه  
وتعالى أجل من أن يخصيها ، وأنه يركض عقله إلى أقصاه ، ولا يدرك به  
الشأو فيما ينقب عنه ويقتصاه .

قال بلوغيل : على رسالك إليها الصديق ولا تسرف في أمر تلك المزية  
التي تسميها بالعقل والحكمة ، فانك لو علمت أصلها ولست مواطن  
ضعفها كنت إلى المخل منها أدنى منك إلى الزهو بها والانكال عليها .

قال أبو معشر : أتبشى أذن بما لا أعلم ، واكتشف عن غشاء الجهة ،  
وسند فهمي بنور الهدایة .

قال بلوغيل : تأمل يا أبا معشر في سلم الخلق من الفيل إلى الصدفة ،  
وانظر إلى درجة منها بعد درجة تجدها قريبا من قريب حتى لا فجوة  
بينها ولا تكاد تلحظ الفارق بين منازلها ودرجاتها . وإن الناس عامة  
ليجهلون ما يجهلون ، ولكنك أنت — أبا معشر — أهل لأن تعلم ما فوق  
الفيل من منازل ودرجات إلى غاية الغايات من العظام والطبيات . فلا

فجوة هناك بين خلق وخلق ، بل هي درجة فوق درجة وأفق يعلوه أفق ، لا يدركها البصر ولا يستوعبها الضمير ، ولا يرتفع إليها الطرف إلا ارتد وهو حسير<sup>(١)</sup> .

### ذبابة الربيع

وألف فرنكلين هذه الخرافات، أو هذه الحكاية الرمزية ذات المعنى ، بعد رحلة خلوية إلى جزيرة مولان جولي Moulin Joli بنهر السين ، مع السيدة بريون التي كانت مشغولة — كميدات المجتمع الباريسى كله — بالحرب الموسيقية بين المدرسة الألمانية والمدرسة الإيطالية ، وكان في الرحلة معها طائفة من العلية المذهبين تحدثوا في مسائل شتى في مسائل الأدب والفن والفلسفة ، وكتب فرنكلين هذه الحكاية ليضمنها عبرة الحياة بعد اليوم الذى قضوه في النزهة أو بعد الأجل المحدود لأجيال الذباب التى تظهر فى موسم الربيع وتكثر فى جزر الانهار الفرنسية ولا يطول بها العمر وراء اليوم الذى تولد فيه .

قال وهو يهدى الحكاية ، أو العبرة ، إلى تلك السيدة :

تذكرين يا صديقتي العزيزة أنتى فى ذلك اليوم السعيد الذى قضيتكا فى الحديقة البهجة والصحبة الطيبة عند مولان جولي — قد تحييت هنئيًّا عن الزمرة وتختلفت وراءها قليلاً متفرداً بنفسكى ، وقد رأينا أثواب ذلك عدداً كبيراً من « الهياكل العظمية » لذلك الذباب الذى يسمونه تارة « بالمنا » وقارة بذباب الربيع ، وقيل لنا إن أجيالاً منه تعيَا وتموت وتعاقب في مدى النهار الواحد ، وصادقنى جمِع من هذا الذباب منعقد على ورقه من أوراق الشجر مستغرقاً في الحوار والجدل ، وأنت تعلمين أنتى بالمسنة هذه الخلائق الدنيا خير ..

(١) الحكاياتان من كتاب الخرافات الكبرى جمع كمروف

Great Fables, Komroff

أن اشتغالى بالسنة هذه الأحياء فهو العذر الذى اعتذر به من التقدم البطىء فى تعلم لسانكم الجميل ، فأضفت — بداعى الفضول — إلى حديث المؤتمر ولم يتيسر لي أن أستوضح جلية القول من كل حديث لأنهم كانوا في اندفاعهم وحمى شبابهم يتكلمون كل أربعة أو خمسة في وقت واحد . الا أتى أدركت من كلمة هنا وكلمة هناك أنهم يتناقشون في المفاضلة بين الطين الذى يسمع من احدى مدارس الذباب الفنائية والطين الذى يسمع من المدرسة الأخرى ، وكانوا مستغرقين في هذه المناقشة كأنهم على ثقة من امتداد العمر بهم شهراً أوزيد ..

قلت في نفسي : ما أسعد هؤلاء القوم ! وقلت كأننى أخاطبهم : لاشك أنكم تعيشون في ظل حكومة رقيقة عادلة لا تشغلكم بالشكاليات والمظالم عن الاسترسال في أمثال هذه الأحاديث عن الموسيقى الأجنبية التى تبحشون في محسانتها أو عيوبها ، وأدرت بصري عنهم فلمحت واحداً منهم أشيب الرأس منفرداً على ورقة أخرى يناجي نفسه نعاءً أتعججني ورافقته فدونته على الورق لساعته .

كان هذا الحكيم الذبابى يقول : « إن حكماء أمتنا الذين عاشوا قبلنا منذ عصر بعيد يقولون أن هذا العالم القبيح المسما بالمولان جولي لن يمر أكثر من ثمانى عشرة ساعة ، وأخالهم على حق فيما يقولونه لأن هذا النهر المظيم الذى تولد منه الحياة كلها قد مال في حياتى إلى جانب البحر المتوسط حيث يفرق لا محالة وينطفئ ، وتختتم معه شعلة الحياة في كل مكان ويذبح هذا العالم الكبير مطروحاً في غمرة البرد والظلم !

ولقد عشت سبعاً من هذه الساعات — عمراً طويلاً ولا ريب ، لأنه لا يقل عن أربعينأة وعشرين دقيقة ، وما أقل الذين يعمرون منا مثل هذا العصر الطويل ! لقد أبصرت بعينى أجيالاً تولد وتحيا وتموت ، وصحباتى اليوم إنما هم الأبناء والحفدة لمن كانوا صحابة لي في ريعان الشباب ولم يبق منهم أحد أراء وآسفاء .

وانى لا محالة لاحق " بهم عما قريب ، فاتنى — وان كنت في صحة وعافية — لن أخرق قانون الطبيعة ولا مطعم لي في البقاء بعد سبع دقائق أو ثمان . فما غناه هذا العناء الذى عانيته وهذا الشهد الذى جمعته على هذه الورقة حيث أتركه ولا أنعم بمذاقه ! ما غناه الغزوات السياسية التى غزتها فى سبيل هذه الجماعة على تلك الأجرة . ما غناه الفلسفة ومعضلاتها التى تعمقت فيها عسى أن أفيد بها أبناء النوع كله ! وما غناه القانون فى السياسة بغير أخلاق !!

ان جيلنا الحاضر من ذباب الربيع لو شيك أن يخالطه الفساد والمتكر خلال لحظات ويصبح كغيره وغيره من سكان تلك الأجمات فى ضروب الفساد والشقاء ! أما الفلسفة فما أقصر الخطى الذى خطوناها فى مضمارها ! وما أصدق قول القائلين : ان الفن لطويل وان العمر لقصير .

ويواسىنى أصدقائى فيذكرون لي السمعة التى سأرکها من بعدي ويقولون لي اتنى استوفيت حكم الطبيعة وحكم المجد أجمعين . فماذا تجدى السمعة ذبابة قد فتت وليس لها من وجود ، وماذا يبقى من التاريخ كله بعد الساعات العشر والثمان ، وبعد فناء الدنيا وفناه المولان جولي فسها فى غيابه الظلام والخراب ؟ .

التنى — بعد السعى الحثيث والدأب الطويل — لم يبق لي من متنة فى العمر غير التدبر فى تلك الأيام الطوال التى أحسنت فيها المقصد والنية ، وغير الأخاذيث التى أبادلها نخبة من الذبابات الطيبات ، وغير ابتسامة من حين الى حين ، أو أغنية فى يوم بعد يوم تجود بهما الحبوبة الحسنة .

### ابراهيم والضيف الكبير

.. وحدث بعد هذه الأشياء أن ابراهيم جلس على باب خيمته قريبا من وقت غروب الشمس .

ونظر فرأى رجلا حنته السنون مقبلا من ناحية البرية ، متوكلا على عكاز .

ونهض ابراهيم واستقبله وسأله فائلاً : بحقك آن تأوى الى خيمتي  
أشغل قدميك وتستريح طول الليل وتمضي الى سيلك عند الصباح .

ولكن الرجل قال : لا .. وقال انه سينام تحت تلك الشجرة .

وكرر ابراهيم الدسوقة والمع عليه كثيرا ليقبل دعوه ، فقبل ودخل  
منه الخيمة وصنع له ابراهيم خبزا فطيرا وأكلما معا .

وَلَا رَأَى إِبْرَاهِيمَ أَنَّ الرَّجُلَ لَمْ يَحْمِدِ الْرَّبَّ وَلَمْ يَتَوَجَّهْ إِلَيْهِ بِالصَّلَاةِ سَأَلَهُ : مَا لَكَ لَا تَعْبُدِ الْرَّبَّ الْعَلِيَّ الْأَعْلَى خَالِقَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ ؟

وأجاب الرجل فقال : أنت لا أعبد الإله الذي تتحدث عنه ولا أسبح  
باسمك . لأنك اتخذت لنفسك ربًا يقسم معنـي في بيـتي ويزودني بـجـمـيع  
الـأـشـيـاء .

وثارت ثأرة ابراهيم على الرجل فقام ودفع به الى البرية مشيا باللطمات والضربات .

وفي منتصف الليل نادي الرب ابراهيم قائلاً : أين الرجل الغريب ؟

وأجاب ابراهيم فقال : انه لا يعبدك ولا يسمح باسمك ، فأخرجه  
لأجل هذا من خيتي ودفعت به الى البرية .

وقال رب : هل أصبر عليه أنا هذه السنين المائة والثمانى والتسعين  
أطعنه وأكسوه ولا أبالي عصيانه لى وتأتى أنت صاحب الخطيبة فلا  
تصبر عليه ليلة واحدة ؟

وقال ابراهيم : لا يرحم غضب الرب على عبده . لقد أخطأات وأتوسل  
الىك يا رب أن تغفر لي خططيتي .

ونهض ابراهيم وخرج الى البرية وبحث عن الرجل بحثا شديدا فوجده وعاد به الى الخيمة فاكرمه وتلطف له وشيشه في اليوم التالي بالهداما .

ونكلم الرب مرة أخرى مع ابراهيم قائلا : من أجل خطيئتك هذه  
يتعذب أبناءك أربعمائة سنة في أرض غريبة .  
ولكن من أجل توبتك أهذهم وأخرجهم أقوياء بقلوب فرحة وخير  
كثير <sup>(١)</sup> .

---

(١) من كتاب المزعلات *Bagatelles*

## علميات

### الزست على الماء

والرسالة الآتية كتبها فرنكلين إلى صديقه وليام بروتنج من علماء إنجلترا الطبيعيين في عصره ، يطلعه فيها على تجاربه في تهدئة البحر الهائج بصب الزيت على الماء ، وقد تلقت هذه الرسالة على مجمع العلوم البريطاني في الثاني من شهر يونيو سنة ١٧٧٤ ثم نشرت في مجموعتها الفلسفية ، وقد ترجمناها من « الكتابات الترجمية » التي سبقت الاشارة إليها .

لندن في السابع من نوفمبر سنة ١٧٧٣ .

سيدي العزيز :

أشكر لك ما أبلغتني من ملاحظات صديقك العلامة في كارليلسل ؛ وقد كنت في صباعي أبتسم حين أقرأ كلام بليني Play عن عادة الملائكة في زمنه أن يمالجو تهدئة الأمواج في العاصفة بارقة الزيت على البحر ، وهي عادة أشار إليها مع اشارته إلى استخدام الغطاسين للزست ، ولكنني لم أتفق إلى تهدئة الهواء العاصف برش الخل فيه ، وأرى كما يرى صديقك أن المتأخرین أفرطوا في السخرية من معارف الأولين ، ومن كذلك أن العلماء أيضاً يفترطون في السخرية من معارف العامة ، ومن الأمثلة على ذلك أن التبريد بالتبخير تجربة عرفها العامة منذ زمن طويل ، وأما تهدئة الأمواج بالزست فهي من الأمثلة على كل الأمراء .

ولعلك لا تأبه أن أبسط لك كل ما سمعت وعلمت وعملت في هذا الصدد ، وها أنا ذا أستاذتك في آذن أبسطه بين يديك :

في سنة ١٧٥٧ كنت في أسطول مؤلف من ستة وتسعين شراعاً يتجه

إلى لويربورج ، ولاحظت أن مؤخرة سفينتين في الأسطول هادئة على نحو يلفت النظر ، على حين لا يحظى الاضطراب في السفن الأخرى بمثل الريح التي أخذت في الهبوب . وحترت في الاختلاف بين المنظرين وأفضت بغيرتي إلى الربان سائلاً عن سر هذا الاختلاف ، فقال لي إن الطباخين على ما يظهر قد أفرغوا في البحر بقایا الماء الوضر فأسلست قليلاً جوانب السفينتين ، وكان في إجابته مسحة من الاستخفاف بهذا الجهل لأمر من الأمور التي لا يجعلها أحد ، ولكنني استخففت أيضاً بالتفسير الذي أبداه وإن لم يكن في وسعي أن أغذر على تفسير غير منه ، ثم تذكرة ما قرأت في بليني فحولت على تعبيرية أثر الزيت على الماء عند سنوح الفرصة الملائمة .

وعدت إلى البحر منفرداً سنة ١٧٩٢ ، فلاحظت أولاً ذلك الهدوء العجيب في الزيت الذي كان على ماء المصباح المترجح الذي علقته في الكيسينة كما وصفته في أوراقي ، وطفقت أنظر إليه وأظنه ظاهرة ليس لها تفسير . وكان معى من الركاب ربان قديم لم يهتم باللاحظة لاعتقاده أن الظاهرة من قبيل ظاهرة الزيت الذي يرافق على الأمواج تهدئتها ، وهى كما قال عادة البرموديين كلما أرادوا اصابة سكة يحول اضطراب الموج دون رؤيتها ، ولم أكن قد سمعت بهذه العادة قبل ذلك فكتبت مدينتا له بما أخبرنى عنها وإن كنت لا أوافقه على التشابه بين ظاهرة المصباح وظاهرة الموج لما بينهما من الاختلاف في العمل والتبيبة . إذ كان الماء في أحدي الحالتين هادئاً حتى يوضع الزيت عليه فيضطرب ، وكان الماء في الطالة الثانية مضطرباً حتى يوضع الزيت عليه فيهدا ..

وأخبرني السيد نفسه أن العادة متتبعة بين الصياديـن من أهل لشبونة كلما عادوا إلى النهر وأبصروا على حواري القوارب طقوـات يخشون أن تغدرـها ، فانهم في هذه الطالة يفرغون زجاجة أو زجاجتين على ماء البحر فلا يطعنـى على القوارب ويمرـون بسلام .

ولم تسـنح لي فرصة لتعزيـز هذا الخبر حتى تحدثـت مع شخص آخر

طويل الخبرة بالللاحة في البحر الأبيض المتوسط ، فأخبرني أن النطاسين هناك اذا احتاجوا الى النور في القاع وحال بينهم وبينه اضطراب سطح الماء فتشو من أفوائهم قليلا من الزيت بين حين وحين فتصعد الى السطح وهذا الماء فقد منه النور ، وجعلت أقلب هذه المعلومات في ذهني وأعجب لخلو كتبنا في التجارب الفلسفية من الاشارة اليها .

وألفيتني أخيرا في كلام ، وفيها بركة لاحظت يوما من الأيام أنها مضطربة الماء فارقت عليها قليلا من الزيت ورأيتها يتشر على سطحها بسرعة مدهشة ولكنه لم يؤثر في تهدئة الماء ، لأنني أرقته في اتجاه الريح حيث كان معظم الموج فعادت به الريح الى الشاطئ . فقصدت بعد ذلك الى الجهة التي تهب منها الريح ويتموج عندها الماء وألقيت ثمة قليلا من الزيت لا يزيد على ملء ملقطة من ملاعق الشاي ، فما هو الا أن وصل الى الماء حتى سكن على الآثر الى مدى عدة ياردات وراح يتشر ويتشعر حتى بلغ الجانب الآخر مهدئا تلك الرقعة كلها — قرابة نصف فدان — كأنها صفحة مرآة .

بعد ذلك تعودت أن آخذ معى — كلما ذهبت الى الخلاء — قليلا من الزيت في تجويف القصبة العليا من عصاى لأكرر التجربة حيث تتهيأ لي الفرصة ، فوجدتها ناجحة على الدوام .

وقد لفتنى في جميع هذه التجارب شيء واحد بصفة خاصة ، وهو هذا الانتشار الواسع السريع القوى الذى تنتشر به قطرة واحدة من الزيت على صفحة الماء ، ولا أعلم أن أحدا اهتم بهذه المشاهدة قبل الان . فان قطرة الزيت اذا وضعت على مائنة من المرمر المصقول أو على مرآة في وضع أفقى تثبت في موضعها ولا تنشر الا قليلا .

الآنها اذا ألقيت في الماء لا تثبت أن تنشر على صفحته عدة أقدام وترق جدا حتى تتعكس عليها ألوان الطيف الى مدى غير قصير ، ثم لا تزال ترق وراء هذا المدى حتى لا تبدو للنظر الا ما يكون من أثرها

فـ تهدئه الموج ، وكانما يحدث بين أجزائها تدافع مشترك في اللحظة التي تقع فيها على الماء ، ويكون ذلك التدافع من القوة بحيث يعمل عملا في الأجسام العائمة على صفة الماء من قبيل القش أو ورق الشجر أو الحشائش ، مضطرا إياها أن ترجع عن القطرة لأنها ترجع عن مركز حركة إلى مدى غير قريب ، ولم أتبين بعد مقدار هذه القوة ولا قياس المدى الذي يمتد إليه أثرها ، ولكنني أحسبها مسألة من مسائل البحث وأود أن أستطلع سرها .

وقد سافرت إلى الشمال تلك السفرة التي سعدت فيها بلقائك في أورمانثوايت Ormanthaite فزرونا النابه الشهير مستر سميتون على مقربة من ليدز ، وهمت أن أريه التجربة على بركة صغيرة بجوار بيته فقال لنا تلميذ ذكي من تلاميذه — وهو مستر جيسوب — انه شهد هنالك ظاهرة غريبة منذ وقت قريب ، وكان يهم بأن يصل في الماء قدحا من أقداح الشاي يضع فيه الزيت فالتقى منه على الماء بعض ذبابات غرقت في الزيت ، فما كادت تصل إلى الماء حتى أخذت تتحرك وتدور دورة سريعة كأنها حية ناشطة وإن كان قد لمسها فعلم أنها ليست كذلك ، فاستخلصت من ذلك على الأثر أن الحركة آتية من التدافع الذي أشرت إليه ، وأن الزيت الذي يرسله جسم الذبابة الاستفنجي تدريجا يدفع تلك الحركة إلى الاستمرار ، وعاد التلميذ فوجد في الزيت بعض الذبابات الغرقى كررنا التجربة عليها وأردت أن أستوثق من أن الحركة لم تحدث من رجمة الذباب إلى الحياة فأجريت التجربة على الفنتات وقطع الورق مقصوصة على شكل الواو في حجم الذبابة المألف فوجدنا التيار يدفعها ويدير الواو إلى الجهة المضادة ، وليس هذه تجربة بيئية بين جدران حجرة ، لأنها لا يمكن أن تتعاد في ماء جردن أو إلأ على المائدة ولا بد من صفة كبيرة على وجه الماء تسع لامتداد قطرات الزيت القليل . أما الطبق أو الإناء فان قطرة الزيت الصغيرة فيه اذا أقيمت في الوسط شاعت على وجه الماء كله طبقة وضرة صادرة من القطرة وتوقف صدورها مجرد

وصول الطبقة الى جوانب الاناء ، ومنتها تلك الجوانب أن تتخذ شكلـاـ غير شـكـلـ الزـيـتـ بـعـدـ الـامـتدـادـ منـ مصدرـهاـ .

وقد ذهب صديقنا سير جون برنجـلـ بعدـ ذلكـ الىـ سـكـوتـلانـدـ فـعـلمـ أنـ الصـيـادـينـ الـذـيـنـ يـعـمـلـونـ فيـ صـيـدـ سـمـكـ الرـفـجـةـ يـسـتـطـيـعـونـ رـؤـيـتهاـ علىـ بـعـدـ وـأـنـهـمـ رـبـماـ سـاعـدـهـمـ عـلـىـ الرـؤـيـةـ مـادـةـ زـيـتـيـةـ تـبـعـثـ منـ أـجـسـامـهـاـ .

وأـخـبـرـنـيـ سـيـدـ مـنـ جـزـيرـةـ روـدـ أـنـهـمـ لـاحـظـواـ هـنـاكـ فـمـيـنـاءـ نـيـوـبـورـتـ آـنـ المـاءـ يـظـلـ سـاـكـنـاـ مـاـ بـقـيـتـ فـيـ سـفـنـةـ مـنـ السـفـنـ التـىـ تـسـتـخـدـمـ فـصـيدـ الـحـيـاتـانـ ،ـ وـرـبـماـ كـانـ ذـلـكـ لـأـنـ الـآـيـةـ التـىـ يـوـدـعـونـهـاـ دـهـنـ الـحـوـتـ يـرـشـحـ مـنـهـاـ الـدـهـنـ إـلـىـ الـمـاءـ الـذـيـ يـفـرـغـونـهـ مـنـ سـفـنـهـمـ وـيـتـشـرـ عـلـىـ صـفـحةـ الـمـاءـ فـيـ حـولـ دـوـنـ اـثـارـةـ الـأـمـواـجـ عـلـيـهـ .

وسـأـحـاـوـلـ تـفـسـيرـ ذـلـكـ الـمـانـعـ :

فالظـاهـرـ أـنـ لـاتـوـجـدـ بـيـنـ الـمـاءـ وـالـهـوـاءـ طـبـيعـةـ التـدـافـعـ التـىـ تـمـتـ اـتـصالـ أـحـدـهـمـ بـالـآـخـرـ ،ـ وـمـنـ ثـمـ تـجـدـ فـيـ الـمـاءـ بـعـضـ الـهـوـاءـ وـيـعـودـ الـهـوـاءـ بـمـثـلـ ذـلـكـ الـمـقـدـارـ إـلـىـ الـمـاءـ إـذـاـ اـسـتـخـرـجـنـاهـ بـالـمـضـخـاتـ ،ـ وـعـلـىـ هـذـاـ يـمـكـنـ أـنـ يـمـرـ الـهـوـاءـ عـلـىـ صـفـحةـ الـمـاءـ السـاـكـنـةـ وـيـعـدـثـ فـيـهـاـ الشـيـاـمـ التـىـ تـكـوـنـ مـنـهـاـ الـأـمـواـجـ ،ـ وـمـتـىـ يـرـزـتـ مـوـجـةـ —ـ بـالـفـةـ مـاـ بـلـفـتـ مـنـ الصـفـرـ —ـ عـلـىـ وـجـهـ الـمـاءـ لـمـ تـهـبـطـ عـلـىـ الـآـخـرـ فـتـرـكـ الـمـاءـ إـلـىـ جـانـبـهـاـ عـلـىـ سـكـونـهـ ،ـ بـلـ يـكـونـ هـبـوـطـهـاـ سـبـبـاـ لـبـرـوزـ مـوـجـةـ أـخـرـىـ يـغـيـرـ اـخـتـلـافـ فـيـ اـحـتـكـاكـ الـأـجـزـاءـ ،ـ وـإـذـاـ أـقـىـ فـيـ الـمـاءـ حـجـرـ نـشـأـتـ مـنـهـ مـوـجـةـ وـاحـدةـ حـوـلـهـ فـيـ أـوـلـ الـأـمـرـ وـيـرـكـهـاـ فـيـ رـسـبـ فـيـ الـقـاعـ ،ـ وـلـكـنـ هـذـهـ مـوـجـةـ تـهـبـطـ قـبـرـزـ إـلـىـ جـانـبـهـاـ مـوـجـةـ أـخـرـىـ فـمـوـجـةـ غـيـرـهـاـ إـلـىـ أـمـدـ بـعـيدـ .

وـالـقـوـةـ الصـفـيـرـةـ إـذـاـ تـكـوـرـتـ كـلـاـ لـهـاـ أـثـرـ كـبـيرـ .ـ فـالـأـصـبـعـ إـذـاـ لـمـسـ جـرـساـ كـبـيرـاـ لـسـةـ وـاحـدةـ لـمـ تـعـرـكـهـ الـاـحـرـكـةـ يـسـيـرـةـ ،ـ وـلـكـنـهاـ إـذـاـ لـمـسـهـ مـرـةـ بـعـدـ مـرـةـ بـالـقـوـةـ فـسـهـاـ زـادـتـ الـحـرـكـةـ حـتـىـ يـصـلـ الـجـرـسـ إـلـىـ أـعـلـىـ ذـرـوـتـهـ بـقـوـةـ لـاـ تـسـتـطـعـ النـدـرـاعـ كـلـهـاـ أـنـ تـقاـومـهـاـ ،ـ وـكـذـلـكـ الـمـوـجـةـ الصـفـيـرـةـ

الأولى التي تظل الريح مؤثرة فيها ترداد في الامتداد وإن كانت الريح لا تردد في القوة ، وترتفع ثم ترتفع فتتمد قواعدها حتى تشمل مقداراً كبيراً من الماء في كل موجة وتندفع في حركتها بقوة شديدة .

أما إذا وجد التدافع المتبادل بين أجزاء الزيت ولم يوجد التجاذب بين الزيت والماء ، فالزيت الذي يراق في الماء لا يتصل في الموضع الذي ألقى فيه ولا يمتصه الماء ، وينطلق متداً بغیر عائق فيتبسط على صفحة واسعة تحول — فضلاً عن ملاستها — دون احتكاك الهواء مباشرة بالماء، ويستمر هذا المانع مع امتداد الزيت حتى يبلغ من الامتداد غاية القصوى فيضعف أثره ويزول .

وأنتي تخيل الآن أن الريح متى هبت على ماء مغطى على ذلك النحو بطبقة من الزيت لم يسفل احتكاكها به ذلك الاحتكاك الذي ييرز الموجة الأولى ، بل تناسب فوقه وتدفعه ساكناً كما كان ، وهي تحرك الزيت قليلاً ولا شئ ، ولكنها حركة بين الزيت والماء تساعده على الانسياق وتنبع الاحتكاك كما يمنع احتكاك أجزاء الآلات ، ولهذا يذهب الزيت الذي يراق في اتجاه الريح إلى الوجهة المقابلة ، إذ كانت الريح في هذه الحالة لا تتمكن من اثارة الخلجان الأولى التي تسكون منها الأمواج ، فتبقي البركة كلها على حالها من المدوء .

وفي وسعنا إذن أن نسمع الموج حيث نريد إذا وصلنا إلى المهب الذي تنشأ منه أوائلها ، ويتعذر ذلك في البحر المحيط أو يحدث في الندرة القليلة إن حدث ، الا أنه قد يتيسر بعض العمل لتخفيض دفعـة الأمواج حين تكون في وسطها فنمـنـع انكسارها كلـما واقـنـا ذـلـك . إذ لا يخفـى أن الريح كلـما هـبـتـ من جـديـدـ نـجـمـ وـراءـ كـلـ مـوجـةـ خـلـجـاتـ صـسـغـارـ تـرـعـجـ صـفـحـتهاـ وـتهـيـءـ للـرـيحـ آنـ تـاخـذـ يـمـقـبـضـهاـ لـتـدـفـعـهاـ دـفـعـةـ أـقـوىـ ،ـ وـهـذـاـ الـقـبـضـ لـاـ يـتـهـيـأـ لـلـرـيحـ بـمـنـعـ الـخـلـجـاتـ الصـفـارـ ،ـ وـرـبـماـ لـمـ يـتـهـيـأـ كـذـلـكـ عـنـ تـرـيـسـ صـفـحـةـ الـمـوـجـ فـتـدـفـعـهاـ الـرـيحـ إـلـىـ أـسـفـلـ بـدـلـاـ مـنـ تـحـريـكـهاـ إـلـىـ جـانـبـهاـ وـتـعـملـ بـذـلـكـ عـلـىـ تـهـدـيـةـ الـمـوـجـ بـدـلـاـ مـنـ اـسـتـمـارـهـ .

وهذا — على اعتباره من قبيل التخمين — لا قيمة له اذا لم يكن صب الزيت في وسط الأمواج ذا بال ولم يفسر بعد بتفسير غير هذا التفسير .

ان الريح عندما تهب متواالية بحيث لا تسرع الموجات الى تلاية فعلها تكون رؤوسها خفيفة فتدفع وتكسر كالرغوة الأبيض ، وان الأمواج عادة ترفع السفينة ولا تدخلها ، ولكن هذه الأمواج المرغعة المزبدة اذا تعاظمت وارتفعت قد تضرها وتعرضها للخطر العظيم .

وليس لدينا تجربة ثبت لنا أن هذا الخطر يمكن منعه وأن ارتفاع الأمواج في البحر الزاخر مما يمكن تخفيضه ، لأن ملاحظة بليني عن تجارب الملاحين في عصره لم يلتقط اليها . الا أننى حادثت أخيرا صاحب المساعدة الكوانت بنتنک الهولندي ، وابنه الريان بنتنک ، والأستاذ العالمة اليماند ، وأربيلهم تجاربي في تهدئة الأمواج العالية على رأس البستان الأخضر فذكر لي الكوانت خطابا تلقاه من باتفاقا عن اقاذ سفينة في زوبعة بصب الزيت على الماء ، وودت لو حصلت على نسخة من هذا الخطاب فسمح لي الكوانت بها بعد ذلك ، وهذه هي نبذة من الخطاب المؤرخ في الخامس من شهر يناير سنة ۱۷۳۰ يقول فيها مستر تنجاتجل المكونت بنتنک :

« انه على مقربة من جزائر بول وأمستردام لم يوجد ما يستحق التبلیغ الا ما حدث من اضطرار الريان طلبا للسلامة أن يصب الزيت على الماء لمنع تدفق الأمواج فيها فكان لذلك أثر بيئ ونجونا بفضلها ، ولما كان الريان قد حرص على صب الزيت قليلا بعد قليل فشركت الهند الشرقية مدينة بنجاة سفينتها لست قيبيات من زيت الزيتون ، وقد كنت على ظهر المركب عند اجراء هذه التجربة ولم يحملني على الكتابة بها اليك الا ما وجدته من شك القوم في قيمها وضرورة العلم بهذا النفع واقرار هذه التجربة بشهادتنا وشهادة الضباط في السفينة ، مما تيسر لنا بغير مشقة » .

لهذه المناسبة رويت للريان بتنك فكرة خطرت لى أثناء الاطلاع على رحلات ملاحينا المتأخرين ، وبخاصة حين يذكرون العجز الجميلة الخصبة التي يتوقفون إلى الارسأ بها اذا يلجهنهم إلى ذلك الدوار والمرض ثم يتحول البحر المضطرب دون بلوغهم شواطئها ، والفكرة التي خطرت لى أنهم يستطيعون الارسأ بها اذا ترددوا بجية وذهبوا على مسافة قريبة من الشاطئ وصبو الماء أثناء ذلك مع اتجاه الريح الساحلية فربما هبطت الأمواج قبل وصولهم إلى الشاطئ وهدأت حركتها العنيفة هدوءا يمكنهم من الوصول إليه اذا يكون في الأمر من الفائدة ما يساوى قيمة الزيت المصبوب .

وتفصل السيد ، الذى أثرت عنه الغيرة على تحقيق كل مافيه المصلحة وان لم يلتقط الى مخترعاته الذكية الالتفات الواجب لها ، فدعانى الى بورتسموث حيث يرجى أن تستぬق الفرصة للتجربة على شواطئ سبتيهيد ، وتلطف فراملى فى الرحلة ووعد باعطائى الزوارق الازمة لتلك التجربة.

وعلى ذلك ذهبت الى بورتسموث حوالي منتصف أكتوبر الماضى مع بعض الصحاب ، وهبت ريح ساحلية بين مستشفى هسلاير والموقع القريب من جليكر ، فخرجنا من السفينة ستاءور فى زورق طويل وصندل متوجهين الى الساحل ، وكان ترتيبنا هكذا : الزورق الطويل على مسافة ربعميل من الساحل ، وفتة من الصحبة نزلت على الساحل وراء الموقع القريب من جليكر وهو مكان محمى من ناحية البحر ، ثم جاءت واستقرت على مكان مواجه للزورق الطويل حيث يتسع لهم أن يراقبوا صفة الماء ويلاحظوا ما يطرأ عليها من التغير بعد صب الزيت ، وكانت فتة أخرى على الصندل على اتجاه الريح من ناحية الزورق الطويل فى موضع وسط بيته وبين الساحل تذهب وتتجه ، وهي تصب الزيت على الماء من قدرة فيها مسادة مفتوحة أوسع قليلا من ريشة الأوزة ، فلم تسفر التجربة عن النجاح الذى رجوناه ولم يلاحظ فرق محسوس على الموج بجوار الساحل غير أن ركب الزورق الطويل شاهدوا ممرا هادئا على طول

المسافة التي كان الصندل يصب الزيت عليها يتسع كلما اقترب من الزورق الطويل ، وأقول انه مر هادئ ولا أعني أن صفة الماء كانت مستوية، بل أعني أنها مع ارتفاع الموج فيها لم يكن ثمة تأثير للخلجات الصغيرة التي أشرت إليها آنفا ولا للزبد الذي يعلو فوق رؤوس الأمواج ، وإن يكن في متجه الريح والجاذب المقابل له كثير من تلك الخلجات ، وافق مرور زورق منشور الشراع هناك فاختار الممر طريقا للعبور .

وقد يفيد وصف التجربة التي لم تنجح على أن تصح التجربة في مرة أخرى ، ولهذا وصفتها بالتفصيل وأرجو أن أضيف إلى وصفها تعليلا لحيوطها وخيبة الأمل فيها .

يلوح لي أن عمل الزيت على الماء « أولا » أن يمنع ارتفاع موجات جديدة بهبوب الريح ، و « ثانيا » أن يمنع اندفاع الموجات التي ارتفعت فعلا بقوتها الأولى فلا تحدث موجات أخرى ترتفع مثل ارتفاعها كما يحدث لو لم يكن على صفة الماء زيت مصبوب . الا أن الزيت لا يمنع التموج الذي يحدث بسبب آخر أو قوة أخرى كقوة الحجر الذي يسقط في بركة ساكنة لأن الموج يرتفع إذن بقوة الحجر الدافمة « الميكانيكية » التي لا تستطيع الصفحة المزيتة أن تمنعها كما يتمتع اتصال الهواء بالماء وأثاره الأمواج فيه .

والموجات التي ترتفع بقوة الريح أو يغيرها تعمل عملا واحدا في الارتفاع والهبوط كما يعمل الرقاص بعد اقطاع عمل القوة التي دفته إلى الحركة الأولى ، وهي حركة تسكن مع الزمن ولكن لا بد لها من زمن على أية حال .

وعلى ذلك يمكن أن يضعف الزيت على البحر الهائج دفعه الموج الذي على صفحاته فيهبط لامتناع التأثير الجديد الذي يطرأ عليه ، ولكنه لا بد من مرور زمن قبل ظهور الأثر على مثال ما يحدث عند هدوء الريح فجأة ، فإن الأمواج لا تهدأ فجأة بهذه السرعة بل تأخذ في الهدوء شيئا فشيئا حتى تتقطع الريح .

ونحن كذلك وصلنا بحسب الزيت على الماء الى تهدئة الأمواج التي ارتفعت قبل ذلك، ولم يكن منتظرًا أن تم هذه التهدئة على الأثر حتى تستوي الصفحة كل الاستواء ، ولا بد للحركة التي بعثتها أن تستمر بعض الوقت وأن تصعد الى الساحل بقسوة وسرعة ان لم يكن على مسافة بعيدة فلا يلاحظ عليها ضعف محسوس ، ويجوز أننا — على مسافة أبعد من تلك — كنا نحصل التجربة أثراً أكبر من ذلك لو أننا بدأنا عملنا على مسافة أبعد من الساحل ، أو يجوز أن الزيت الذي صببناه لم تكن فيه الكفاية، وتظهر النتيجة في التجارب التالية .

ولقد شكرت الريان بانتك لمساعدته الطيبة الرضية ، ولا أنسى فضل مستر بانكس والدكتور سولاندر والجنرال كارنووك والدكتور بلاجدن الذين اشتركوا في التجربة في ذلك اليوم المضطرب المزعج وصبروا على الدأب فيها صبرا لا يابعث له غير زيادة المعرفة، وبخاصة تلك المعرفة التي تنفع الناس في مواقف الشدة والحرج .

وبودي لو أطلعت صديقك الألماني مستر فاريس على هذه الرسالة مع تبليغه تحيةي واحترامي ، واتنى يا سيدي العزيز مع تقديرى العظالمن ... الخ الخ .

## اجتماعيات

والاجتماعيات التي كتبها فرنكلين تسم — كسائر كتاباته — بـ «السماحة الفطرية» التي تنظر إلى الحقائق من وراء حدود الأجناس والألوان، وتعرف في الوقت نفسه حدود الطاقة الإنسانية فلا تنسى الأعذار وهي تحكم على الذنوب ، ولا تجهل الضرورات وهي تتكلم على الواجبات ، وتجزئ من هذه الاجتماعيات بفصلين : أحدهما عن الهند العمر ، والآخر عن المرأة الخاطئة .

قال بعنوان : «في شئون المتواحدين المقيمين بأمريكا الشمالية» : نسميهم متواحدين ، لأن عاداتهم تختلف عاداتنا التي نحسبها غاية الدمارية والأدب ، وأنهم ليحسبون عاداتهم كذلك .

وأخالنا لو درستنا عادات الأمم المختلفة بغير تحييز لم نجد شعراً قط يبلغ من خشونته أن يتجرد من قواعد الأدب والمحاملة ، ولم نجد شعراً قط يبلغ من أدبه ومجامنته أن يخلو من بعض الخشونة .

أن الرجال الهنود في صغرهم صيادون ومقاتلون ، وهم في كبرهم نصحاء مستشارون ، لأن أمور الحكم كلها تجري بينهم وفاقت لشورة الحكام ، فلا سلطة ولا سجون ولا شرطة تكرههم على الطاعة ، ولهذا تراهم يمارسون صناعة الكلام ، فأبلغهم أكبرهم تفوذاً بين قومه .

والنساء الهندويات يحرثن الأرض ويطهون الطعام ويرضعن الأطفال ويربينهن ، ويحفظن للخلف مآثرات السلف .

وهذه الشواغل التي يستغل بها الرجال والنساء معدودة بينهم من الأمور الفطرية المؤقرة . وهم — لقلة مطالبهم الصناعية — يجدون متسعًا من الوقت لتهذيب المحاذنة والسمر ، وينظرون إلى أسلوبنا المجهد

في المعيشة نظرهم الى ضعة الرق والخسة ، كما ينظرون الى التعليم الذى تهخر به كانه تقاهة وعيت بغير جدوى ، وقد شهدنا مثلا على ذلك فى معاهدة لانكستر بينسلفانيا سنة ١٧٤٤ بين حكومة فرجينيا والأمم المست الهندية . وبعد التفاهم على المسائل الهامة أبلغ المتذوبون عن حكومة فرجينيا جماعة الهند مشافهة أن في وليامبرج كلية ذات رصيد مخصص لتعليم أبناء الهند ، وإن رؤساء الأمم المست اذا رأوهم أن يرسلوا الى الكلية فئة من أبنائهم — ستة مثلا — فالحكومة هناك على استعداد للعناية بهم وتوفير لوازفهم وتعلیمهم كل ما يتعلمه أبناء البيض .

ومن آداب الهند المرعية أنهم لا يجتمعون مفترحون عاماً لمساعته ، إذ يرون في ذلك شيئاً من الاستخفاف به وأنه غير جدير منهم بالبحث والمراجعة ، ويستهلون المقترح ويشما ينظرون فيه ليصدوا بذلك على اهتمامهم بأمره ، ووفقاً لهذا العرف طلبوا المهلة لليوم التالي كي يحيوا عن ذلك الاقتراح ، فلما كان الموعد أعرّب مدره القوم عن شعورهم الصيق بلطف الحكومة الفرجمية في عرض تلك المنحة الكريمة لأنه يعلم أن البيض يكثرون شأن التعليم في الكلية ، وأن توفير المطالب لابناء الهند في تلك الكلية يتكلفها كثيراً من النفقه ، وأن الاقتراح ولا شك ينم على حب الخير ويستوجب منهم الشكر الجزيل .

قال : الا انكم — بما لكم من الحكمة والخبرة — تعلمون أن الأمم المختلفة تختلف في النظر الى الأشياء وتقديرها ، وانكم لا تلوموننا اذا كانت آراؤنا في ذلك النمط من التعليم لا يتحقق لها أن تطابق آراءكم . وقد بلونا ذلك بعض الشيء منذ سنوات حيث تخرج ثور من شبابنا من كليات الشمال وحذقوا فيها جميع علومكم ، ثم عادوا اليانا لا يحسنون العدو ، ولا يعرفون شيئاً عن الحياة في الغابات ، ولا طاقة لهم بالصبر على البرد والجوع ، ولا دراية لهم ببناء كوخ او اقتناص غزال او الغلبة على عدو ، وقد ساء نطقهم بلغاتنا فلا هم قادة مقاتلون ، ولا هم نصحاء مستشارون ، ولا هم على الجملة صالحون لأمر من الأمور .

على أننا لا نبغض حكم من الشكر على من تحكم الكريمة لأننا لم تقبلها ، ولكنى نعرب عن شعورنا بها فتخرج على السادة الفرجينيين أن يرسلوا إلينا نحو اثنتي عشر من أبنائهم تعنى بهم ونعلمهم على نهجنا وندرِّبُهم على كل ما تدرِّبنا عليه ، ونخرج منهم رجالاً أشداء .

والهنود — لتعودهم عقد المجالس والمجتمعات للمشاورة — قد كسبوا القدرة على حظ عظيم من النظام واللباقة في إدارتها . فيجلس الشيوخ في الصف الأول ، ويجلس المقاتلون في الصف الثاني ، ويجلس خلفهم النساء والأطفال ، وعمل النساء في هذه المؤتمرات أن يعلقون في ذاكرهن كل ما يجري وكل ما يقال فيها ويحضظنه تراثاً للأبناء لأنهم لا يعرفون الكتابة .

فالنساء سجلات المؤتمرات ، يحفظن من شروط المعاهدات ما قد مضى عليه مائة سنة ، وقارنن بينه وبين المكتوب عندنا فترى أنه مطابق له كل المطابقة .

وصاحب الدور في الكلام عندهم ينهض قائماً فيصغي إليه المستمعون في صمت وسكون ، ومتى فرغ من كلامه وجلس في مكانه تركوه يضع دقائق يتذكر ويتأني لعله أن يكون قد نسي شيئاً أو خطر له بعد الجلوس ما يستدركه من مقاله فينهض ثانية ويقول ما أراد ، وانهم ليحسبون المقاطعة — حتى في المحادثة الدارجة — غالية في سوء الأدب والنبو عن المجاملة . فما أبعد هذا مما شاهده من نظام المناقشة في المجلس المذهب مجلس النواب البريطاني ... إذ يندر أن يمضى يوم دون أن يعرض فيه ضرب من الاختلاط يبح صوت الرئيس وهو ينبه المناقشين فيه إلى النظام . وما أبعد هذا مما يحدث في كثير من الجماعات المذهبية على القارة الأوربية ، إذ تحس أنك مضطر إلى اتمام عبارتك على عجل والا قاطعك في وسطها أولئك الذين يحدوثونك ولا صير لهم على كبح لجاجتهم في الحديث ، ثم لا يتاح لك أن تعود ثانية إلى اتمامها .

والحق أن مجاملات الحديث عند هؤلاء القوم قد بلغت حد الافراط لأنها لا تسع لهم بمناقضة كلام يسمونه أو تفنيده ، وهم — بذلك — يتغبون على المنازعات ولكنهم لا يظرون لك حقيقة ما يريدون ولا يعرجون عن أثر لكلامك في فوسهم ، وقد طالما شكا المرسلون المبشرون من هذه العادة وعدوها أحدى العقبات الكبار في طريق رسالتهم . فان الهند ليسمعون في صبر وأنة الى حقائق الكتاب التي تشرح لهم يريدون عليها ردودهم المعهودة من علامات الموافقة والاستحسان ، ويختبر لك انهم قد آمنوا وصدقوا ولا شيء من ذلك هناك ، وانما هي مجاملات وقائلـ .

\* \* \*

ومن أخبارهم في ذلك أن قسا سويديا جمع زعماء القبيلة المعروفة بسكونها وخطب فيهم شارحا لهم أسس الواقع التاريخية التي تقوم عليها ديانتنا ، كسقوط أبوينا لأكلهما من تفاح الجنة ، وظهور السيد المسيح للتکفير عن هذه الخطيئة وما عمله من المجائب واحتسله من الألام . فلما فرغ من كلامه نهض خطيب هندي ليشكره ، فقال : « ان ما أخبرنا به شيء حسن ولا ريب ، وإنما من القبيح حقاً أن يؤكل التفاح بدلاً من تخميره واستخراج الشراب منه ، وإنما لشاكرون لك ما تجشت من مشقة لتبلغنا هذه القصص التي سمعتموها من أمهاتكم ، ونود في مقابلة ذلك أن نروي لك طرقاً مما سمعناه نحن من أمهاتنا .

كان آباءنا الأولون ولا غذاء لهم إلا من لحوم الحيوان ، وكانت حالاتهم في الصيد لا تنفع فجاعوا وأوشكوا أن يهلكوا جوعاً ، وانهم كذلك اذ أفلح اثنان من شبابنا في اقتناص غزال فلقد نارا في الغاب ليشويا بعض لحمه ، ثم جلسَا يأكلان منه فلاحت لهما على تلك القيمة التي تلمعها بين جبالنا الزرقاء فتاة حسنة هبّت من السماء واستوت على ذلك المكان ، فقتل أحدهما لصاحبها : لعلها قد شئت رائحة الطعام فجاءت تتمنى تصفيها منه تأكله ، فلأنعمتها أذن ذلك النصيب . وقدما لها اللسان فالتدت مذاقه وقالت لها : إن الهدية التي تفضلتـ بها لمجزية

أحسن الجزاء . فتعاليا إلى هذا المكان بعد ثلاثة عشر شهراً تجدنا فيه شيئاً ينفعكم في الطعام وينفع أبناءكم إلى الجيل الأخير ؛ فعادا كما قالوا وأدهشهما أن يجدا في المكان باتا لم تقع عليه أعينهما من قبل ، ولم يزد ذلك النبات ينمو بينما وتنتفع به أحسن اتفاق . وقد نبتت الذرة حيث مسست يمينها الأرض ، ونبت التوبيخ حيث مسست الأرض بسمالها ، ونما التبغ حيث جلست عليها .

وامتنع القس العظيم من سماع هذه القصة الفارغة وقال لهم : إن ما حدثكم به هو الحق المقدس وأتم تحدثوني بعد ذلك بالترهات والأباطيل . وساء الهندى أن يسمع منه هذه الكلمة الجافية فقال له : إن أصحابك يا أخانا لم ينصلوك بحقك من التعليم ولم ينشئوك النشأة الحسنة في آداب العرف والمجاملة . ولقد رأيت أننا سمعنا أقصاصك فصدقناها ، فما بالك أنت لا تقابل منا ما سمعت بالتصديق ؟

ويقد الواحد منهم إلى مدننا فيكتوف الناس حوله ويحملقون في وجهه ويتطلقون عليه حيث يحب أن ينفرد بنفسه ، وهم يعيون ذلك ويعذونه من العشونة وسوء الأدب والتقص في عرف التجية والمجاملة ، ورقولون إننا تتطلع كما تتطلعون ونحب التضليل كما تجرون ، ييد إننا نختبئ لراكم وراء الآجام ولا نعرضكم في الطريق أو تتطلق باصطلاحكم حيث تسرون .

وان لعم لآدابا متعددة في دخول القرى التي يفدون عليها ، فلا يستحسنون من القادر أن يدخل إلى القرية فجأة بغير استئذان ، وهم لهذا يقعون على مرأى من أهل القرية ويصيرون ولا يتقدمون خطوة حتى يأتيهم من يدعوه للدخول ، وقد جرت عاداتهم أن يستقبل القادمين اثنان من شيوخ القرية يهديانهم الطريق إلى بيت خال يسمونه بيت الغرباء . ثم يذهبان من خص إلى خص يبلغان القوم بمقدم الضيف ، وانهم ربما كانوا في حاجة إلى طعام وراحة ، فيرسل كل منهم ما في وسعه من زاد ومن جلوه يستريحون عليها ، فإذا استوفوا راحتهم جاءوهم

بالتبع يدخلونه ويدأوا بالحديث سائرين عنهم وعن وجهتهم وما هم قدموه من أجله ، ويتهي الأمر أحياناً بعرض الخدمة عليهم لاصطدامهم وتمويلهم مسافة الطريق بغير أجر ولا ثمن .

وهذه الضيافة التي يعدونها بينهم من الفضائل العالية مطلوبة من أحادهم كما تطلب من جماعاتهم ، وقد أخبرني مترجمنا « كونراد وزر » بالقصة التالية فقال : انه نشأ بين الأمم المست وحذق لغة المهووك ، وأنه في رحلة من رحلاته بين بلاد الهندو يحصل رسالة من حاكمها إلى مجلس « أوتنداجا » زار مسكن « كناستيجو » أحد أصدقائه الأقدمين ، فعاقبه الرجل وفرض له الفراء ليجلس عليه ووضع أمامه فولا مسلوفا ولحمه وقدحا من شراب الروم مشعشعا بالماء ، فلما استراح وأخذ في التلخين بدأ « كناستيجو » بالحديث وسأله عن أحواله في السنوات التي افترقا فيها وعن وجهته والمكان الذي أقبل منه والغرض الذي خرج من أجله ، فأجابه موفراد عن هذه الأسئلة حتى أوشك الحديث بينهما أن يفتر وسيتعذر ، فقال له الرجل : أيه كونراد ، إنك عشت طويلاً بين البيض وعرفت شيئاً من عاداتهم ، وقد زرت أنا أقليم « ألباني » ولاحظت أنهم يلقون دكاينهم يوماً في كل سبعة أيام ويتجمعون في منزل عظيم . فهلا حدثتني عن ذلك الاجتماع ما مقصدهم منه وماذا يصنعون فيه ؟

قال كونراد : إنهم يجتمعون هناك ليلتحموا الآداب والطبيات المأثورة

قال الهندي : لست أشك في أنهم أخبروك بما تقول لأنهم أخبروني بذلك . غير أنني أشك في مقالهم وأصارحتك بأسباب شكى . ثم استطرد قائلا :

ذهبت إلى « ألباني » كي أبيع جلودي وأشتري ما أحتاج إليه من الأغطية والسكاكين والبارود وشراب الروم ، وأنت تعلم أنني تعودت أن تكون معاملتي مع هانس هانسون ولكننى في هذه المرة أردت أن أجرب غيره من التجار . على أنني زرت هانسون باديء الرأى وسألته :

بكم يشتري جلد السمور ؟ فقال انه لا يزيد في تقديره على أربعة شلنات للرطل الواحد ، غير أنه لا يستطيع أن يتحدث إلى فـ أمور المعاملة لأنه اليوم الذى خصصوه لتعلم الآداب والطبيات المأثورة . وأنه سينصب إلى الاجتماع اذا كان لا يقدر على مباشرة عمل من الأعمال .

قال الهندي : فذهبت معه ، وألقيت ثمة رجلا يلبس السواد أخذ يخاطب الناس في غضب شديد ، فلم أفهم ما قال ، ولكنني رأيته ينظر إلى والي هانسون فظلت أله غاضب لرؤيتي هناك ، فخرجت وجلست إلى جانب الدار وأشعلت قصبة لأدخن متظرا حتى ينفتش الجميع ، وظلت كذلك أذكر شيئاً عن السمور وخطر لي أن الاجتماع كله يدور على هذه الحكاية . فلما انصرف المجتمعون لقيت تاجرى وقلت له : أيه يا هانس ! أفلتك قد فكرت في الأمر وزدت في تقديرك على الشلنات الأربع . فأجابنى قائلاً : كلا ! أنا لا أستطيع أن أعطيك هذا الشمن ولا أزيدك على ثلاثة شلنات وستة بنسات . وانطلقت أتحدث إلى غيره من التجار فالقائمهم جميعاً يعيدون هذه لنفقة بعينها : ثلاثة وستة بنسات ! ثلاثة وستة بنسات ! ووقد في خلدي من ثم أتنى على حق في شبهتى وأنهم مهما يزعموا من سبب تلك الاجتماعات وأنهم يلتقون فيها ليتعلموا الآداب والطبيات المأثورات فاما السبب الصحيح أنهم يجتمعون ليخدعوا الهندود عن ثمن السمور ، وإذا تأملت قليلاً — ياكونراد — فلا شك أنك تشب إلى رأىي وتعلم أنهن لو كانوا يجتمعون ليتعلموا الآداب والطبيات المأثورات لكانوا قد تعلموا طرقا منها قبل ذلك . الا أنهم على جهلهم القديم ، وأنت تعلم عاداتنا معهم اذا قدم منهم أحد الى أكواخنا كيف نعامله كما نعاملك وننحيف ثيابه ان كان بها بلل وندفعه ان كان به برد ونبسط له الطعام من اللحم والشراب ليفتا ظماء ، ويشبع جوفه ، وتفرش له الفراء لينام ويستريح ولا تقاضاه أجرًا على شيء من هذه الأشياء . ولكننا اذا ذهبتنا الى بيت من بيوت البعض في «البانى» والتمسنا لحما أو شراباً سألهنا : أين تهدوك ؟ فان

لم تكن معى نفود طردونى وصاحوا بي : اغرب من هنا أيهما الكلب  
الهندى !

فأنت تبصر أذن أنهم لم يتعلموا تلك الطبيات الصغار التي تعلمها  
نحن بغير حاجة الى اجتماعات وخطابات ، لأن أمهاتنا يعلمنا ايها ونعن  
أطفال ، ومحال أن تكون اجتماعاتهم هذه لغرض من تلك الأغراض التي  
يدعونها ، أو أن يكون لها أثر فيما يزعمونه ، وكل ما فيها أنها حيلة  
يحتالونها لخداع الهنود عن ثمن السمور <sup>(١)</sup> .

---

(١) من كتاب الخزعيلات المتقدم ذكره .

## محاكمة التحْرَة في جبل هُولِي

و هذه نبذة مترجمة من كتاب أئمة الأدب الأمريكي Masters of American Literature و نشرت أولاً في صحيفة بنسيلفانيا Gazette بتاريخ ٢٢ أكتوبر سنة ١٧٣٠ .

\* \* \*

« في يوم السبت الماضي ، عند جبل هولي ، على مسافة ثمانية أميال من برلنجتون ، اجتمع نحو ثلاثة إنسان للتفرج على تجربة أو تجربتين في أشخاص متهمين بالسحر الأسود ، ويظهر أن المتهمين قد اتهموا بأنهم جعلوا خراف جيـاـنـهـم ترقص على أسلوب غير مأثور ، وجعلوا خنازيرهم تتكلـمـ وـتـشـدـ المـزـامـيرـ مما أـفـزـعـ رـعـاعـياـ جـلـالـةـ المـلـكـ الـأـمـنـاءـ الـوـادـعـينـ فـيـ الأـقـلـيمـ . وقد أصر المدعون على ادـعـاهـمـ أنـ الـتـهـمـ لـوـ وـضـعـواـ فـيـ كـمـةـ وـوـضـعـ الـكـتـابـ المـقـدـسـ فـيـ كـمـةـ لـخـفـ مـيـزـانـهـمـ وـثـقـلتـ كـمـةـ الـكـتـابـ ، وـأـنـهـمـ لـوـ أـغـرـقـواـ مـقـيـدـيـنـ طـلـفـواـ عـلـىـ وـجـهـ الـمـاءـ عـائـيـنـ .

وأراد المتهمون أن يظهروا براءتهم فقبلوا التجربة واقترحوا أن يوضع معهم إثنان من أشد المدعين اصراراً على الادعاء ، وعلى هذا تم الاتفاق على المكان والزمان وأعلن عن الموعد في صحف الأقليم .

وكان المدعيان رجلاً وامرأة ، والمدعى عليهما كذلك رجل وامرأة ، وانعقد الجمع وتلاقي الفريقان فدارت المشاورات بينهم قبل البدء بالتجربة وتماهموا على الابتداء بالوزن واختاروا جماعة من الرجال لتفتيش الرجال وجماعة من النساء لتفتيش النساء ، تحققاً من تجردهم جميعاً من الأوزان الزائدة ولا سيما الدبابيس .

ويعد البحث والتفتيش جـيـهـ بـسـخـةـ ضـخـمـةـ منـ الـكـتـابـ المـقـدـسـ يـمـلـكـهـ قـاضـيـ الـبـلـدـ ، وـفـتـحـتـ طـرـيقـ فـيـ وـسـطـ الزـحامـ مـنـ دـارـ القـاضـيـ إـلـىـ مـكـانـ الـمـيزـانـ الـذـيـ عـلـقـ بـمـشـتـقةـ أـقـيـمتـ فـيـ مـوـاجـهـةـ الدـارـ لـيـراـهاـ دـيـاتـ

الدار دون أن يخرجن لخالطة الدهماء ، وتوسطت المكان حلة على حسب المأثور . ثم خرج من الدار رجل طويل وقور يحمل الكتاب بوفار كوفار السيف الذى يمشى في لندن أمام عمدتها الكبير .

ووضع الساحر أولا في كفة الميزان حيث تلى عليه اصحاب من أسفار موسى ، ثم وضع الكتاب في الكفة الأخرى التي كانت مهبطه على الأرض وأرسات على الآخر . فما كان أعظم دهشة الناظرين حين أبصروا اللحم والعظام تهبط والكتاب العظيم يسلو ويترفع ويوجهها اللحم والمظالم بكثير ، وتكررت التجربة مع الآخرين فكانت أنتقامهم كذلك أعظم من أفال كتب موسى والأنباء .

وانتهت هذه التجربة ولم يكتف بها الجمع بل أرادوا أن يتسموها بتجربة الاغراق في الماء . فتقدم الجمع في موكب وقوف إلى البركة حيث جرد المدعون والمتهمون من ثيابهم إلا ما يسترهم وقدف بهم في النهر مقيدين بالحبال وفي وسط كل منهم حبل يمسك به بعض الواقفين على الحافة ، وكان المتهم نحيفا هزيلًا فلم يرسب لأول وهلة وبعد لأى ما غاص في جوف الماء ، وجعل الآخرون يسبحون خفافا على وجه الماء . وقفز ملاح على الحافة فوق ظهر الرجل المتهم يظن أنه يهبط به إلى قعر البركة ولكن الرجل المقيد عاد إلى الظهور قبل الآخر بهنية وجزة .

ولما أخبرت المرأة المدعية أنها لم تنفس في الماء ، وأنها ستعاد اليه عادت وطبقت مرة أخرى خفيقة كما كانت في المرة الأولى فراحـت تقول إن المتهم قد سحرها وطفـف وزـنـها وأنـها تـريـدـ أنـ تـعـيدـ التجـربـةـ كـرـةـ أـخـرىـ بلـ مـائـةـ مـرـةـ حتـىـ تـرـغـمـ الشـيـطـانـ عـلـىـ الخـروـجـ مـنـهاـ .

أما المتهم فقد رأى أنه يطفـفـ علىـ المـاءـ فـتـرـعـزـتـ ثـقـتهـ بـبرـاهـنهـ وـصـاحـ :  
لـنـ كـنـتـ سـاحـراـ لـيـكـونـ ذـلـكـ عـلـىـ غـيرـ عـلـمـ مـنـيـ .

وكان ذوي المسـكةـ منـ العـقـلـ بـيـنـ المـتـفـرـجـينـ قدـ آـمـنـواـ أـنـهـ مـاـ مـنـ أحدـ يـلـقـىـ فـيـ المـاءـ مـسـكـوـفاـ إـلـاـ طـفـاـ عـلـىـ وـجـهـهـ مـاـ لـمـ يـكـنـ عـلـامـاـ فـيـ جـلـدـهـ وـلـاشـيءـ

وأنه يظل كذلك حتى يذهب نفسه وتمتلئ، رئاته بالماء . الا أن الرأى  
السائل بينهم كان يميل الى الظن بأن فضول النساء على أجساد النساء  
تساعدهن على العوم ، فلا بد من تجربة أخرى وهن عاريات في الموعد  
المقبل من مواعيد الصيف .

---

## خاتمة

قليل من القراء من يعلم انى دخلت مدرسة (الصناعات) ببولاك لدراسة الكهربا والتلغراف ، وأقل منهم من يعلم الصلة بين اتجاهى الى هذه الوجهة وبين اسمين من كبار المخترعين الذين بدأوا حياتهم بالعمل في الصحافة والكهرباء ؛ هما فرنكلين واديسون .

ولست أذكر على التحقيق متى سمعت لأول مرة باسم فرنكلين واسم اديسون ، ولكننى أذكر جيداً انى لم أعرفهما من كتاب أو من دراسة علمية ، وإنما سمعت بهما من موظف في التلغراف شديد الاعجاب بهما ، على أثر حادث من حوادث الصادفات ، تناولته الصحف بالتعليق السياسى في ذلك الحين ، ولم تعره شيئاً من الاهتمام من الناحية العلمية .

كان ذلك الحادث ، على ما أذكر الآن ، سقوط صاعقة على بناء مجلس الوزراء و كنت لا زال يومئذ في بلدتى أسوان لم أ Birch مدرستها الابتدائية ودار الحديث عن الصاعقة وعن العلاقات السياسية عليها ، وتحدث الموظف بالتلغراف من جيراننا عن رجل يسمى فرنكلين ورجل يسمى اديسون : كلاهما عامل صغير بدأ حياته بالعمل اليدوى في الصحافة ثم اخترع باجتهاده أكبر المخترعات في الكهربا ، ثم جرى — في شيء من اللقط المبهم — ذكر عمود الصواعق وذكر الفنغراف ، وفضل العاملين الصغيرين في كل من هذين الاختراعين .

وقام بذهني أن أصنع مثل هذا الصنيع يوماً من الأيام ، فلم أزل حتى دخلت مدرسة (الصناعات) في نحو الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمرى ، وشعرت يومئذ كأنى أفسر حلماً قد يما كاد أن يذهب بين الواقع والنسيان ، وكاد فرنكلين أذن أن يتوجه بحياته وجهة غير وجهتها ، يوم كان اسم فرنكلين يحضرنى مقرضاً بالكهرباء ولا يحضرنى منه شيء من سيرته الطويلة في الكتابة والتفكير والسياسة .

ووقع في يدي بعد ذلك كتيب من سلسلة كبيرة تلخص الترجم  
والمؤلفات لأعلام النوع في الثقافة الغربية فبدأت به قراءة تلك السلسلة  
لأنه مكتوب عن صاحبنا القديم فرنكلين .

ومن تحكم الذاكرة أنني أذكر حتى اليوم منظرين من مناظر السيرة  
التي لخصها ذلك الكتيب الصغير .

أحدهما منظر الطفل الجائع فرنكلين يقضى رغيف الخبز وترصد له  
طفلة في طريقة لاتزال تداعبه وتلح في مداعبته وتوقع في روعه أنها تريد  
أن تخطف الرغيف من يديه ، حتى يوشك أن يبكي من الغيظ الذي لم  
يكن يكرهه كل الكراهة على ما يظهر !

والمنظر الآخر منظر الحوار بين فرنكلين ورجل من رجال الدين تلقى  
من يديه عارفة مشكورة ، فإذا هو يشكّره باليابسة عن الله كأنما هو غريب  
عن الموضوع لا شأن له بين المحسن والمحسن إليه ، ويأتي فرنكلين أن  
يفوت على الرجل روغانه هذا من واجب الشكر ، فيقول له : إنما أعطيتك  
أنت يا أبا إيه !

وأقول إن بقاء هذين المنظرين دون غيرهما من مناظر تلك السيرة في  
ذلك الكتيب الصغير إنما كان من تحكم الذاكرة فيما تأخذ وفيما تدع ،  
لأنني حين توسيع في قراءة فرنكلين ، وفي القراءة عنه بعد ذلك ، وجدت  
في السيرة العاملة مناظر لاتخضى بما يصح أن يعلق بالذاكرة ويفطّن على  
منظار الرغيف المهدد ومنظر القدس الرائع من الشكران ... ولا أحسب ، على  
هذا ، أن أغسل الذاكرة كل الظلم ، فلعل هذين المنظرين يجذبان من  
فرنكلين في نفس القارئ الشاب ، ما لم يجتمع من منظرين غيرهما في  
الكتيب الصغير .

وقرأت بعد ذلك كثيراً من فرنكلين وعن فرنكلين ، ولم أنس قط  
 أنه كاد أن يوجه حياته وجهة أخرى في يوم من الأيام .  
ثم دخلت السجن ودعوت بكتاب أتعلم منه اللغة الفرنسية بغير معلم ،

واخترت القراءة في الجزء المخصص للمطالعة قبل الجزء المخصص للأجرامية ، فلم أقلب من الكتاب صفحة بعد صفحة حتى التقيت بصاحبنا القديم فرنكلين في الصفحة الرابعة والسبعين من الكتاب<sup>(١)</sup> .

والقصة قصة اللقاء الأول بين فرنكلين والعالم الفلكي الفرنسي الكبير دي باليلى De Bailly ، وهي أعجب ما قرأت من نوادر هذا الرجل العجيب .

« فرنكلين مندوب المستعمرات الأمريكية الثائرة على الوطن الأم ، وفد إلى باريس سنة ١٧٧٧ ، ورأى الفلكي دي باليلى من واجبه أن يزور الأمريكي النابه ، فاستقبله فرنكلين بترحاب غاية في المودة وبادله بعض كلمات من التحيات التي تتبادل في مثل هذا المقام ، وجلس باليلى على مقربه من الفيلسوف الأمريكي وترقب بكل عنابة ما يفوه به من الأسئلة ، وانقضى نصف ساعة وفرنكلين لا يفتح فمه ، وأخرج باليلى علبة السعوط وقدمها إلى جاره دون أن ينبعس بكلمة ، فأشار فرنكلين بيده إشارة معنها أنه لا يتعاطاه ، واستمرت هذه المساجلة الصامتة ساعة كاملة ، فنهض دي باليلى واستعد للانصراف ، وبدأ على فرنكلين كأنه فرح بلقاء فرنسي يستطيع أن يلوذ بالصمت ويمسك لسانه ، فأخذ بيده وشدّها شدة حمية وهو يقول في حماسة بينة : حسن جدا يا سيد باليلى . حسن جدا . وتوقّفت بينهما المودة بعد ذلك فأصبحا من خيرة الأصدقاء ».

ولم أكد أصدق ما قرأت ، واتهمت جهلي بالفرنسية فاختلست فرصة من فرص السجن أغرضها فيها على زميلنا الأستاذ حسن النحاس ، فقال لي : التي فهمت منها الصواب .

إن موضع العجب في القصة أن فرنكلين لم يشتهر في مجالسه بشيء كما اشتهر بلباقه الحديث والسر وأفاني الكلام المستحب بين الجد والفكاهة ، مما الذي أجهه إلى ذلك الصمت مع العالم الفرنسي الكبير ؟

لا أعلم ، ولم أجد من سيرته مع هذا العالم أو مع غيره ما يجعلوني  
سر هذه «الصستة» الغربية ، ولكنني عرفت منها حقيقة لا ريب فيها :  
عرفت منها أن هذا الرجل يستطيع أن يشع من حوله جو الجنة والجودة  
وأن يمحو من ظن جليسه كل احتمال للبغاء والفتور ، ولو لا ذلك  
لأنصرف العالم الفرنسي من حضرته وهو عدو مبين ، ولم ينصرف  
— كما قالت القصة وقال التاريخ — صديقاً من أخلص الأصدقاء  
المقربين .

ثم حان الأوان وشرعت في كتابة هذه السيرة وأنا أحس كأني جددت  
الصلة الفكرية بصاحب قديم ، وتبينت من مراجع السيرة كلما أمعنت  
في تصفحها أنها بنت أوانها ، إذا كان لكتابه السير أوان مفضل عدا  
ما تستحقه كل سيرة من التسجيل والتحليل .

فحن في عصر التجزئة والتفتت أحوج ما تكون إلى مثال كامل  
لإنسان لم يمزقه التخصص شلوا شلوا بين شواغل العقل وشواغل الحياة .  
ونحن في عصر الطفيف على «الشخصية» الفردية أحوج ما تكون  
إلى مثال من غبار الناس لم يستفرغه الغمار ولم يسمح ملامحه المميزة  
بين أمواج التيار .

ونحن في عصر البوغ العصامي نحتاج إلى عظمة تقرب العصامية  
لم يهابها وتيسر القدوة لمن تروعه حالات العظمة في أعلام التاريخ فيجمجم  
عن الاقتداء بها ويحسب نفسه من غير معدتها .

فالعظمة في هذا العصامي من «طينة عامة» حيثما واجهتها كما قال  
فيه أصدق مترجميه . إلا أنك تواجهه من جهات شتى فتلمح في كل منها  
تلك العظمة التي تحسبها من الطينة العامة ، وترى ، كيف تكون العظمة  
الإنسانية أحياناً «كالسهل الممتنع» في بلاغة البلفاء ، يغريك بالمحاكاة  
والاقتداء ولا تعرف كيف يمتنع عليك إلا وقد تسكن منك الاغراء .

وفيما لقى هذا الرجل العظيم من العرفان تشجيع أي تشجيع .

وفيما لقى هذا الرجل من الانكار عزاءً ألى عزاءٍ ، وربما كان العزاء  
من سير العظام أجدى وألزم من التشجيع .

لقد كرمته معاهد العلم في أيام الحضارة بأشرف القابها ، وعرفت له  
أمته مآثره في جهاده فاستقبلته كما يستقبل الفاتحون ، ومحضته من  
الاكبار والاعجب ما يحيط العذر للحاصلين . فلا عذر لمن يحسد هذا  
الرجل الا أنه استحق الحسد بفرط ما استحق من اكبار واعجب .

ولو أن عظيماً بين آبناه آدم وحواء ينجو من الحسد لنجا منه هذا  
العظيم الذي غض من كبرياته باختياره فلم يدع فيه بقية لمن ينكر عليه  
الكبريات ، ولو انكر عليه عرفان العارفين بالقدر الكبير .

مات ولم يشكره مجلس الأمة الذي كان له فيه أنداد وزملاء ، ولبس  
عليه الحداد مجلس الأمة الذي لم يعرفه الا بالسماع . مجلس الشيوخ  
يغض عليه بالشكرا ومجلس النواب يلبس السواد ثلاثة أيام حزناً عليه .  
لعله لو لم يحسد هذا الحسد لقليل انه لم يبلغ من عرفان قومه غاية  
ما يستطيع .

والاليوم وقد أخذ الفناء ما أخذ ، وأبقى الخلود ما أبقى ، لا يضارُ  
المحسود بما أصابه كما يضار الحاسد بما أصاب ، ولو كتب لفرنكلين  
أن يعود الى الدنيا كما تمنى أن يعود كل مائة عام ، لما تمنى — بخبرة  
الحياة والموت — أن يتبوأ من دنياه مكاناً أرفع مما تبوأه بعمله وذكراه .





بچامیں فرانکلین

نشر بالاشتراك

مع

مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر